صَلاحُ الدِّينِ الأيُّوبِيّ

عبد المنعم الهاشمي







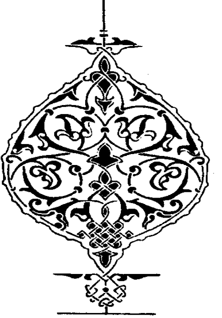
صلاح الدين الأيوبي



الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٦٠٥٦

الترقيم الدولي
977-331-443-2




دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، محمد بن عبد الله.

أما بعد،،،

فإن سيرة صلاح الدين الأيوبي حقائق وصور مهمة يجب أن تُدْرس وتدَّرس، وقد تناول أحباء صلاح الدين سيرته بعاطفة فياضة، لا يريدون منها سوى العناوين الرئيسية، ولكن سيرة هذا البطل تحتاج إلى دراسة متجردة، ونظرة خاصة تدرك حقًا، كيف صنع هذا الرجل نموذج قيادة عسكرية، إسلامية، هي بحق القدوة والنموذج الأمثل، ولكن بعد أن تقرأ سيرته الرائعة، تحية للبطل، والقدوة، تحية لصلاح الدين الأيوبي.

عبد المنعم الهاشمي

صلاح الدين الأيوبي

• نشأة صلاح الدين:

يعد صلاح الدين من الأكراد الهكارية الروادية، ومن البارزين في هذه الجماعة، وهذا النسل من أشراف الأكراد[(١)].

وأصل أسرته من بلدة دوين، وهي في الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد اذربيجان، وأن والده نجم الدين أيوب، هاجر مع الأسرة إلى بلدة تكريت، وقد تعين مستحفظًا فيها من قبل بهروز شحنة بغداد.

وكان عمه (أسد الدين شيركوه) من المتطوعين في الجند، وكان من الشهامة والشجاعة بحيث برز في جيش (نور الدين محمود زنكي) حين التحق به، و(شيركوه) كلمة تعني: أسد الجبل[(٢)].

غادر الأخوين (نجم الدين أيوب)، و(أسد الدين شيركوه) تكريت هاربين إلى الموصل، وذلك لسببين هامين، هما:

الأول - مساعدة (نور الدين زنكي) الهارب بعد هزيمته أمام جيش الخليفة، ولكي يسهلوا عبور نهر دجلة، وتقديم المساعدة له حتى وصل الموصل.

الثاني - لأن (أسد الدين شيركوه)، قتل أحد مماليك بهروز شحنة بغداد، فخاف من الانتقام هو وأخوه (نجم الدين)، فخرجا إلى الموصل.

وقد أكرم (نور الدين زنكي) مثوى الأخوين عرفانًا بجميلهما ٥٣٢هـ، ١١٣٧م.

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١) (ص٣٤١).

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (جـ ٢) (ص٤٨١).

وفي الليلة التي غادر بها الأخوان (نجم الدين) و(أسـد الدين شيركوه)، ولد لنجم الدين أيوب ولد سمَّـاه (يوسف)، ولقِّب بصلاح الدين، وقد حمـله معه إلى الموصل[1].

وفي الموصل التـحـق الأخـوان بجند زنكي، ونزلا مـعـه فـي حلب، وخطى الأخوان عنده، حتى أن (أسد الدين شيركوه) أصبح من أبرز قادة جيشه، وكان (نجم الدين أيوب)، والد صلاح الدين مستشاره الحكيم العاقل، فلما فتح بعلبك ٥٣٢هـ، عهد بولايتـها إلى (نجم الدين) وعمر ابنه صلاح الديـن (يوسف) سنتان فقط، ومن بعلبك قضى يوسف ابن أيوب نشأته، إلى أن أصبح فتى يبلغ اثنتا عشرة سنة.

وقد شاهد المعارك التي دارت بين الفرنج وعـمه والمسلمين حول المدينة، وقد حضر وهو في هذا السن المبكرة استخلاف أبيه على هذه المناطق، بعد قتل (عماد الدين زنكي)، وشهد قتالاً عنيفًا دار.

وظل (أسد الدين شيركوه) وفيًا لـ (نور الدين الزناتي)، وتعاون (نور الدين) و(أسـد الدين) على فتح دمـشق لحسـاب (نور الدين)، وبعـد فتح دمـشق بقى صلاح الدين يتردد بين دمشق وحلب، وكان أكثر الـتصاقًا بعمه منه بأبيه، لذلك فقد خلـف صلاح الدين أخاه الأكبر (توران شـاه)، كنائب لعمه (شـيركوه) في ٥٥١هـ، ١١٥٦م، في ديوان الجيش بدمشق.

ثم انتـقل (نجم الدين أيوب) إلى خـدمة مـعين الدين أثر في دمـشق، وفي الوقت نفســه كان حـاكمًا لبـعلبك، ولما توفى (عمـاد الدين زنكي) في الموصل خلفه ابنه (سيف الدين غازي) على الموصل، لذلك خشى (نجم الدين أيوب) أن يأخذ (بسيف الدين الزنكي) بعلبك منه بالقوة، فاضطر إلى تسليمها (لآنر) الذي

---

(١) «تاريخ ابن الفرات» (٤: ١/ ٥٥).

عوَّضه عنهما بإقطاع كبير فضلاً عن مبلغ كبير من المال، وأعطاه دارًا يقيم فيها في (دمشق)، وأصبح (نجم الدين أيوب) مقربًا من (آنر)، حتى عينه قائدًا لقواته واستمرت القيادة حتى استولى (نور الدين محمود) على (دمشق) في عام ٥٤٩هـ، ١١٥٤م، فدخل (نجم الدين) في خدمته، ولكن ما هو موقف أخيه (أسد الدين شيركوه)؟!، ذلك ما سنراه في السطور القليلة القادمة.

• موقف أسد الدين شيركوه

تقرب أخوه (أسد الدين شيركوه) من (نور الدين محمود)، وقد كان في حلب، ومنحه (نور الدين محمود) مزايا كثيرة منها أنَّه جعله مقدم عسكره، وذلك لشجاعته، وجرأته في الحروب، وظل يترفع لديه إلى أن أقطعه (حمص) و (الرَّحبةٌ) والرحبة تقع بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل (قرقيسياء) بينهما وبين (دمشق) ثمانية أعوام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرنج[1].

وقد شارك (أسد الدين شيركوه) مع (نور الدين محمود) في جميع معاركه وحملاته العسكرية، بل هو صاحب فضل في إنقاذ دولة (نور الدين محمود) من خطر الصليبيين في منتصف عام ٥٤١هـ، ١١٤٦م، وتفضل شجاعة (أسد الدين شيركوه)، استطاع (نور الدين محمود) أن يضم دمشق إليه عند هذا الحد.

وصلت مكانة (نجم الدين أيوب) و(أسد الدين شيركوه) إلى مستوى رفيع، بحيث أنهما أصبحا أقرب الناس إليه، ومن نتائج ذلك اختار (نور الدين محمود) (أسد الدين شيركوه) ليقود قواته إلى مصر، للاستيلاء عليها وضمها إلى الشام، وقد صحبه في هذه الحملة ابن أخيه صلاح الدين، بل وفي جميع حملاته، وقد نجحت حملة (أسد الدين شيركوه) إلى مصر، حتى أنه تولى

---

(١) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (جـ ٣) (ص٣٤).



منصب الوزارة في مصر في ظل الحكم الفاطمي الضعيف المنهار، وفي ٥٦٤هـ، ١١٦٩م، توفى (أسد الدين شيـركوه)، فخلفه ابن أخيـه صلاح الدين، وأصبح في السلطة على النور، فتولى الوزارة الفاطميـة، وكان لتوليه الوزارة أثرًا عظيمًا في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي.

• كيف تولى صلاح الدين الوزارة في مصر؟

تنافست قـوى مختلفـة على كرسي الوزارة في مـصر، على إثر وفاة عـمه (أسد الدين شيـركوه)، فقد حدثت خلافـات على منصب الوزارة وتنافس عليه عدة قوى واتجاهات من أهمها:

[١] الفاطميـون وعسكرهم الذين رغبـوا أن يتولى الوزارة وزيرًا مدنيًا مـصيرًا، يمكنهم التحكم به.

[٢] أمراء نور الدين محمود الأتراك الذي رافـقوا الحملة إلى مصر، ومن هؤلاء (قطب الدين ينال بن حسان)، و(عين الدولة الياروقي)، و(سيف الدين أحمد المشطور) وغيرهم.

[٣] (شهاب الدين محمود الحارمي) ـ خال صلاح الدين ـ.

تنافس هؤلاء على اعتلاء منصب الوزارة عقب وفـاة (أسد الدين شيركوه)، بينما طل (صلاح الدين) صامتًا إلى أن اقترح ترشـيحه الفقيه (عيسى الهكاربي) لمنصب الوزارة، وقد وافق خاله (شهـاب الدين الحارمي)، والمشطوب أحد أمراء الأتراك على هذا الترشيح[١].

وجاءت موافـقة الخليفة العـاضد لتحسم أمـر اختيار صـلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة، خلفًا لعمـه (أسد الدين شيركوه)، وقد اعتـقد العاضد أن سن

(١) «تفريج الكروب» لابن واصل (جـ ١) (ص١٦٨).

صلاح الدين الصغير، وقلة خبرته، وضعف تجربته، سوف يجعلانه فرسًا سهل الاقتياد، فيعتمد على موظفي الدولة الفاطمية، ويكون آداةً سهلة في يد الخليفة الفاطمي يستغلظ في القضاء على بقية أعوان عمه (أسد الدين شيركوه).

كان عمر صلاح الدين آنذاك اثنتين وثلاثين سنة، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل توليته، ولقبه بالملك الناصر صلاح الدين، وذلك في ٢٥ من جمادى الآخر عام ٥٦٤هـ - ٢٦ مارس عام ١١٦٩م، وقام الحارم (وهو خاله)، بدور نشط في إقناعه بقبول المنصب[١].

كان صلاح الدين آخر وزير سنى في دولة الفاطميين، مما ساعد على مواصلة المد السُّني الذي بدأ في عهد السلاجقة، وامتد على يد الزنكيين، ثم جاء صلاح الدين فأكمل ذلك[٢].

• سيطرة صلاح الدين على الحكم:

في وسط أمواج متلاطمة من الأحداث والخلافات وصل صلاح الدين الأيوبي إلى سدة الحكم، فالدولة الفاطمية التي كانت تريده آداةً سهلةً في يدها، ما زالت تحكم مصر، ولها جيش يساندها، والصليبيون على حدود مصر الشريفة يتطلعون لغزوها، لذلك فقد بدا حازمًا في إدارة الدولة، وسعى سعية كي يستأثر باختصاصات الخليفة العاضد نفسه، وفي سبيل إنقاذ ذلك اتخذ عدة إجراءات تحقق له هذه الأهداف، ومنها:

[١] سيطر على الجند من خلال الإنفاق عليهم وإرضائهم، واخضع مماليك (أسد الدين شيركوه) لقيادته الخاصة.

---

(١) «تاريخ ابن الفرات» (جـ ١) (ص٥٦-٥٧).

(٢) «تاريخ الدولة الفاطمية في مصر» سيد أيمن فؤاد (ص٢٣٤-٢٣٥).

[٢] نظر إلى المصريين وهم الشعب الذي تولى حكمه، فاستمال قلوبهم وتقرب إليهم من خلال بذل المال، والتخفيف عنهم من مطالب الفاطميين التي لا تنتهي.

[٣] استغل إمدادات (نور الدين محمود) العسكرية في تقوية مركزه وجاء إلى مصر أخوه (توران شاه)، على رأس قوة عسكرية قادمة من (نور الدين محمود)[١].

عندئذٍ قوى مركز صلاح الدين من خلال هذه الإجراءات وغيرها، وأصبح دور الفاطميين وخليفتهم دورًا ضعيفًا هامشيًا يتراجع كل يوم.

● مؤامرة مؤتمن الخلافة

كان الطواشية (مؤتمن الخلافة)، قائدًا للجند الوادنيين، من الطامعين في خلافة شادر، أحد المقربين من الخليفة العاضد، وشعر بتناهي قوة صلاح الدين، وأن طريق صلاح الدين لو استمر على هذا النهج سوف يؤدي به إلى القضاء على الخلافة الفاطمية، ولما لم يحقق هدفه في خلافة شادر، اتجه إلى صلاح الدين يحيل ضده المؤامرات والدسائس، ووصل به الأمر أن الأقران اتصل بالصليبين، وحاول الاتصال بـ(عموري الأول)، ملك بيت المقدس، كي يحرضه على مهاجمة مصر، وقد بنى خطته على أنه لو استجاب (عموري الأول) لطلبه، فإنه سيجعل صلاح الدين يخرج للقائه، فينتهز هذه الفرصة هو وأتباعه، فيقبض على اتباع صلاح الدين، ويتولى الوزارة، ويتقاسم حكم مصر مع الصليبيين، وكان صلاح الدين محظوظًا إذا اكتشف أمر هذه المؤامرة عن طريق الصدفة، فقد ارتاب أحد اتباع صلاح الدين في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى (عموري الأول)، فأخذه منه ونزع ضياطنهما، فاكتشف

---

(١) «تفريج الكروب» لابن واصل (جـ ١) (ص١٧٤).

الرسالة بداخلهما، فقبض على مؤتمن الخلافة، وترقب الفرصة للتخلص منه، وكان ذلك بمثابة توفيق من الله لصلاح الدين حين اكتشف هذا الأمر.

• في مواجهة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط:

صحا الصليبيون ومكانهم (عموري الأول) على كابوس مخيف، فقد نجح (نور الدين محمود) في توحيد مصر والشام تحت إمرته، وبذلك أصبح الصليبيون بين فكي كماشة، وعلم منه (عموري الأول) أن هذا الوضع يعد ضربة أليمة وُجهت إلى مملكة بيت المقدس، وأصبح الجو مقلقًا ومرعبًا للصليبيين، فقد احيطوا بالقوات الإسلامية من جميع الجهات الشمال الشرقي، والجنوب الغربي، اضف إلى ذلك سيطرة صلاح الدين على الثغور البحرية في شمالي مصر، وذلك من شأنه أن يهدد سيادتهم البحرية وتفوقهم بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط إلى سيادة المسلمين.

بدأ (عموري الأول) تحركة ليواجه هذا الموقف فارسل في أوائل عام ٥٦٤هـ ـ ١١٦٩م، إلى كل من (فريدويك بربروسا)، و(لويس السابع) ملك فرنسا، و(هنري الثاني) ملك انجلترا، و(وليم الثاني) ملك صقلية، بل أرسل إلى كل حكام أوروبا مطالبًا إياهم بالعمل على وجه السرعة بتجهيز حملة صليبية جديدة لإنقاذ الصليبيين في الشرق، وقد علم المسلمون برسائل (عموري) وطلبات استغاثته[١].

ولم يجد (عموري الأول) استجابة من ملوك أوروبا، لوجود نزاع بين البابوية والإمبراطورية، عندئذ اضطر إلى طلب مساعدة الامبراطور البيزنطي (مانويل) (٥٣٨-٥٧٦/١١٤٣-١١٨٠م)، والذي رحب بتجديد اتفاقية سابقة وقعت في عام ١١٦٨م لغزو مصر.

---

(١) «الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» ـ تاريخ ـ وليم الصوري (جـ ٢) (ص٩٣٨).

ولم تكن استجابة الإمبراطور (مانويل) لطلب (عموري الأول) من أجل المساعدة فقط، ولكن من أجل مصالح الدولة البيزنطية قبل كل شيء، فقد كان (مانويل) يشعر بالقلق من اتحاد مصر، وبلاد الشام تحت راية (نور الدين محمود)، وكان أثر ما عرض (مانويل) على (عموري الأول)، هو تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة على مصر[١].

قَبِل (عموري الأول) ما عرضه (مانويل)، لاحتياجه للأسطول في استرداد مصر، أما (نور الدين) فقد كان مشغولاً في الشام بثورات واضطرابات.

• استعدادات الحملة الصليبية البيزنطية:

وكما وعد الإمبراطور البيزنطي (مانويل)، فإنه أوفى بوعده مع (عموري الأول)، فقد جهزا أسطولاً بحريًا ضخمًا، وسلَّحه تسليحًا جيدًا، وزوده بالمؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قررها الإمبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج من مياه الدردنيل في منتصف شوال عام ٥٦٤هـ ـ تموز عام ١١٦٩م، متوجهًا إلى قبرص، بقيادة (أندرونيقوس كونتوستيفانوس)، ويعاونه (موريس) الذي كان يتمتع بثقة الإمبراطور، فوجد في طرقة سفينتين مصريتين فأسرهما، وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائد الأسطول عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند (عموري الأول)، ولتخبره بتجمع الأسطول البيزنطي في قبرص، وأن بحارته على استعداد للإقلاع إلى مصر عندما يصبح الملك وقواته مستعدين للرحيل، وظل هذا الأسطول في جزيرة قبرص إلى شهر أيلول، دون أن يصل منه إلى (عموري الأول) ما يفيد استكمال استعداد قواته للخروج إلى مصر[٢].

---

(١) المصدر السابق» (جـ ٢) (ص٩٣٨). (٢) المصدر السابق (جـ ٢) (ص٩٣٩).

كان (عموري الأول) قد احتاج بعض الوقت لتنظيم شؤون دولته أثناء قيامه بالحملة على مصر، كما كان عليه أن يستميل الاسبتارية، وهي إحدى الفئات الدينية العسكرية، ويعرفون بفرسان القديس يوحنا، وهم من الفرسان الصليبيين.

حاول استمالتهم للاشتراك في الحملة بعد الخسائر الضخمة التي تكبدها في الحملة الأخيرة، وقد واجه ترددًا من فئات كثيرة، منهم: جماعة الرادية، وهم ما يطلق اسم فرسان العبد، وكان لها دور كبير في الحروب الصليبية شأنها شأن جماعة الاسبتارية، كل هذا حعل (عموري الأول) يتردد بعض الوقت مما جعله يبطئ في تجهيز قواته، لكنه في النهاية دعا الأسطول للقدوم إلى عكا في شهر المحرم عام ٥٦٥ هـ - أواخر شهر أيلول عام ١١٦٩م.

واستمرت الإستعدادات إلى أن خرجت الحملة الصليبية إلى مصر في منتصف شهر تشرين الأول، وكانت وجهتها مدينة دمياط[١].

• صلاح الدين يستعد للمواجهة في مصر:

كانت أخبار الحملة الصليبية تصل تباعًا إلى صلاح الدين، وفي وقت مبكر مما جعله يتحرك مبكرًا أيضًا استعدادًا للمواجهة، وقد توقع صلاح الدين أن تتعرض بلبيس للهجوم، فحشد جنودها فيها، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظنًا منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها في الحملات السابقة، وقد بقي صلاح الدين في القاهرة، خشية من مؤتمرات الفاطميين ضده، وأقدم على إعدام مؤتمن الخلافة الذي تآمر ضده، وعزل كافة موظفي القصر المعروفين بولائهم للخليفة، وأحل مكانهم رجالاً من اتباعه، وعين عليهم جميعًا (بهاء الدين قراقوش)، وهي خص أبيض كل هذا ليؤمن نفسه[٢].

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢) (ص ٩٤).

(٢) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ١) (ص١٧٥ - ١٧٧).

غضب هؤلاء جميعًا من إجراءات صلاح الدين ضدهم، وكذلك آثار عضبهم، فقتل مؤتمن الخلافة، وشعروا بضياع نفوذهم، فكان لابد لهم من فعل شيء، فحرضوا الجند السودانيين على القيام بالثورة، وأدى ذلك إلى الصدام بين الطرفين، ودارت بينهما معركة عنيفة، نجحت فيها قوات صلاح الدين، فأجهز أخاه (توران شاه) عليهم، فلم يبق على أحد منهم، وقضى على حرس الخليفة من الأرض، واشعل الفارقي ثكناقهم، واعتقلهم جميعًا كي لا يفعلوا فعلة الجند السودانيين.

أما الخليفة العاضد، فكان ينتظر أيهما ينتصر فيؤيده، فلما ظن أن الجند السودانيين سينتصرون على صلاح الدين، أمر من في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية أتباع صلاح الدين بالنشاب والحجارة، ولما هدده (توران شاه) أخو صلاح الدين بإشعال النار في القصر، لم يسعه إلا أن يغير موقفه، فخرج من القصر وقال: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (توران شاه)، ويقول لكم: دونكم العبيدَ الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»[1].

جاءت هذه الإجراءات في وقتها، كي يؤمن صلاح الدين جبهته الداخلية قبل مواجهة الصليبيين الزاحفين على مصر.

• حصار دمياط:

تجمع الجيش الصليبي في عسقلان، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين، ومن عسقلان خرج الجيش الصليبي في المحرم عام ٥٦٥هـ ـ الموافق تشرين الأول عام ١١٦٩م، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما (بورسعيد حاليًا)، فوصل إلى بحيرة تنيس، حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره، ومضت الحملة

(١) «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٢) (ص١٣٣).

حتى دخلت دمياط، فوصل إليها الأسطول والجيش في الأول من صفر ـ ٢٥ تشرين الثاني، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، لكن الأسطول لم يستطع الاختراق والدخول إلى النيل، نظرًا لوجود سلسلة حديدية تمد من دمياط إلى برج السلسلة، فلم يستطع الأسطول البيزنطي منع الإمدادات القادمة من القاهرة، من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[١].

أما بالنسبة لصلاح الدين، فقد ارسل على الفور رجالاً عتادًا، ومؤن إلى دمياط بقيادة ابن أخيه (تقي الدين عمر)، وخاله (شهاب الدين الحارمي)، كما أرسل عددًا من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال من فرع دمياط لنجدة المدينة، وارسل في الوقت نفسه إلى (نور الدين محمود) في دمشق، كي يخبره بما حدث، ويطلب المساعدة، فاستجار (بنور الدين محمود)، فارسل إليه مددًا من الجنود ومستمرًا، ولكي يخفف الضغط عنه، قام بالإغارة على معاقل الصلبيين في الشام، كان من أخطاء الصليبيين التي أفادت صلاح الدين أنهم أخروا هجومهم ثلاثة أيام على سبيل التريث، مما أعطى لصلاح الدين الفرصة في استكمال الإمدادات بالرجال والمؤن والأسلحة وأدوات الحرب، وبالمقابل، بدأت مؤن البيزنطيين، التي حملها الأسطول والمقدرة بما يكفي ثلاثة أشهر بدأت بالتناقص، وفي الوقت نفسه لم تستطع جزيرة قبرص إمداد قوات البيزنطيين بالمؤن لحدوث زلزال عام ٥٥٣هـ ـ ١١٥٨م، وكذلك انقطاع الإمدادات من عكا، ذلك كله جعل مؤن هذه القوات توشك على النفاذ[٢].

ورغم أن قائد الأسطول البيزنطي (كونتو ستيفانوس) حث على البدء سريعًا

---

(١) «محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط» محمود سعيد عراني، ط بيروت (ص١٦٧).
(٢) «تاريخ الأعمال»، وليم الصوري (جـ ٢) (ص٩٤١).

في الهجـوم، إلا أن (عموري الأول) تردد في ذلك حـينما رأى الاستـحكامات والحصون، والاستعداد الجدي للقـوات الإسلامية، وقرر بناء أبراج لحصار المدينة ورؤية ما يدور بـدخله، وقام الصليـبيون بالفـعل بإعداد برة، خـشبي مكوّن من سبعة طوابق، حتى يتمكنوا من رؤية استعدادات قوات صلاح الدين داخل مدينة دمياط، من أعلى هذا البرج الشاهق الارتفاع[١].

وعلى الفور قامت القوات الإسلامية ببناء برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمـون بالجنود لمقادمة الصليـبين بنفس أسلوبهم وطريقتهم، وحـينما حاول الصليبيون الاعتداء على المسلمين، فكأن الرد عنيفًا، ومتفوقًا مما تسبب في انهيـار الروح المعنوية للقوات الصـليبيـة، والبيزنـطية، فلم يقاتلـون بجدية، بل تملكهم اليأس[٢].

وقد كان فشـل الأسطول البيزنطي في دخول فرع دميـاط وعدم قدرته على مهـاجمة المدينة بسبـب السلسلة، وعجزه عن تقـديم أي مساعدة للقـوات البرية الصليبية سببًا من أسباب الهزيمة.

وظل البيزنطيون يحثون الصليـبين على الهجوم الشامل عبر الأسوار، إلا أن (عموري الأول) تراجع واعتبرها مغامرة تنطوي على خطر يهدد الحملة بأسرها، وقد شك (عـموري الأول) في اندفـاع قائد الأسطول البيـزنطي، بأن وراء ذلك رغبته أن تكون دمياط من نصيب الإمبراطورية البيزنطية.

كانت الـسلبية واضـحة من الصليـبيين، والشك رغـم إخلاص البيـزنطيين معهـم، فـما إن نفذت أقوات البيـزنطيين ولم يجدوا حتى ثمار النخـيل ليأكلوها

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (جـ ٢) (ص٩٤١).

حتى أظهر الصليبيون أنانية شديدة، فقد كان لديهم المؤن متوفرة في مدة القتال، واحتمال تعرضهم للجوع والهلاك[١].

وفيما كانت مشكلة المؤن هي أكبر المشاكل كل الطافية على السطح، هبت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة زادت الوضع العسكري سوءًا، فغرق المعسكر الصليبي، وتحول إلى مستنقع كبير، واستغل المسلمون هبوب، هذه الرياح الجنوبية، فانزلوا سفينة حراقة بين قطع الأسطول البيزنطي المكهرس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة، رغم تدخل (عموري الأول)، وإيقاظة البحارة، وفصل السفن وإبعادها بعيدًا عن بعضها.

وحاول المسلمون إلى الهجوم على القوات البيزنطية التي انهارت قواها، ولم يعد لها القدرة على القتال، وفي الوقت نفسه تراخى الصليبيون في الدفاع عن المعسكر البيزنطي[٢].

وتفوق المسلمون في دمياط في العتاد والرجال، وارسل (نور الدين محمود) جيشًا إسلاميًا من بلاد الشام، بدأ يقترب من الحدود المصرية.

وغلب اليأس على (عموري الأول) الذي ظل أمام دمياط قرابة خمسين يومًا بالإضافة إلى ما جاءه من أخبار عن (نور الدين محمود) الذي بدأ يهاجم أملاكه في بلاد الشام.

فإنه حاول إظهار الصداقة لصلاح الدين، والتفاوض معه كي يبعده عن نور الدين محمود.

ولكن القوات المتحالفة عادت إلى بلادها عن طريق عسقلان في ٢٨ ربيع الأول ٥٦٥هـ ـ كانون الأول ١١٦٩م، بعد أن مكثت في دمياط أكثر من خمسين يومًا.

---

(١) «محاضرات في التاريخ الإسلامي» محمود سعيد عمران (ص١٦٦).
(٢) «تاريخ الأعمال المنجزة»، وليم الصوري (جـ ٢) (ص٩٤٤).

دون أن تحـقق أي نصر، أو أي شيء يـذكر من أهدافـهـا، وعادت الحـملة الصليبية البيزنطية تجر ازيال الخيبة والعار، بخردة من أسلحتها وقوتها الرئيسية.

ولعل من أسـباب فشل هـذه الحملة، وهو سـرعة صلاح الديـن في إمداد المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحـاصرين، مما جعلهم يصمدون في وجه العـدو، وكذلك التعـاون والتنسيق الذي تم بين صلاح الدين في مـصر، و(نور الدين مـحمود) فـي بلاد الشام، حـيث كان موقـف (نور الدين محـمود) الداعم، وإرساله المسـاعدات باستمـرار إلى مصر، ومهـاجمته للصليـبيين في بلاد الشام للضغط عليهم، كل ذلك سهل لهم في إنجاح المواجهة أمام العدد.

وعند الجانب الصليـبي، فإن تأخيـر (عموري الأول) الهـجوم على المدينة، كان فرصة مناسبة للمسلمين كي يحـصنوا أنفسهم ومدينتهم، وإمدادها بما يلزم، من العتاد والرجال والمؤن.

أما بالنسـبة للأسطول البيـزنطي، فقد تم تحـييده عن طريـق المسلمين بعدم السمـاح لهم بالدخول في نهـر النيل، وفشل قـائده في استـخدامه اسـتخـدامًا عسكريًا ناجحًـا، فاقتصر دور الأسطول على نقل القوات حـتى ساحل دمياط، وكـذلك تكدس سفن الأسطول في النـيل سهل مـهمـة إحراقـها عند القـوات الإسلامية، وقد نتج عن فشل هذه الحملة:

[١] أنها كـانت نقطة تحول في مسـتقبل صـلاح الدين الذي أظهر شجـاعة في حماية مصر، وبين أنه يستطيع حماية نفسه والموالين له من دسائس المتآمرين.

[٢] واحز إعجاب الجميع، وأصبح قوة تهدد الصليبيين في المزت.

[٣] كانت هزيمة الصلبيين بداية النهاية للدولة الفاطمية.

• سياسة صلاح الدين في مصر الداخلية:

ما إن حقق صلاح الدين نصره المظفر على الصليبيين حتى بدأ على الفور في اصلاحاته الداخلية التي استهدفت التغيير المذهبي، وقبل أن يبدأ في هذه السياسة، أي: أن يجمع أفراد أسرته وعشيرته بالقرب منه ليتقوى بهم، ولأنهم أهل ثقة بالنسبة له، يستطيع أن يستعين بهم في تصريف شؤون مصر، فطلب من (نور الدين محمود) أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوافق نور الدين محمود على ذلك، رغم ارتيابه من أطماع صلاح الدين، وهو صاحبه وصديقه المخلص.

ارسل (نور الدين محمود) (نجم الدين أيوب) ومعه قوة من الجند، كما انضم إليه عدد من التجار، الذي شغفوا باستئناف التجارة مع مصر.

فكر (نور الدين محمود) في تأمين قافلة الأيوبيين، وهم في طريقهم إلى مصر، ووجد في حصن (الكرك) خطرًا على القافلة لتمركز الصليبيين فيه، فقام بمهاجمة هذه الحصن المنيع، ليشغل الصليبيين عن التعرض (لنجم الدين أيوب) واتباعه[1].

بدا واضحًا بعد انتهاء الحملة الصليبية أن صلاح الدين يريد الاستقلال بمصر، بل والاستقلال عن (نور الدين محمود)، ولكي تكون مصر في قبضته، فلابد أن يحدث تغييرًا مذهبيًا لصالحه، أي: لصالح السُّنة بالمعنى الصحيح.

كان الموقف في مصر متناقصًا، فالوزير سني (وهو صلاح الدين)، والخليفة فاطمي (وهو الخليفة العاضد)، وأن كان هذا الأمر لم يكن جديدًا فقد مر قرن من الزمان كان فيه وزراء من السنة، وإن كانوا على مراحل متقطعة، وبغير هذه المسألة، فإن (صلاح الدين) و(نور الدين محمود) كان يريدان إعادة مصر إلى

---

(١) «الكامل في التاريخ» (جـ ٩) (ص٣٥١).

حظير الولاء للعباسيين، إلا أن صلاح الدين أخر هذا المطلب في الوقت الذي كان إلحاح (نور الدين محمود) شديد، لكن صلاح الدين أدرك أن للعجالة ردَّة فعل، قد لا تكون في صالحه، فبدأ خطوات التغيير هادئًا، وبدأ خطواته في ثلاثة اتجاهات:

[١] عسكرية. [٢] اقتصادية. [٣] دينية.

أولاً ـ الخطوات العسكرية:

كان الجيش المصري يشمل خطرًا، بما فيه من فرق عديدة من الفرسان البيض، والمشاة السودانيين، لذلك فقد اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات من أهمها:

أولاً ـ إفشاء الفرقة الصلاحية، وضم إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها عمه (أسد الدين شيركوه).

ثانيًا ـ استعان بالمماليك الأتراك، الذين كان لهم دور شجاع في إضماء ثورة السودانيين، وطردهم خارج القاهرة.

ثالثًا ـ أنشأ نظام الاقطاع العسكري، والذي اتخذه عن الزنكيين، وطبقه في مصر، فكان على المقطع أن يحصل على التزمات عسكرية، مثل تقديم الجند، والمساندة العسكرية والمادية وقت الحروب[1].

ثانيًا ـ الخطوات الإقتصادية:

اتخذ صلاح الدين خطوات اقتصادية هامة، تعينه على التغيير في المستقبل، ومنها:

[١] عين والده على الخزانة، وبذلك سيطر على موارد الدولة.

---

(١) «الإقطاع الشرقي» لفؤاد خليل (ص١٧٤) ـ ط١٩٩٦ بيروت، دار المنتخب.

[٢] ابطل المكوس الديوانيــة بمصر والقاهرة، والتي كـانت عبئـاً على المصريين، وكانت تقدر بمائتي ألف دينار سنويًا.

[٣] أطلق حرية التجارة[1].

وكان أبطال المكوس، وإطـلاق حرية التجـارة بمثابة هدية للمـصريين الذين مالوا إليه وأحبوه.

ثالثًا ـ الخطوات الدينية:

ومن الخطوات الدينيـة التي اتخـذها صلاح الدين لإضـعـاف الفاطمـيين، والمذهب الإسماعيلي، ولتقوية المذهب السني ما يلي:

[١] أبطل في (١٠ من ذي الحـجـة عـام ٥٦٥هـ ـ ٢٥ آب عـام ١١٧٠م) من الآذان: «حي على خير العمل».

[٢] أمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة.

[٣] آثار قضية التشكيك في نسب الفاطميين.

[٤] أمر بهدم دار المعونة ـ وهي دار السجن ـ، وبناها مدرسة للشافعية.

[٥] وبنى دار الغزل المجاورة لباب الجامع وخصصها للمالكية.

[٦] نزع المناطق الفضيـة التي كانت في محاريب مساجـد القاهرة، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين.

[٧] حول دار سعيد السعداء الواقعة شـمالي القصر الفاطمي الشرفي إلى خانقاه للصوفية.

[٨] أبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[2].

---

(١) المصدر السابق (جـ ٩) (ص٣٦١)، «خطط المقريزي» (جـ ٤) (ص٢٨٢).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩) (ص٣٦٤).

[٩] عزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وفوض قضاء مصر للقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي.

[١٠] نشر المذهب الأشعري الذي كان يتعصب له صلاح الدين متأثرًا بالسلاجقة في ذلك، ويعد ذلك من أكثر مظاهر تحول مصر إلى المذهب السني.

وبهذه الخطوات أصبحت يد صلاح الدين هي العليا في الإمساك بزمام الأمور في مصر.

وفي عام ٥٦٧هـ شهر المحرم، العاشر من شهر أيلول عام ١١٧١م، اتخذ صلاح الدين خطوة نهائية ضد الفاطميين، فقد أمر بقطع الخطبة في مصر للخليفة العاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي «المستظيء بأمر الله»، وأعاد السواد شعار العباسيين[١].

وقد تم هذا التحول في هدوء تام دون أن يتخلف أن يختلف عليه رأيان، وتسلَّم صلاح الدين القصر الفاطمي، وقبض على أولاد العاضد، وحدد إقامتهم في القصر بعد ما أجرى عليهم ما يمونّهم[٢].

وقد كان العاضد أثناء ذلك مريضًا، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه، فأمر رجاله بأن يبلغوه بهذه الإجراءات، وقال: فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته[٣].

وبالفعل توفى العاضد، آخر الحكام الفاطميين بعد أيام من قطع الخطبة للفاطميين، وكان وفاته ليلة العاشر من محرم ٥٦٧هـ، ١٣ أيلول ١١٧١م.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٦٥).

(٢) «بدائع الزهور» لابن تغري (جـ ٥) (ص٣٥٦) ـ ط: مصر، تحسين محمد مصطفى.

(٣) ابن الأثير (جـ ٩) (ص٣٦٥).

• نهاية الفاطميين في مصر:

أمر صـلاح الدين الأيوبي بإرسال الكتب إلى البـلاد بوفاته، وإقامـة الخطبة رسميًا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله.

بهذا الإجراء يكون صلاح الدين قد وضع نهاية للدولة الفاطمية في مصر، وبدأ مرحلة جديدة، تبدوا فيه مصر دولة سنية، ولنقل إنها بداية لقيام الدولة الأيوبية.

• متاعب على طريق صلاح الدين

أولاً - مع نور الدين محمود:

رغم العلاقـة الحميمـة بين نور الدين محمـود، وصلاح الدين، إلا أن كل منهما كان يرتاب من الآخر، فنور الدين مـحمود يريد صلاح الدين الفتى المطيع عامله على مـصر، وصلاح الدين يـرى أن مصر ضـرورية لمواجهة الصليـبيين، وسيطرته عليهـا يفرز طموحه في السيطرة على بيت المقـدس، وبدأت العلاقات تفتر بين نور الدين وصلاح الدين، إلى أن وصلت إلى أزمة ثقة اتضحت معالمها عندما أرسل صلاح الدين بعـض الهدايا والأموال التي استولى عليـها بعد وضع يده على القصور الفـاطمية، فقال نـور الدين محمود: «ما كـانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسد به خلة الأقلال، فهـو يعلم أنَّا ما أنفقنا من الذهب في ملك مصر، ولا نحتـاج إلى الذهب، وما لهذا المحمول في مقـابلة ما جُدنا به قدر، ولكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السـواد، ودفعوا الأعداء من الأخباد، وقد عم بالفرنج بلاد البلاء، فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة بالإمداد[1]».

نظر صلاح الدين إلى هذا الحـديث، فوجده أقل من طموحـاته، فهو يملك

(١) «الفتح القصي في الفتح القدسي» - العماد الأصفهاني (ص ١٢٣).

قوات تضاهي قوات نور الدين محـمود، وهو رغم ذلك معرض للعزل أو النقل بحكم نظرة نور الدين كـعامل من عمـاله على مصر، مما جـعله يتعـامل بحذر شديد مع نور الدين محمود.

وكـان أن أصدر أمـرًا من نور الدين لصـلاح الدين في شـهـر المحرم عـام ٥٦٧هـ، أيلول ١١٧١م، بمهاجمة الشـوبك في وادي عربة جنوبي البحر الميت، فحاصره صلاح الدين حتى كاد أن يسقط، وفي هذه الأثناء ظهر نور الدين فجأة على الطريق المؤدي إلى الكرك، بينما كانت الحامية في الشوبك تستعد للتسليم، ولما علم صلاح الدين بمسير نور الدين محمود إليه، شعر بالخطر، ونصحه اتباعه بعدم الاجـتمـاع به، إذ ربما قبض عليـه وعزله من منصـبه، وفي الوقت نفـسه جاءت الأنباء من مصر تقول: بقيام ثورة السودانيين، فخشى صلاح الدين ضياع سلطانه في مصر، فرفع الحصار عن الحـصن، وانسحب عائدًا إلى مصر، وكتب إلى نور الدين محـمود يقتدر بما جـاء من مصر من أنباء، وخـشيته من اخـتلال الأوضاع، واتجاه بعض الشيعة إلى القيام بثورة على حكامه، وأنه مضطر لمساعدة أخيه الذي يحارب الفاطميين الهاربين إلى الصعيد جنوب مصر.

لكن نور الدين لم يقتنع بهذه الحجج، فغضب من صلاح الدين، واعتبر أن أعذاره هذه غير مقبولة، وبدأ يستعد للزحف على مصر لتأديبه، ولما سمع بذلك صلاح الدين حزن حـزنًا شديدًا، لأنه كان صادقًا في أعـذاره، رغم ما كان به من ريبتـه، لكن والده نجم الدين أيوب نصـحه أن يسـتمر في طاعـة نور الدين محمود، فأرسل إليه أعذار وهدية ثمينة، فقبلها نور الدين محمود على مضض.

وكان نجم الدين أيوب مريضًـا، وما لبث أن توفى في شهر ذي الحـجة عام ٥٦٨هـ، آب عام ١١٧٣م، قبل أن يعود صلاح الدين إلى مصر[1].

---

(١) المصدر السابق (ص١٢٩).

وكـان نور الدين يثق في نجم الديـن كثـيـرًا، فلمـا مـات نجم الدين زادت مخـاوفه، فصـمم على الزحف نحو مصـر للقضاء عـلى صلاح الدين، ولكن الأجل لم يسعـفه، فقد توفى يوم الأربعاء فـي ١١ شوال عام ٥٦٩هـ، ١٥ أيار عام ١١٧٤م، قبل أن يحقق أهدافه.

وأصبحت الطريق أمام الدولة الأيوبية بقيـادة صلاح الدين مفتوحة، وبدأت تعد نفسها لدور أحبه المسلمون، وهو مواجهة الصليبيين.

ثانيًا ـ مؤامرة عمارة اليمنى:

تعد مؤامـرة عمارة اليمنى من أكبر وأخطر المحـاولات التي واجهت صلاح الدين، وكان هدفـها إعادة الخـلافة الفاطـمية إلى مـصر، وتميزت هذه الحـركة بالعنف، فقـد تزعمـها عمـارة اليمنى، فقـد كان عمـارة شاعـرًا، ولطالما مدح الفاطميين وأيامهم، واعتبر الأيوبيين محتلين مـغتصبين للعرش الفاطمي، وكثيرًا مـا كان عـمارة هذا يحـقر من شـأن صلاح الديـن، حتى أنه أطلق عليـه لقب «المملوك الصغير»، تهكمًا وسخرية.

وانضم إلى حركـة عمارة في الداخل أعـداء الدولة الأيوبية من سيـاسيين، وأصحـاب أموال وتجارة، فقـدوها بمجيء الأمويين، وكانوا جـميعًـا من أنصار الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي.

وقرر المتـآمرون تنفيـذ مؤامراتهم أثناء وجـود صلاح الدين خارج مـصر مع أخـيه توران شـاه، ولعل أخطر مـا في هذه الحركـة، أنهـا سعت إلى المسـاندة الخارجية، ولكن كان من الصعب عليـهم إخراج صلاح الدين من القاهرة بسبب أو بآخر، وقد حاولوا إغراء توران شاه بالذهاب إلى اليمن، فيسهل الأمر عليهم عند اغتيال صلاح الدين في غياب أخيه.

أما المسـانـدة الخارجـية، فهي أخطر مـا في هذه المؤامرة فـقد اتصل عـمارة اليمنى بثلاث قوى خارجية، هي:

[١] **قوة الإسماعيلية الباطنية:** وهم الشيعة في بلاد الشـام، وقد اتفق عمارة مع زعيمهم رشيد الدين سنان على استعداده بإرسال جماعة من الفدائيين لاغتيال صلاح الدين[1].

[٢] **القوة الثانية:** هي قوة النورمـان في صقلية، لحاجـة ملكهم وليم الثاني إلى التواجد في الشرق.

[٣] **القوة الثالثة:** هي قوة الصليبيين في بيت المقـدس، وقد أبدى عموري الأول استـعداده الفوري لإرسـال قوة إلى مصـر، للانتقام من عـدوه الأول صلاح الدين الأيوبي.

وقد نظم عـمارة اليمنى وأعـوانه المتآمرين أمـور الدولة، فشكلوا مـا يسمى «تجلومة الظل»، لدرجة أنهم تقاسموا المناصب السياسية والإدارية، وعينوا أعضاء الجهـاز الحكومي، واختاروا الابن الأكبـر للعاضد خليـفة، وقامـوا بالتنسيق مع حلفائهم في الخارج على النحو التالي:

[١] تقوم القوات الصليبية بغزو مصر برًا.

[٢] في نفس الوقت يهاجم الأسطول الصقلي ميناء الإسكندرية.

[٣] عند قيام صلاح الدين بالتصدي للهـجوم، يشعل المتآمرون الثورة في داخل مصر، ثم يقضون من خلال هذه الثورة على الحكم الأيوبي في مصر.

وتم التنسـيق لبناء هذه الخطة من خـلال زيارة قام بهـا وفد صليـبي أرسله

---

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ١) (ص٢٤٩).

عموري الأول إلى القـاهرة، يحمل في ظاهر الأمر تحيـات الملك عموري الأول الصليـبي لصلاح الدين، ولكن فـي حقـيقـة الأمر جـاء الوفد للتنسـيق ووضع الترتيبات النهـائية بخيوط المؤامرة، وأعد وليم الثاني، أسطولاً ضخـمًا مؤلفًا من مائتين واثنين وثمانين سفينة، تحمل ثلاثين ألف مقاتل تقريبًا، للمشاركة في غزو مصر، بحسب خطة المؤامرة المتفق عليها[1].

كان صـلاح الدين حذرًا، ويحسب لـكل شيء حساب فـقد زرع في وسط هذه المجمـوعات التي كان يرتاب فـيها الفـقيه الواعظ زيـن الدين على بن نجا، الذي كشف خيوط المؤامـرة كلها، أما الوفد الصليبي، فقـد كان موضع ريبة من خلال أصحابه بعض أقباط مصر في تحركاته، فاتضح أمره، وذاع سره[2].

عندئذ أسـرع صلاح الدين إلى الضـرب بيـد من حديد على هؤلاء فـشنق زعماء التآمر، ونفى كافة الأخباد معهم السودانيين، وحاشية القصر إلى الصعيد، ومن هؤلاء جند الفـاطميين، فلم يـبق أحد يكون له دور سلبـيًا في القـاهرة أو منصب مهم[3].

وعندما علم عمـوري الأول باكتشاف المؤامرة قُضي في الحـال، ومات غيظًا وكمدًا، وبوفـاته انتهى دور ألد أعداء صلاح الدين، وذهبت فـكرة الغزو البري أدراج الرياح، لم يسـمع وليم الثاني الصـقلي بفشل المؤامـرة، وكان قـد حرك أسطوله، بالقـرب من الشواطئ المصـرية، وكذلك لم يبـلغه نبـأ وفاة عـموري الأول، فظهر الأسطول الصقلي فـجأة أمام الإسكندرية في شهر ذي الحـجة عام

---

(١) «النوادر السلطانيـة» لبهـاء الدين ابن شداد - تحـقيق جـمال الدين الشـيال، مكـتبة الخـانجي، ط:٢ (١٩٩٤) صفحة ٩٠، وما بعدها.

(٢) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ١) (ص٢٤٤-٢٤٥).

(٣) المصدر السابق (جـ ٢) (ص١٤-١٥).

٥٦٩هـ، شهر تموز عام ١١٧٤م، وكـان قائد الأسطول تانكرر كونت لينش، قد اكتشف مع بحارته أنه لا وجود لأي مـساعدة تنتظرة من عموري الأول، أو من الثوار داخل مـصر، فرأى أنه بوسعـه أن يقوم بهذا العمل منفـردًا، ولكي يثبت ذلك، أمـر قواته بالنزول إلى الـشاطئ، ودمـر أسطوله بعض الـسفن التجـارية الرأسية في ميناء الإسكندرية[1].

وقد حـاول القائد النورمـاني مع جنوده اقتـحام الإسكندرية لإتمام المهـمة، فشـدد هجماته عليـها، إلا أنه وجد استـبسالاً ، ومـقاومة شـجاعة من حامـية الإسكندرية، فقد أحرق المسلمون بعض سفنه، واشتـبكوا معه في معارك عنيفة، وفي هذه الأثناء وصل صلاح الدين بجـيشه قادمًا من فـاقوس، وهي مدينة في جوف مـصر الشمـال الشرقي، فـهاجم النورماني، وأغـرق بعضًـا من سفنهم، وأحرق خيـامهم، وأنزل بهم الهزيمة، فما حملـهم على أن يعودوا إلى سنفهم، والإقلاع من الإسكندرية في شهر المحـرم عام ٥٧٠هـ، شهر آب عام ١١٧٤م، وبذلك انتهت مؤامرة عمارة اليمنى واتباعه.

ثالثًا - ثورة كنز الدولة:

خرج عدد من القادة الفاطميين إلى الصعيد بعد إخماد حركة مؤتمن الخلافة، واجتمع حـولهم على هدف واحد، عددًا من الجنود المصريين والصـليبيين الذين نفاهم صلاح الدين إلى الصعيد.

ومن هؤلاء: كنز الدولة، أو الكنز، وهو مصري صعـيدي، وقد جمع حوله كل نزح إلى الصعـيد، بعد إخمـاد حركة مؤتمن الخـلافة، واشترك مـعه في هذه

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢) (ص١٥-١٦).

الثورة عباس بن شاري والي قوص، وقد جمع حوله عددًا كبير من أهل الصعيد، والجنود المصريين والسودانيين الذين كان صلاح الدين قد نفاهم من قبل.

وعندما التف الناس حوله، فكر في القيام بحركة، لإعادة الخلافة الفاطمية، وقام بالفعل بقتل عدد من أمراء صـلاح الدين في الصعيد، وأحس صلاح الدين بخطورة هذه الحركة، لدرجة أنه فكر في الذهاب إلى الصعـيد بنفسه لإخمادها، لكنه خشى من ترك القاهرة، وعواقب ذلك من فتن وثورات ضده، فارسل أخاه العـادل الذي استطاع إخـماد ثـورة الكنز، وتغلب على قـواتها، وقـتل الكنز، وعباس وأسر الكثـر من أتباعها، وكان ذلك في شهـر صفر عام ٥٧٠هـ، أيلول ١١٧٤، بينما فرت البقية إلى النوبة جنوبًا[١].

• توسعات صلاح الدين الخارجية

استطاع صـلاح الدين أن يؤمن مركزه الداخلي في مـصر، فقـد أبعد الخطر الصليبي والبيزنطي، وقضى على المؤامرات في القاهرة والصعيد، وأراد أن يؤمن حدود دولته، ويحصن مـا حققه في مصر، وكان عـليه أن يوسع حدود دولته، لكي يستقل عن نور الدين محمود بدولة قوية.

وبدأ ينظر للأقرب ارتباطًا بمصر، فكان أول مـا نظر إليه هو حدوده الغربية، وذلك لأن البدو الليبـيين، والمغاربة كانوا مصـدر قلق لمصر، وفي عام ٥٦٨هـ، ١١٧٣م، بدأ أولى هذه الخطوات فارسل قوة عسـكرية إلى المغرب الأوني بقيادة شـرف الدين قراقـوش، وكـان قراقـوش غـلامًا للـمظفر تقي الـدين عمـر بن مشاهنشاه بن أيوب.

---

(١) «النوادر السلطانية» لابن شداد (ص٨٩)، مصدر سابق.

دخل قراقوش طربلس وبرقة، حتى وصل إلى آخر حدود الليبيين عند مدينة قابس، وبدأ قـراقوش يوسع تواجـده في هذه البلاد (شـمالي أفـريقيـة)، فضم أوجلة الواقعـة جنوب برقة في عام ٥٧١هـ، ١١٧٥م، والدوحـان، وغدامس، وبلاد هوارة، وزوارة، ولواتة، ونفوسـة، وتم ذلك في عام ٥٧٧هـ، ١١٨١م، وأصبحت هذه المناطق جميعًـا تحت سيطرة صلاح الدين، وتعرض جيش صلاح الدين بقيادة قراقوش، لهجـمان بن عبد المؤمن الموحدي في طرابلس، واصطدم بابن غاية، دهو بن المرابطين، فقبض عليـه قراقوش وشنقه، وأصبحت طرابلس تحت حكم صلاح الدين[1].

رابعًا ـ حملة توران شاة إلى اليمن:

فكر صلاح الدين في ضم اليمن لتوسعة أمـلاكه، واختار اليمن، لأنه شعر بخطورة واليها العلوي عبد النبي بن مهـدي، الذي كان ميالاً للفاطميين، ولكي يؤمن حدوده الجنوبية، ولأهمية اليمن، كموقع هم على البحر الأحمر.

وفي هذه الأثناء كان اليـمن مضطرباً سيـاسيًا ودينيًـا، فمن الناحيـة الدينية المذهبية ظهر رجل إدعى أنه المهدي المنتظر، وهو عبد النبي بن مهدي، علا شأنه في اليمن، وأصبح تأثيره قويًا، حتى أنه قطع الخطبة للعباسيين، وخطب لنفسه، وتمسى بالإمام، وبنى على قـبر أبيه قبة عـظيمة، وأمر أهل اليمن بـالحج إليها، ومنعهم من الحج إلى مكة، عندئذٍ شعر صـلاح الدين بأن هذه التجاوزات تهدد وحدة المسلمين، وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن في طلب النجدة.

أرسل صلاح الدين أخـاه الأكبر توران شاه إلى اليـمن لضمها إلى الخـلافة

---

(١) «السلوك في معرفة الملوك» للمقريزي (جـ ١) (ص١٧١).

العباسية، وتصادف في هذا الوقت أن عمارة اليمني كان يخطط لثورته لينقلب على صلاح الدين، فاغرى توران شاه بتلبية رغبة أخيه صلاح الدين، وشجعه على المضي إلى اليمن، لإبعاده عن مصر[١].

وعلى الفور توجه توران شاه إلى اليمن عن طريق مكة، فوصل إلي زبيد في شهر شوال عام ٥٦٩هـ، شهر أيار عام ١١٧٤م، وهي ثاني أشهر مدينة بعد صنعاء في اليمن آنذاك، وكانت على صراع سياسي ومذهبي مع صنعاء، واستطاع توران شاه أن يستولي على زبيد، وقتل عبد النبي بن مهدي، وهدم القبة التي أقامها على قبر أبيه، وأقام الخطبة للخليفة العباسي، كما ضم عدن وصنعاء وتفر، وغيرها من بلاد اليمن، كما أرسل قادة ونواب القلاع الحصينة في اليمن، مفاتيح هذه القلاع إلى توارن شاه دون قتال[٢].

استطاع توران شاه أن يخضع اليمن لحكم الأيوبيين، ولم يتركها دون تنظيم أو ترتيب، بل رتب ونظم شؤونها الإدراية، وعين على كل مقاطعة نائبًا يثق فيه، ثم عاد إلى بلاد الشام في عام ٥٧١هـ، الموافق ١١٧٥م، بعد أن حقق أهداف حملته بنجاح[٣].

• فتح بلاد النوبة:

كانت النوبة مملكة نصرانية عاصمتها مدينة (نقلة) تقع في أعالي النيب، وتربطها بمصر روابط وثيقة بشكل عام، منذ الفتح الإسلامي، وتدين بالطاعة لسلطان مصر، وتؤدي له الجذية السنوية، غير أن هذه التبعية مرت بمتغيرات ومراحل متعددة، في بعضها، كانت تبعية بالاسم فقط، بحسب ما يجري في مصر من اتجاهات وتيارات سياسية.

---

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ١) (ص٢٣٨).
(٢) «المصدر السابق» (جـ ١) (ص٢٤٣).
(٣) «الكامل» (جـ ٩) (ص٤٢١).

وكان صلاح الدين ينظر إلى حدود دولته نظرة علمية، هدفها الأول تأمين هذه الحدود، فأراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من أي اعتداء يأتيها من جهة الجنوب، وكان حكام النوبة يميلون إلى نشر عقيدتهم في مصر، شأنهم شأن الصليبين في الشام، فقاموا بحركات عصيان كثيرة، وامتنعوا عن دفع الجزية، واغاروا على أسوان.

وإذا رجعنا إلى نظرة صلاح الدين للجنوب المصري بصفة عامة، نجد أن هذه المنطقة شهدت اضطرابات كثيرة من اتباع الدولة الفاطمية المنفيين من القاهرة، وسعيهم لإعادة دولتهم وتقوية مذهبهم.

وقد كان اتخاذ قوافل الحج والتجارة طريق الجنوب عن طريق النيل إلى قوص، ومنها إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، تجنبًا للخطر الصليبي في طريق السويس والعقبة سيناء، وكان هذا الجانب سببًا في اهتمام صلاح الدين بمملكة النوبة في الجنوب، وضرورة الاستيلاء عليها.

أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه في شهر جمادى الآخر عام ٥٦٨هـ، شهر كانون الثاني عام ١١٧٣م، إلي بلاد النوبة، ففتح إبريم وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابل خيل المسلمين من قبل، وعيَّن إبراهيم الكردي واليًا على النوبة[١].

وقد استمرت غارات المسلمين على بلاد النوبة طيلة حكم إبراهيم الكردي، ثم عادت هذه البلاد إلى النوبيين بعد وفاة إبراهيم الكردي في عام ٥٧٠هـ، ١١٧٤م، حيث غرق أثناء غزوته لجزيرة دندان[٢].

---

(١) «الفتح المقدس» للعماد الأصفهاني (ص٥٣٢).
(٢) «الروضتين» لابي شامة المقدسي (جـ ٢) (ص٢٤٧).

واتجه النوبيون إلى الصلح تحت ضغط غارات المسلمين، ورفض توران شاه مبدأ الصلح، وحاول فتحها مرة أخرى لكنه أرسل بعثة لعظيم أهميتها الإقتصادية، وقابل رئيس بعثته مسعود الحلبي، قابل ملك النوبة، ووجدها بلاد فقيرة[1].

---

(١) المصدر السابق.

صلاح الدين والتطلع إلى بلاد الشام

توفى نور الدين محمود، وكانت وفاتـه بمثابة مؤثرة، نظرًا لحدوث فراغ بعد وفـاته، لضعف من سـيرث الحكم بعـده، فلم يكن بين رجـال الأسرة الزنكيـة شخصـية تخلف نور الدين محمود بقـوة، فقد ترك إبنًا صغيرًا في الحـادية عشر من عمره، اسمه إسماعيل، وابنة صغـيرة، وزوجته عصمة الدين خالون، وابنه معين الدين أنر[١].

واختـار أمراء دمشق الابن إسـماعيل خلفًـا لأبيه، ولقـبوه تحت اسم الملك الصالح إسمـاعيل، واجلسوه مكان أبيه في القلعة، وحلفـوا له، وعينوا شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم قائد للجيش، وأتابكًا له[٢].

وكتـبوا إلى ولاة الأطراف بإقامـة الخطبة باسم، وبخاصـة صلاح الدين في مصر، موضحين له أن مهمته تنحصر في قيادة العساكر ضد الصليبيين، وبينوا له أن تلك المهمة كـانت بتكليف من نور الدين محمود، وقد نصح القـاضي كمال الدين الشهرزوري أمـراء دمشق المحيطين بإسماعيل، بالتـعاون مع صلاح الدين والاستـعانة به لحل أي خلافـات، وطاعته نظرًا لـقوته، وانفراده بحكم مـصر، ولكن الأمراء توقعوا رفض صـلاح الدين، ورفضوا نصيحة القاضي، لخـشيتهم على مـصالحـهم، ظنًا منهم أن صـلاح الدين لو دخل بلاد الشـام، لأخرجـهم منها، وكانوا في ريبة من صلاح الدين وقـوته، ولم يستمعوا لرأي القاضي الذي كان محمل بين طياته حكمة ونظرة صائبة[٣].

---

(١) العماد الأصفهاني (ص١٥٣-١٥٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «التاريخ الباهر» لابن الأثير (ص١٦٢).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ففي الأسرة الزنكية كان هناك سيف الدين غازي بن الموصل، وأخوه عماد الدين زنكي أمير سنجار، فرغم وفاة نور الدين محمود، وحاجة ابنه إسماعيل لمعاونتهم إلا أنهم انشغلا بنزاعات بينهما، وأصبحت إمارة الموصل هي الأخرى ممهدة مع إمارة الشام بالانقسام في الوقت الذي يسعى فيه صلاح الدين نفسي مسعى نور الدين محمود، وهو توحيد بلاد مصر والشام والجزيرة لمواجهة الخطر الصليبي.

وننتقل من أقارب نور الدين محمود إلى قادته، فقد نشب صراع بين اثنتين من أكبر قادة جيوش نور الدين، وهما شمس الدين علي بن الداية في حلب، وابن المقدم في دمشق، كل منهما يريد الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، وكل منهما يريد قيادة الدولة بطريقته.

فابن المقدم يريد العمل السياسي، ضمن دائرة بلاد الشام، وتحت أمره الأتابكة الزنكيين، وابن الداية يريد العمل تحت أمره صلاح الدين، بعد ضم مصر إلى بلاد الشام، والتعاون ما الأكراد الذي ينتمي إليهم صلاح الدين، وأيضًا الأتراك الذين ينتمي إليهم الأمراء النوريون[1].

وأصبح الملك الصالح إسماعيل محاطاً بوجهات نظر مختلفة إحداهما تميل إلى بقاءه في دمشق، وإعتباره عصامة كما كانت، والحلبيون أرادوه في حلب، كما كان أبوه نور الدين محمود، وانتهى هذا الصراع بتقسيم دولة نور الدين محمود إلى ثلاث دويلات، واحدة هي الموصل وما حولها، والثانية دمشق، والثالثة حلب.

أما مصر فظلت بعيدة عن بلاد الشام تحت قيادة صلاح الدين، فاصبح الشكل للمسلمين في الشرق الدنى مخيفًا لانقسامه إلا دولات متنازعة، وقد تطلع صلاح الدين إلى ضم بلاد الشام إلى مصر بعد وفاة نور الدين محمود، بهدف استمرار سياسة عماد الدين زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين محمود، وكانت هذه السياسة تهدف إلى توحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين.

---

(١) العلماء الأصفهاني (ص١٦٦).

وقد دفعته الأحداث دفعًا ليـقوم، وعلى وجه السرعة بدوره في توحيد كلمة المسلمين، وإعـدادهم للجهـاد ضد الخطر المحدق بهـم، وهم الصليبـيون، ومن الأحداث مـا رآه من تنازع أمراء الشـام على الوصاية على الملك الصـالح بسبب مصالحهم الشخصية، وما كان بينهم من منافسات.

وقد خـشى صلاح الدين من استـعانتهم بالصليـبيين لتحـقيق مصـالحهم، وتهديد ذلك لوحدة المسلمين وجـيوشهم تحت قيادة واحدة، وقـد ارسل مخاوفة هذه وسياسته إلى الخليفة العبـاسي في بغداد حينما عزم المسير إلى حلب في عام ٥٧١هـ، ١١٧٥م.

ومن جهة أخرى فقد وقع ما توقعه صلاح الدين عندما تحالف ابن المقدم، أحد أمراء دمشق مع الملك الصليبي عموري الأول، وإبرام اتفاقية، أو معاهدة تعاون[١].

لذلك فـقد خطى صـلاح الدين خطورة هامـة وواضحـة عندما كـتب إلى الأمـراء النوريين في دمـشق وحلب، يعلمـهم بأنـه أحق بولاية الملك الصـالح إسماعـيل، ويخبرهم بقدومه، إلا أنهـم ردوا عليه ردّ غير مقـبول، لأنهم كانوا يخشون أن يزحف عليهم، ويستولى على مدينتهم، كما شعروا بالقلق من زحف صلاح الدين باتجاههم، فاسـتدعوا سيف الدين غازي الثاني ليـسلموه مدينتهم، غيـر أن أتابك الموصل سيف الدين غازي الثـاني تباطأ في الخـروج ظنًا منه أنها مكيدة، وفضل توطيد حكمه ومكاسبه في الجزيرة[٢].

لذلك اندفع سكان دمشـق وألحوا على ابن المقدم إلى دعـوة صلاح الدين، فاضطر إلى الاستـجابة تحت ضغط الظروف السياسيـة، وكتب إلى صلاح الدين يستدعيه إلى بلاد الشام، بناء على رغبة أهل دمشق.

---

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢) (ص٨).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩) (ص٤٠٤-٤٠٦)، انظر: «مفرج الكروب» (جـ٢، ص١١).

الطريق إلى دمشق

ظل صلاح الدين خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود، يتابع أوضاع بلاد الشام التي ذكرنا بعضًا منها، وينتظر الوقت المناسب، والفرصة السانحة للتدخل، وجاءت الفرصة عندما هجم الصليبيون على بانياس، فاستنجد به ابن المقدم، وسكان دمشق، فخرج من القاهرة في صفر ٥٧٠هـ، أيلول عام ١١٧٤م، على رأس سبعمائة جندي، ورافقه سيف الدين طغتكين، وتقي الدين عمر، وعز الدين فروخشاه، وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شئون مصر أثناء غيابه في بلاد الشام، ووزع عساكره على ثغور مصر، ومداخلها ،أخذ بالحيطة والحذر[1].

ووصل صلاح الدين في نهاية شهر ربيع الآخر ٥٧٠هـ ـ ٢٨ تشرين الثاني ١١٧٤م، واستقبله أهل دمشق استقبالاً طيبًا، وفتح له ابن المقدم في اليوم التالي أبواب المدينة، وسلمها له، وتأخر تسليم القلعة من قبل أحد الخدم، وهو جمال الدين ريحان، لكن صلاح الدين عالج الأمر بالحكمة، واستطاع استمالة جمال الدين، إلى أن وافق على تسليمها له، وأصبحت دمشق وقلعتها تحت إدارة صلاح الدين، وأصبح هو الحامي للملك الصغير الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود من خطر الصليبيين، وطمع بعض الأمراء النوريين، واسترد الأملاك التي استولى عليها سيف الدين غازي، أمير الموصل والجزيرة.

وقد ذكر المؤرخون[1]: أن صلاح الدين أخذ ينفذ سياسته في المارة الجبهة

(١) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٠٤).

الإسلاميـة المتحدة، تحت هذا الشعـار، بحيث تمتد من شمـالي الفرات إلى بلاد الشام، فـمصر، ليـتمكن بعد ذلـك من البدء في حركـة الجهاد الإسـلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكًا.

وقد صلاح الدين شمالاً باتجاه حلب لمناواة حاكمها كمشتكين، بعد أن عين أخاة طغـتكين واليًا على دمـشق، فضم حـمص، وتقدم باتجاه حـلب، بعد أن استعصت عليه القلعة[٢].

كان الملك الصالح إسمـاعيل ضعيفًا، حتى أن كمشـتكين سيطر عليه تمامًا، فتفـرد بحكم مدينة حلب، فقـام بتنفيذ سيـاسة خاصة لزيادة نفـوذه، وإضعاف الملك الصالح تمـامًا، فاعـتقل ابن الداية، وراح يخطط لإبعـاد صلاح الدين عن حلب، بل وهاجمه واتهمه بحب السيطرة والغزو[٣].

وكان صلاح الدين يعرف نوايا كمشتكين، إلا أنه أبقى على علاقة بينه وبين الملك الصالح إسماعـيل، فجعل يراسله موضحًا له أمورًا كـثيرة، وإبداء إصلاح النصح له، ولم يكن الملك الصـالح راضيًا عن من هُمْ حوله من الأمـراء، وكان صغر سنه عاملاً من عوامل تأثره بمن حوله، مما أضعفه أمام كمشتكين، وقد تمثل ضعفـه هذا في قيام كمـشتكين باعتقـال نمر الدين جورديك أمير حـماة ورسول صلاح الدين إلـيه، لعقـد صلح بين الطرفين، ولكن أن كـمشتكين قـبض على جورديك، ورغم معرضـة الملك الصالح، وعذبه ووضعه في السـجن غير عابئ بتراثي الملك الصالح[٤].

---

(١) «الحركة الصليبية» سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية (جـ ٢، ص٧٤٢).
(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٠٦). (٣) الأصفهاني (ص١٧٩).
(٤) «زبدة الحلب» للصاحب كمال الدين العديم ـ تحقيق: د/ سهل ذكار (جـ ٢، ص٥٢٠).

علم صلاح الدين بذلك، فتوجه إلى حلب لإنقاذ عز الدين جورديك والملك الصالح، من قبضة كمشتكين، وضم حلب إلى أملاكه، لكي يحقق هدف توحيد القوى الإسلامية.

حاصر صلاح الدين حلب في ٣ من جمادى الآخر عام ٥٧٠هـ - ٣٠ كانون الأول ١١٧٤م، فاغلق كمشتكين أبوابها في وجهه.

كان أهل حلب يميلون إلى الأذعان لصلاح الدين - باستثناء الشيعة - فطلب منهم الملك الصالح من كمشتكين الذي يريد أن يسلبه إرادته، فوافقوه بشروط أهماها ذكر أسماء الأئمة الإثنى عشر بين يدي الجنائز، وإعادة الآذان بـ «حي على خير العمل»، وذكر ذلك في الأسواق وشروط أخرى وافق عليها الصالح إسماعيل، بضغط أيضًا من كمشتكين[1].

وحاول كمشتكين في الوقت نفسه اغتيال صلاح الدين عن طريق جماعة الإسماعيلية والصليبيين، فارسل سنان زعيم الإسماعيلية جماعة من الفدائيين في جمادى الآخرة ٥٧٠هـ - كانون الثاني ١١٧٥م، لقتل صلاح الدين، وقد تنكروا في لباس الجند، وبالفعل تسلل بعضهم إلى خيمته، وكادوا أن يقتلوه، ولكن صلاح الدين نجا من مؤامراتهم[2].

اتجه كمشتكين بعد فشل مؤامراته إلى الاستعانة بالصليبيين، وهذا ما كان يخشاه صلاح الدين الأيوبي من تفكك وحدة المسلمين، فارسل كمشتكين إلى ريموند الثالث، الوحد على عرش مملكة بيت المقدس يطلب فيه المساندة، فحاول

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (جـ ١٢، ص:٢٨٨-٢٨٩).
(٢) «الكامل» (جـ ٩)، (ص٤٠٧-٤٠٨).

ريموند أن يتعامل مع صلاح الدين بالوسائل السياسية، فارسل إليه يرغبه في الصلح مرة، ومرة يلوح بالتهديد، فيقول في رسالته: بأن الفرنج قد اتحدوا وتماسكوا وصاروا يدًا واحدة، لكن صلاح الدين بيّن لريموند أنه لا يخشى تهديداته فرد ردًا عمليًا، بالإغارة على أنطاكية[1].

فرد ديموند بمهاجمة حمص، فرفع صلاح الدين حصارة على حلب، وذهب لانقاذ حمص، فانسحب ريموند من حمص بعد ما علم أنه رفع الحصار على حلب، وكأنه انقذ كمشتكين الذي استعان به[2].

كما قام صلاح الدين متوجهًا إلى بعلبك، وضمها إلى إملاكه، في ٤ رمضان ٥٧٠هـ - ٣٠ آذار ١١٧٥م[3].

ثم توجه إلى بقية بلاد الشام، واستطاع خلال فترة وجيزة أن يبسط سلطانه على كل بلاد الشام، حتى حماه شمال، ثم كتب إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، بين له في رساله مطولة فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية، وما كان من إعادته الخطبة للعباسيين في مصر، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن، وأنه جاء إلى بلاد الشام لإصلاح ما فسد من أمورها، وحفظ الثغور، وخدمه الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود، وفي ختام رسالته طلب من الخليفة العباسي تقليدًا بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام، وكل ما يفتحه بالسيف[4].

---

(١) «الروضتين» لابي شامة (جـ ٢) (ص٣٥٠).
(٢) «العماد» الأصفهاني (ص١٨٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) «الروضتين في إخبار الدولتين النورين والصلاحين» لأبي شامة (جـ ٢، ص: ٣٥١).

صلاح الدين ملك مصر والشام

كان سيف الدين غازي الثاني أميرًا على الموصل، وكان أن اختلف الصالح إسماعيل مع صلاح الدين، فاستنجد الصالح بابن عمه سيف الدين قائلاً له: «متى امتلك صلاح الدين حلب لم يكن قصد إلا الموصل»[1].

فأعد سيف الدين جيشًا من الموصل والجزيرة، وطلب المساعدة من أخيه عماد الدين الزنكي الثاني أمير سنجار، ولكن أخيه امتنع بعد أن أقنعه صلاح الدين لأنه أحق بالملك من أخيه، لأنه كبير البيت الزنكي، فوجه سيف الدين أخيه عز الدين مسعود، فعبر الفرات إلى حلب، ولما وصل إليها انضم إليه من كان من العسكر، وسار إلى حماه وحاصرها.

ولكن صلاح الدين وبعض العقلاء من الزنكيين رأوا بضرورة التفاوض وحقن دماء المسلمين، وتم التفاوض ووصل الطرفان إلى قرارات أهمها:

• تنازل صلاح الدين للصالح إسماعيل عن المدن والقلاع، التي انتزعها من بلاد الشام، ومنها: حمص وحماه، والاكتفاء بدمشق لصلاح الدين، أو من ينوب عنه، وتقام الخطبة والسكة له، على أن يعيد صلاح الدين كل ما أخذه من الخزانة[2].

بعد هذا الاتفاق أخطأ الزنكيون في تقدير الموقف، فقد ظنوا أن صلاح الدين في وضع ضعيف، وطمعوا في الحصول على مزيد من الامتيازات والتنازلات، وخاصة بعد أن علموا أن قوات جيشه قليلة العدد، وكان أول ما

---

(١) المصدر السابق (جـ ٢، ص: ٣٨١).

(٢) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٠٩).



طلبوه منطقة الرحبة وأعمالها، فاعتذر لهم بحجة أنها في يد ابن عمه ناصر محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا يستطيع أن يسلمها لهم[١].

وكان صلاح الدين ذكيًا في رفضه، لأنهم أرادوا شق الصف الأيوبي، فيما لوافق على طلبهم، فحافظ على جبهته الداخلية.

وبناء على تقديرات خاصة كما ذكرناها هاجم الزنكيون جيش صلاح الدين بالقرب من حماة في منطقة تسمى قرون حماه، تقع شمال مدينة حماه، وذلك في ١٩ رمضان عام ٥٧٠هـ - ٢٣ من نياز عام ١٢٧٥م، فهزمهم صلاح الدين وأسر بعضًا من أمرائهم، ثم أطلق سراحهم، وطارد أعدائه حتى أبواب حلب، وحاصر المدينة مرة أخرى، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح، وأزال اسمه من سكة التعود في المناطق الواقعة تحت حكمه[٢]، بعد ذلك مال الحلبيون إلى الصلح.

وجرت مفاوضات بين الطرفين، انتهت بأن يكون لصلاح الدين ما استولى عليه من بلاد الشام، وللزنكيين ما بيدهم، وان تضاف إلى أملاك صلاح الدين الأراضي الواقعة شمالي حلب، مثل مدينة المصرة، وهي من أعمال حمص بين حلب وحماه[٣]، وكقرطاب الواقعة بين الصرة وحلب، وتم توقيع الاتفاق، وبقد ذلك رحل صلاح الدين عن حلب[٤].

بعد هذا الاتفاق حقق صلاح الدين هدفًا مهمًا، وهو تثبيت أقدامه تمامًا في بلاد الشام، وقد ضعف مركز الزنكيين، ولك من عاداه في هذه البلاد، ولقب نفسه بلقب ملك مصر والشام، ثم دُعي له على منابرها، وسك نقودًا ذهبية باسم صلاح الدين[٥].

---

(١) «العماد» الأصفهاني (ص١٨٧).
(٢) المصدر السابق (ص١٨٨).
(٣) ياقوت الحمدي (جـ ٥، ص١٥٦).
(٤) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٠٩).
(٥) العماد الأصفهاني (ص١٩٢).

ولكن الأمر لم ينتهي عند هذا الحد، فما إن سمع سيف الدين غازي الثاني ابن الموصل الزنكي بهذه الأخبار، وعلم أن صلاح الدين حصل على تقليد من الخليفة العباسي بحكم مصر وبلاد الشام، اتجه إلى التفكير في مواجه صلاح الدين عسكيًا، وفي سبيل ذلك استعان بريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، وطلب منه أن يسانده من صلاح الدين[1].

ومن الغريب أن سيف الدين أرسل رسولاً واحدًا يحمل رسائل لصلاح الدين، ورسائل لأمراء حلب في وقت واحد: رسالة لصلاح الدين دعوة للمهادنة، وأخذ العهد له، وكتب رساله إلى أمراء حلب يلومهم لأنهم تسرعوا وأبرموا صلحًا مع صلاح الدين، وفي الرسالة تحريض على نقض هذا الصلح، ودعوتهم للتعاون معه في خوض المعركة ضد صلاح الدين، وانتزاع أملاكه[2].

ومن حسن حظ صلاح الدين كشفت له الصدفة، ولربما لأن كانت أهدافه لصالح المسلمين، كشفت الصدفة حقيقة الموقف، حينما أخطأ رسول سيف الدين غازي الثاني، وأخرج الرسالة الموجهة لأمراء حلب، على أنها رسالة صلاح الدين، وقرأ صلاح الدين الرسالة، وعرف نوايا الزنكيين الحقيقية، فقد أدرك أن أمراء حلب قد استجابوا لفكرة نقض الصلح، ويعدون أنفسهم للقتال، وحاول سيف الدين غازي استقطاب الأمراء التركمان، ومنهم أمير حصن كيفا، وصاحب قلعة ماردين وغيرهم، ووجد سيف الدين تعاونًا من أخيه عماد الدين الزنكي الثاني صاحب سنجار.

وكان صلاح الدين على علم بكل هذه التحركات، ووجد في ريموند الثالث

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص٣٦).
(٢) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص٣٦).

صاحب طرابلس، خطورة تفوق خطورة الزنكيين، فأراد تحييده، فعرض عليه المسالمة والصداقة إذا وقف محايدًا في هذا الصراع، وأطلق سراح ما عنده من الأسرى الصينيين كدليل على حسن النية[١].

خرج سيف الدين غازي في جيش كثير العدد، قاصدًا الصينيين[٢]، وكان ذلك في ربيع الأول عام ٥٧١هـ - أيلول عام ١١٧٥م، وظل بها طوال فصل الشتاء، ثم عبر الفرات، وكتب إلى كمشتكين، والملك الصالح إسماعيل، يدعوهما لتقديم المساعدة، وتوصلوا إلي إتفاق بأن يتقدم سيف الدين غازي الثاني، صاحب الموصل إلى حلب، وهناك يجتمع بابن أخيه الملك الصالح إسماعيل، ليقررا معًا خطواتها القادمة[٣].

واجتمعا معًا في منطقة عين المباركة، فاتفقا على ضم جيشها ليصل عددهما إلى عشرين ألف مقاتل، وبدأ هذا الجيش الضخم في اتجاه دمشق في رمضان عام ٥٧١هـ - آزار عام ١١٧٦م، وعلى مسافة عشرين ميلاً جنوب حلب توقف الجيش.

وظهر في الصبورة كمشتكين، والذي يتلاقى في المصلحة مع الزنكيين بإضعاف صلاح الدين، أو حتى القضاء عليه، ففعل فعلته وقرر التعاون مع الصليبيين، كما يقاتل صلاح الدين على جبهتين وتكون الهزيمة، لذلك غازل الصليبيين بإطلاح سراح أسراهم في حلب، ومنهم أمير الكرك رينولد شاتيون، وأمير الرها جوسلين[٤].

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» (جـ ٢، ص٩٨٣) - وليم الصوري، ط: دار الفكر بيروت، ط ١٩٩٠م.

(٢) يقول ياقوت الحموي في معجم «البلدان» (جـ ٥، ص٢٨٨): أنها الصينيين مدينة حامرة من بلاد الجزيرة على جادة القول، بل من الموصل إلى الشام.

(٣) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤١٥).

(٤) «تاريخ الأعمال» وليم الصوري (جـ ٢، ص٩٧٦).

اعتمـد صلاح الدين في مواجهـة هذا الخطر باعتماد أسلوب المفـاجأة، فلم ينتظر بعد أن تلقى إمـدادات من مصر، فعـبر على الفور نهر العـاصي في شهر شوال ـ نيسان، ومر بقرون حـماه، حتى وصل تل سلطان، وبعد عشرة أيام من وصوله، وصل سـيف الدين غازي بجيشـه إلى تل سلطان، في وقت كان جند صلاح الدين مشغولون بأمورهم الإدارية، ولم يهاجم في هذه اللحظة، بل تردد وأجل الهـجوم لليـوم التـالي، وهو العاشـر من شـوال ١٢ نيسـان، واشتـبك الطرفان، وكادت المعركة في البـداية تكون للزنكيين، لكن صلاح الدين عجلهم بقدراته الاحتياطية، فرد هجومهم، وحطم خطوطهم، وفي المساء كان النصر في صالح صـلاح الدين، ومُني الزنكيون بخسـارة فـادحة تدل على فداحـتهـا أسر بعض قادتهم.

وفيـما كان هؤلاء فـي الأسر، وقد ظنوا أن صـلاح الدين سيقـتلهم، وهم أصحـاب مناصب هامة مـؤثرة، فيمـا كانوا يفكرون في هذا أمـر صلاح الدين بإطلاق سراحهم[1].

وعاد سـيف الدين غازي الثاني مـهزومًا، وقـد وضع نفس في دائرة أعداء صلاح الدين، وترك في معسكره أموالاً كثيـرة، قام صلاح الدين بتوزيعها على جنده مكافأة لهم على شجاعتهم.

سيطر صلاح الدين على الحصون المحيطة بحلب، ولم يقم بملاحقة الزنكيين، ودخل في مفـاوضات معهم، إذ كـان هدفه توحيد كلمـة المسلمين، وعدم إعطاء فرصة للصليبيين من الاستفـادة من هذا الوضع، وانتهى الاتفاق على صيغة توحد الكلمة، وقدر كل طرف تنـازلات للآخر، وأهم ما اتفق عليه، أن يكونوا جمـيعًا

(١) «العماد» الأصفهاني (ص٢٠٤).

يدًا واحدة ضد الصليبـيين، وألا ينقضوا العهد بينهم، ومن ينقض العـهد يتحالف ضده الأطراف البـاقون، ويتنازل صلاح الديـن عن قلعة عزاز وهي شـمال حلب للملك الصالح إسماعـيل، ووقع هذا الاتفاق في المحرم من عام ٥٧٢هـ ـ الموافق تموز من عام ١١٧٦م، ولكن صـلاح الدين لم يكن يقف في أمراء الـزنكيين بعد التجائهم مرة تلو الأخرى للصليبيين كلما شعروا بخطر من جهته[١].

(١) المصدر السابق، وانظر «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص٤٦).

إنهاء سيطرة الزنكيين على الموصل والشام

أيقن صلاح الدين أنه لن ينجح في مواجهة خطر الصليبيين، إلا إذا دانت له بلاد الشام والموصل كاملة، لكي يستطيع تكوين جيش قوي، وأنه لن يستطيع المواجهة بقوات دمشق، وبعض القوات المصرية والتي بلغ إجمالها ستة آلاف جندي.

لذلك فقد كان بين أمرين يختار منهما الأنسب، وهما استقطاب الزنكيين في حلب والموصل، أو ضم حلب والموصل بالقوة، وإما السيطرة التامة على هذه البلاد.

والأمر الأول - وهو استقطاب الزنكيين كان صعبًا بعيد المنال ذلك أنه لما توفى سيف الدين غازي في شهر صفر عام ٥٧٦هـ - تموز ١١٨٠م، خلفه أخيه عز الدين مسعود[١].

في البداية حافظ عز الدين مسعود على اتفاق أخيه سيف الدين غازي مع صلاح الدين، وأرسل إليه رسولاً هو الفقيه فخر الدين أبا شجاع البرهان البغدادي للتفاوض معه بشأن استمرار العلاقات الجيدة بينهما، وهذه لا يرفضها صلاح الدين.

أما الأمر الثاني - فهو إبقاء سيادة الموصل على مدن الجزيرة التي ضمها سيف الدين غازي الثاني عقب وفاة نور الدين محمود، وهي الرها وحران ونصيبين والخابور، لكن صلاح الدين رفض هذا الأمر محتجًا بأنه لم يتنازل عنها لسيف الدين، إلا مقابل وعده بمساعدته بجيوشه، وأنه بحاجة إلى قوات هذه المدن للاستعانة بها في مواجهة الصليبيين[٢].

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٤٦).

(٢) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص٩٥).

وبالنسبة لهذه المدن، فقد فوضه الخليفة العباسي بحكمها، وارسل إليه التفويض في رجب ٥٧٦هـ، كانون الأول ١١٨٠م.

وبعد عام من هذا التفويض توفى الصالح إسماعيل في حلب في شهر رجب عام ٥٧٧هـ ـ شهر كانون الأول ١١٨١م، وأوحى قبل وفاته، أن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود في حكم حلب، بالإضافة لحكمه للموصل، مما أغضب صلاح الدين، وأكد له أن الزنكيين لن يوفوا بعهدهم.

وما إن توفى الصالح إسماعيل حتى أسرع عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب، كي يضمها إلى أملاكه، ليقطع الطريق على صلاح الدين، إذا أراد ضم حلب لأملاكه، وتسلم حكم حلب في شهر شعبان من نفس العام، وما إن وصل إلى حلب، حتى فاجأه أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار في أن تؤول إليه حلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل، وطالب عماد الدين أخاه عز الدين بنصيبه في الإرث، وأن يقدم له حلب بدلاً من سنجار، ولكن عز الدين مسعود رفض طلب أخيه، فثار عماد الدين ضد أخيه، وأيده قائد جيش حلب مظفر الدين كوكبوري، وهدد أخيه بتسليم سنجار إلى صلاح الدين، فتراجع عز الدين مسعود تحت هذا التهديد من أخيه، فتنازل عن حلب لأخيه مقابل تنازل عماد الدين عن سنجار ومكافأة، فظفر الدين كوكبوري بإعطائه إمارة حران[1].

من ذلك كله يتبين مدى النزاعات والخلافات بين الأمراء الزنكيين.

توجه صلاح الدين بجيشه إلى الموصل، بعد حصاره لحلب، مفضلاً انتزاع الموصل والجزيرة، والحصون التابعة لها، فعبر الفرات عند البيرة، وكان أمير البيرة شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقى يدين لصلاح الدين بالولاء

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٥٥).

والطاعة، وانضموا إلى جيشه، فسقطت أمامه مدن الجزيرة: الرها، وسروج، ونصيبين، والرقة، والخابور، وغيرها، فجعل كوكبوري واليًا على الرها، وولى حسام الدين أبا الهيجاء السمين نصيبين، ومنح جمال الدين خوشترين الخابور[١].

وحاصر صلاح الدين الموصل في رجب عام ٥٧٨هـ - شهر كانون الأول عام ١١٨٢م، وهاجمها لكنها كانت عصية عليه، فلم يستطع اقتحامها، نظرًا لمناعتها ومتانة أسوارها، وبفضل التحصينات الضخمة التي نفذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز، فقد أظهر من السلاح والآت الحصار، ما حارت له الأبصار[٢].

وقد قام صلاح الدين أثناء حصاره للموصل بجولة استطلاعية حولها، فتأكد له بعد هذه الجولة صعوبة اقتحامها، أما عز الدين مسعود أمير الموصل، فقد ارسل رسولاً للخليفة العباسي يستنجده، كي يرد صلاح الدين عن بلاده، فكتب الخليفة إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، وكان بصحبة صلاح الدين، يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين[٣]، وأرسل يطلب المساعدة من أمير أذربيجان، وأمير همذان، وأمير خلاط[٤] بكتمر بن سقمان، فاستجاب بكتمر، وأرسل صلاح الدين يطلب منه الشفاعة والكف عن الموصل، فرفض صلاح الدين في البداية، ولكنه دعا للتفاوض والعفو لأنه يسعى إلى توحيد المسلمين، ولكن المفاوضات فشلت لتمسك عز الدين مسعود بضم حلب إلى أخيه.

عند ذلك بدأ صلاح الدين في تضييق الخناق على الموصل، وعزلها عن حلب، فاستولى على سنجار، وهي التي تصل بين الموصل وحلب، فهاجم سنجار في ١٦ صفر عام ٥٧٨هـ - ١٥ كانون الأول عام ١١٨٢م، وأخطر

---

(١) ابن الأثير (جـ ٩، ص٤٦٢)، و«مفرج الكروب» (جـ ٢، ص١١٩).
(٢) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٦٣). (٣) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص١٢٢).
(٤) بلده في أرمينية الوسطى، معروفة بخير أمتها وثمارها - الحموي (جـ ٢، ص٣٨١).

الخليفة العباسي بتحركه وهدفه، وحاصر سنجار مدة خمسة عشر يومًا، حتى سقطت في يده[١].

واستمر صلاح الدين في الدوران حول الموصل، والاستيلاء على معظم أنحاء الجزيرة، فاستولى على آمد في ١٠ محرم ٥٧٩هـ - ١٦ أيار ١١٨٣م، وبعد أن استولى على مناطق الجزيرة أضحى مجاورًا لإمارة حلب، فقرر أن يضمها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل، فعبر الفرات، ونزل على تل خالد من أعمال حلب، وحاصرها حتى استسلمت في شهر المحرم عام ٥٧٩هـ - أيار عام ١١٨٣م، ثم سار منها إلى قلعة عينتاب الحصينة، فقدم صاحبها ناصر الدين محمد بن خمار تكين الولاء له، وطلب منه أن يبقيه على إمارتها، فوافق صلاح الدين، وتقدم من عينتات إلى حلب، ونزل عليها في ٢٦ محرم - ٢١ أيار، إلا أنه لم يبدأ القتال، ونزل بالميدان إلا خضر، ثم انتقل بعد عدة أيام إلى جبل جوشن، وأوهم عماد الدين زنكي الثاني بأنه يبني المساكن له ولجنده، حتى يدفعه إلى الاستسلام تجنبًا لإراقة الدماء[٢].

وأطال صلاح الدين الحصار، مما جعل عماد الدين زنكي ينفق من أمواله الكثير، وهو معروف بالشح والبخل، فتهاون في الدفاع عن حلب، وعندما طالبه الجند بالمزيد من الأموال، اعتذر بقلة المال، فانصرفوا عنه، فاضطر في البدء في مفاوضة صلاح الدين، فتنازل عن حلب لصلاح الدين، ومنحه صلاح الدين سنجار والخابور ونصيبين وسروج على أن يضع قواته العسكرية بتصرف صلاح الدين، متى طلب ذلك، ونتيجة لهذه المفاوضات دخل صلاح الدين

---

(١) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٦٦).

(٢) «مضمار الحقائق» للملك المنصور محمد بن عمر شاهنشاه الأيوبي (ص١٤١).

حلب بعد إبرام الصلح في ١٧ صفر عام ٥٧٩هـ - ١٨ من خريران ١١٨٣م، وسط ترحيب شامات مدينة حلب.

وكان من نتيجة ذلك أن أصبح صلاح الدين صاحب مركز قوى بعد أن غزر الجبهة الإسلامية، مما أقلق الصليبيين، لأن صلاح الدين أصبح متفرغًا لقتالهم، ولذلك فقد اعتبروا أن هذا الصلح نكبة قد حلت بهم، لأنه وحد بين مصر وبلاد الشام، مما يجعل الصليبيين وكأنهم محصورون بين قوتين كبيرتين، فاسرع حاكم أنطاكية بوهيموند الثالث يطلب الأمان من صلاح الدين، فوافق صلاح الدين على إعطائه هدنة تؤمنه، وقد وجد أن هذا الأمر في صالحه، ربما يعد نفسه، ويستكمل خطوات توحيد المسلمين، وخاصة في منطقة الشرق الأدنى، ليحصل له عمقًا استراتيجيًا[1].

ورغم كل هذا، فقد عادت الاضطرابات إلى الموصل مرة أخرى عندما اختلف عز الدين مسعود الأول مع نابه مجاهد الدين قايماز، فقبض عليه، وأودعه السجن، وصادر أمواله، وكان قايماز يحكم بلادًا كثيرة مثل إربل، ودقوقًا وهي مدينة بين أربل وبغداد، وشهرزدر، وهي منطقة واسعة في الجبال بين أربل وهمذان[2].

وجزيرة ابن عمر، وقلعة عقر الحميدية، وكان هذا البلاء نوابًا لقايماز، يحكمون باسمه، فلما قبض على مجاهد الدين قايماز غضب هؤلاء النواب الأمراء، وخرجوا عن طاعة عز الدين مسعود الأول، وأرسل اثنان منهم، هما: والي أربل زين الدين يوسف، ووالي جزيرة ابن عمر معز الدين سنجرشاه، أرسلا رسالة إلى صلاح الدين يعلنون ولائهم له، ومن هذه الأحداث تهيأت

(١) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص١٤٢).
(٢) انظر: «معجم البلدان» للحموي (جـ ٣، ص٣٧٥).

فرصة لصلاح الدين ليكون في موقف قوة أمام عز الدين الذي أصبح في موقف ضعف وارتباك، فاسرع مسعـود إلى طلب الصلح، وأرسل إلى الخليفة العباسي قاضيه بهاء الدين بن شداد في شوال ٥٧٩هـ ـ كانون الثاني ١١٨٤م، فاستجاب الخليفة لطلبه، فارسل وفدًا للتفاوض مع صلاح الدين، فاشترط صلاح الدين أن يكون لأميري أربل وجزيرة عمـر، حرية الاختيار في الانـضمام إليـه أد إلى صاحب المـوصل، فرفض ممثل عـز الدين مسعـود الأول، وتمسك بتبـعيـتهـما لصاحب الموصل، ففشلت المفاوضات[١].

عندئذ حاول عز الدين مسعود الأول، إصلاح خطئه، فاخرج نائبه فايماز من السجـن، أعد جيـشًا بمسـاعدة القـوى المجادرة، واسـتقطب إلى جـواره حاكم أذربيحان الذي أمده بثلاثة آلاف جندي، فهاجم إربل، لكنه فشل في اقتحامها، ولما علم صـلاح الدين بمهاجـمة إربل، عـزم على مـساعـدة حليفـة زين الدين يوسف، حاكم إربل، فحشـد قواته مستغلاً الهدنة التـي عقدها مع ريموند حاكم أنطاكية، والتي أمنت مؤخرة جيشه، فلم يعقد قلقًا بشأن ذلك.

وخرج صـلاح الدين على رأس جيشـه إلى حران في صـفر ٥٨١هـ ـ أيار ١١٨٥م، ونزل برأس العين، ثم رحل إلى رنيسر، حـيث انضم إليه عماد الدين ابن قرا أرسلان الأرتقي، ومعـه عساكر فيه نور الدين مـحمد، صاحب حصن كيف وآمد، وساروا جميعًا من نصـيبين حيث لحق بهم معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الأول حاكم جزيرة ابن عمر[٢].

---

(١) انظر: «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٧٥).

(٢) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص١٦٦).

ومضى صلاح الدين في زحفه باتجاه الموصل، ونزل بالقرب منها في ربيع الأول ٥٨١هـ - خريران ١١٨٥م، ثم أرسل رساله للخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية اضطرابات الموصل، ولكي يدعم موقفه أمام الخليفة العباسي ذكر له أن أهل الموصل يخطبون باسم طغرك السلجوتي سلطان العجم المعادي للخليفة، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين، ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وبين صلاح الدين للخليفة أنه لم يأت رغبة في توسيع ملكه، أو التخلص من الزنكيين، وإنما كل هدفه هو ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، ومنعهم من ارتكاب الظلم، وانتهاك الحرمات، وقطع صلتهم بسلاجقه العجم، والزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم[١].

وكعادته عز الدين مسعود الأول كلما شعر بضغط من قبل صلاح الدين، اتجه إلى السياسة والمهادنة، فارسل إلى صلاح الدين وفدًا غريبًا، فقد كان الوفد من النساء، ضم والدته وابن عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة، لطلب الصلح، والكف عن حصار الموصل، فمال صلاح الدين إلى قبول الصلح، لكن الفقيه عيسى الهكاري، والأمير علي بن أحمد المشطوب، اعترضا على الصلح، وحذراه من الإقدام على قبول الصلح، وقالا له: «مثل الموصل لا يترك لإمرأة، فإن عز الدين مسعود ما أرسلهن إلا وقد عجر عن حفظ البلد»[٢].

فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل، وحاصر المدينة، لكنه وجد صعوبة في اقتحامها لتحصينها، واستبهما جيش قايماز، وحدوث الحصار في فصل الصيف، حيث الحر الشديد، عندئذٍ أمر صلاح الدين بوقف المنادشات العسكرية

---

(١) المصدر السابق (جـ ٢، ص١٦٦).

(٢) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٥).

حتى يزول الحر، وفي أثناء الحصار توفى كل من حكام خلاط شاه أزمن دون أن يترك ولدًا يخلفه في الحكم، ونور الدين محمد حاكم حصن كعفا ناراو صلاح الدين ترتيب أوضاع هذه الإمارات لصالحه.

وفيما هو يفكر في ذلك استولى أحد مماليك شاره أرمن، ويدعى سيف الدين بكتمر على الحكم في خلاط، بعد وفاة حاكمها، وحاول صلاح الدين الاستيلاء على خلاط، لكن تحالف بكتمر مع شمس الدين بهلوان، والي اذربيجان أدى إلى فضل جهود صلاح الدين في الاستيلاء على خلاط.

أما قطب الدين سقماق الذي تولى حكم حصن كعفا وآمد، فقد اعترف بالطاعة والولاء لصلاح الدين، خشية من أن يسترد منه آمد[1].

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى أشهر مدينة بمنطقة ديار بكر، وهي مدينة (ميافارقين)، والتي كانت تحت حكم حسام الدين بن يولق بن قطب الدين إملغازي صاحب مادرين، وله من العمر عشر سنوات، وفيها حامية لشاه أرمن صاحب خلاط، وعلى رأس جيشها أسد الدين برنقس، وقد رفض الولاية لصلاح الدين، أعلن عصيانه، فحاصر صلاح الدين المدينة ، إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها، فمال إلى استعمال الدهاء والزكاء، فاتصل بزوجة قطب الدين المقيمة فيها، وأوهمها بأن برنق اتفق معه على تسليم البلد، كما أرسل إلى برنقض يخبره بميل الخاتون إليه، وبهذا الدهاء والأسلوب السياسي استطاع صلاح الدين ضم هذه البلدة إلى أملاكه ٢٩ جمادى الأول ٥٨١هـ - ٢٨ آب عام ١١٨٥م[2].

وما إن انتهى صلاح الدين من ضم (ميافارقين)، حتى عاد إلى الموصل،

---

(١) أمد: مدينة مشهورة في ريادة بكر - الحمود (جـ ١، ص٥٦).

(٢) «الكامل في التاريخ» (جـ ١٠، ص٨-٩).

فنزل بموضع على نهر دجلة، يُقال له: كفرز مار، بالقرب منها، وذلك في شهر شعبان ـ تشرين الثاني، وقرر أن يمضي فصل الشتاء في هذا المكان لمضايقة أهلها، وإضعاف مقاومتهم، فمال عز الدين مسعود الأول إلى المهادنة ليتخلص من ضغط صلاح الدين.

لكن المرض فاجأ صلاح الدين، فوصل إلى حران، فانتهز عز الدين مسعود هذه الفرص، وبدأ يجدد اتصالاته مع صلاح الدين، والتفاوض معه، بعد أن يئس من مساندة الخليفة العباسي له، ووقوف سلطان العجم إلى جانبه، فارسل بهاء الدين بن شداد، وفوضه بالتوقيع على الصلح[١].

• وانتهت المفاوضات بالصلح بين الجانبين على الشروط والأسس التالية:

[١] تصبح شهرزدر وقلاعها، والبوازيج (وهي بلد قرب تكريت)[٢]، والرسقاق، وجميع ما وراء نهر الزاب من أعمال، تحت أمرة صلاح الدين، ويتم تسليمها له.

[٢] يظل عز الدين مسعود الأول، حاكمًا على الموصل وتوابعها، ويخطب لصلاح الدين على منابر الموصل، بعد وقف الخطبة للسلاطين السلاحية، وتضرب السكة باسمه، ويتعهد مسعود الأول بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد لاسترداد بيت المقدس، وبذلك تحققت وحدة الشام ومصر كاملة، وضمان تأبيد الموصل.



---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لابن شداد (ص١١٩)، ط: الخانجي ١٩٩٤ مصر.
(٢) انظر معجم ياقوت الحموي (جـ ١، ص٥٠٣).

علاقات صلاح الدين الخارجية

أولاً ـ مع الدول والإمارات الإسلامية

(أ) الخلافة العباسية

لم تكن علاقات صلاح الدين مع العباسيين في يوم من الأيام سيئة، أو لم تصل إلى درجة الود والعداء، فلربما فترة أحياناً، لكنها لم تصل إلى العداء.

وإذا نظرنا إلا صلاح الدين، نجده قد ارتبط بالخلافة العباسية، نتيجة ارتباطه بالزنكيين، فزعيم الزنكيي نور الدين محمود كان محبًا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، لإقناعه بعقيدته السنية، ولذلك فقد حرص على تأييده واحترامه، وبادله الخليفة مشاعره هذه، بإرساله الخلع والتشريفات له، وحض أمراء الولايات على مساندته ضد الصليبيين.

من ذلك بدأ صلاح الدين علاقة جيدة مع الخليفة العباسي، حينما كان وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد عام ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م، وخطا صلاح الدين خطوة هامة في علاقته بالعباسيين، حينما قطع الخطبة للخليفة الفاطمي للعباسيين على منابر مصر، معبرًا عن طاعته وولائه للخليفة العباسي[١].

ولما مات نور الدين محمود، واشتغل الصليبيين حالة بلاد الشام المضطربة وهاجموها، أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، يصور له الأوضاع السياسية في بلاد الشام، وهجوم الصليبيين على بلاد المسلمين، وبين جهوده في إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادة الخطبة للعباسيين وتصديه للصليبيين

---

(١) انظر: «الفاطمية في هذه السلسلة التاريخية».

عندما هاجموا الإسكندرية في مصر، وأسباب ضمه لليمن، وبعد هذه الرسالة المطولة التي عدد فيها إنجازاته التي تؤكد إخلاصه وولائه للخليفة العباسي، طلب منه أن ينعم عليه بتقليد يشمل مصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه ولاية نور الدين محمود، وقال: «وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمة تخليدًا مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك»[١].

كانت هذه الرسالة من صلاح الدين، وما نتج عنها نقطة تحول في بناء صرح دولة صلاح الدين، فقد استجاب الخليفة لمطالبه، وأنعم عليه بحكم مصر والشام.

وقد رأى فيه الخليفة العباسي شخصية تملأ فراغ نور الدين محمود بعد وفاته، مما جعله يقذف له بالسلطنة، لأنه أصبح في نظره الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تدافع عن المسلمين، وقد ساهم هذا التقليد، وغيره مثل إرسال رسل دار الخلافة له عندما كان يحاصر حماه في عام ٥٧٠هـ - ١١٧٤م، تحمل إليه التشريفات، والتقليد والتمليك والتفويض، ساهم كل هذا في إضفاء المهابة على صلاح الدين، أمام أمراء المسلمين، وكذلك الصليبيين الذين أقلقهم صعود نجمه.

وقد أفادت هذه العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية، أفادت صلاح الدين في صراعه مع الأمراء المسلمين المنادين له، والمتطلعين للسلطة وبخاصة الزنيين، لذلك كان دائمًا ما يطلع الخلافة بولائه وإنتمائه لها، والمحافظة على وجودها[٢].

ولما توفى الخليفة العباسي المستضيء بالله في عام ٥٧٥هـ - ١١٧٩م، وجاء من بعده ابنه أبو العباس أحمد، الذي تلقب بلقب الناصر لدين الدولة، أرسلد

---

(١) «صبح الأعشى» للقلقشندي (جـ ١٣، ص٨٥- ٩٠).

(٢) «الروضتين في إخبار الدولتين والصلاحين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٢، ص٦٠-٦٦).

رسولاً إلى بغداد للتعزية في وفاة والده، والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة، كما توفى في هذه الأنباء سيف الدين غازي الأول أمير الموصل، وخلفه أخوه عز الدين مسعود الأول، فأرسل صلاح الدين كتابًا إلى الخليفة الجديد الناصر لدين الدولة، يطلب منه أن يفوض إليه الأمور كلها كما كانت أيام والده، فاستجاب الناصر لمطالبه، أرسل رسلاً بالتفويض والتشرف في رجب كانون الأول من نفس العام، ولقبه بألقاب عديدة مثل: ناصر الإسلام، وعماد الدولة، وتاج الملوك، والسلاطين، فكتب إليه بهذه الأوصاف في رسالة، قال فيها: «الملك الأجلُّ صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك، والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين، عز المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب، أوام الله علوَّه، على هذه السجايا مقبلاً»[1].

وخصه الخليفة بالنصح من رسالته، فأوصاه: بتقوى الله، والحفاظ على الصلاة، وقصد المساجد الجامعة، ولزوم نزاهة الحرمات، واجتناب المحرمات، وإحسان السيرة في الرعايا، وإظهار العدل في الرعية، وحفظ الثغور، ومجاهرة الكفار، والإعتماد في إدارة شئون البلاد على أصحاب الدين والعفاف[2].

بهذا الكتاب والتفويض الكامل، استراحت نفس صلاح الدين، وكتب للخليفة كتابًا يعدد فيه إنجازات يقبرها ولاءً وطاعة للخلافة، فكتب يقول: «الخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي لأنه والي ثم داري، ولا آخريه طغرلبك، لأنه نصر ثم حجر، والخادم ضلع كان ينازع الخلافة رداءها، فكسر الأصنام الباطنية بسيفه الظاهر»[3].

---

(١) «مآثر الخلافة» للقلقشندي (جـ ٣، ص١٨٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «الروضتين» (جـ ٣، ص٨٦).

وتبيَّن حرص صلاح الدين على علاقته الطيبة مع الخلافة العباسية من خلال حرصه على أن يخطب للخليفة على المنابر في جميع أملاكه وولاياته، وارتداء الخطباء في كل مناسبة شارات الدولة العباسية، ورفع أعلامها السوداء في كل مناسبة أيضًا، ووضع واختص الخليفة صلاح الدين بلبس خلعة سوداء وعمامة سوداء دونًا عن الأمراء المقربين ممن يدخل في حكم صلاح الدين، احترامًا له، والحرص على تفرده بالقرب من الخلافة.

وكما رأينا في الصفحات السابقة، فإنه على الرغم من هذه العلاقات الطيبة بين الخليفة العباسي وصلاح الدين، إلا أن الخليفة لم يمنحه تقليدًا بولاية الموصل، وكان صلاح الدين قد وجه عدة رسائل إلى بغداد، يوضح حاجته في الحصول على تقليد بإدارة الموصل، لكن طلبه لم يتحقق، برغم أنه أعطاه تقليد بإدارة آملاً في ديار بكر[1].

وتعد الموصل قريبة جدًا من حدود الخلافة، مما يثير مخاوف الخلافة، ويذكر المؤرخون أن السبب الذي حمله الخليفة الناصر على عدم إعطائه تقليدًا بولاية الموصل، ربما يكون الخوف من امتداد سلطان صلاح الدين إلى البلاد القريبة دون الخلافة، كالموصل والجزيرة، وفي خلاف صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل استجاب صلاح الدين لرغبة الخليفة، وانسحب من سنجار.

ولكن صلاح الدين تجاوز هذا الموقف، بعتاب رقيق، ولكنه استمر في طاعته، ومراسلة الخليفة، وإطلاعه على إنجازاته وأعماله أولاً بأول، وخاصة في معركة حطين، وخاطبه قائلاً: «الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم[2]».

(١) «الروضتين» (جـ ٣، ص١٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص٣٥٠).

وثق الخليفة بصلاح الدين، وقدر له هذا الإخلاص، في صورة هدايا أرسلها له بعد فتح بيت المقدس، ومن جملة هذه الهدايا لوحًا منقوشًا عليه بعض الآيات والكلمات، لتعليقه على باب بيت المقدس، قال فيه: «أجرى هذا الفتح على يد محيي دولته، وسيف نصره، والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته، والمجاهد تحت رايته، يوسف ابن أيوب، معين أيدي المؤمنين»[1].

وقد حاول الوشاة الإيقاع بين الخليفة وصلاح الدين الأيوبي، بعد معركة حطين، فاستغلوا إرسال صلاح الدين إرسال جندي إلى دار الخلافة من بغداد، يدعى الرشيد بن البوشنجي، وهو من أهالي بغداد، لإعلام الخليفة بهذا الفتح، وكان هذا الجندي مكروهًا في بلاده، ولم يكن صلاح الدين يعلم بذلك، فاستغل خصومة ذلك، وسعوا للإيقاع به، ولفقوا الأباطيل، وضخموا الحادثة، واتهموه بإساءة الأدب أن أرسل هذا الجندي، فتأثر الخليفة بهذه الوشاية، عتب على صلاح الدين بألفاظ مؤلمة، فلما علم صلاح الدين أسرع بإصلاح الخلل، فقال للرسول الذي جاء بالرسالة: «والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمه، فهو اسمي الذي أتشرف به وأعرف، وما غرض إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر الكافرين»[2].

فأجابه الخليفة بكتاب اعتذار، أوضح له فيه مكانته الجليلة، وحبه له، واعترافه بمنجزاته التي أنجزها، إلا أن العلاقة بين الطرفين لتدهور بعد عام ٥٨٥هـ ـ ١١٨٩م.

---

(١) «مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس» علي بن محمد التعدادي (ص٣٤٦)، ط: بغداد ١٩٧٠م.

(٢) «الروضتين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٣، ص٤٢٠)، «ومفرج الكروب» لابن واصل (ص٢٥٠).

(ب) العلاقة مع سلاجقة الروم

كان عز الدين قلج أرسلان الثاني (٥٥٠-٥٨٥هـ - ١١٥٥-١١٩٢م)، سلطانًا على سلاجقة الروم، وكان بينه وبين البيزنطيين صراعًا، انتهى بانتصاره على البيزنطيين في معركة ميريوكيفالون في عام ٥٧١هـ - ١١٧٦م، وكان انتصاره مؤثرًا على وجود الدولة البيزنطية، حيث أنه تم في هذه المعركة تحطيم القوة الميدانية للجيش البيزنطي نهائيًا، وذكر المؤرخون أن هذه المعركة - معركة ميريوكيفالون - قررت مصير آسيا الصغرى والشرق بصورة نهائية، فلم يعد بوسع البيزنطيين تهديد بلاد الشام بعد ذلك.

فكر قلج أرسلان الثاني في بلاد الشام، وأراد أن يؤمن له طريقًا إلى الفرات، فتظاهر بالسياسة والمداهنة، وأرسل رسولاً إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين، وطلب منه حصن (رُعبان)، وحصن (كبسوم)، وهما إلى جنوب قلج أرسلان - نوعان -، مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات، معدودة بالعواصم[1]، وكيسوم قرية من أعمال سميساط[2].

وجاء رسول قلج أرسلان، ليطلب هذا الطلب، بحجة أنهما كانا سابقًا من أملاك سلاجقة الروم، ضمها والده مسعود، ثم اضطر أن يتنازل عنهما لنور الدين محمود.

أغضبت هذه الرسالة صلاح الدين وأثارت غيظه، فأغلظ القول لرسول أرسلان، بل وتوعد قلج أرسلان الثاني، فعاد الرسول إلى قومه، وأخبر

---

(١) الحموي (جـ ٣، ص٥١)

(٢) المصدر السابق (جـ ٤، ص٤٩٧).

سلطانها بما جرى، فغضب قلج أرسلان، وهاجم حصن رعبان في عام ٥٧٥هـ ـ ١١٧٩م، وكان يحكم هذا الحصن شمس الدين بن المقدم من قبل صلاح الدين، فهاجمه قلج أرسلان بقوة كبيرة تساوي عدة آلاف، وعندما علم صلاح الدين أرسل قوة عسكرية تقدر بألف فارس بقيادة المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، صاحب حماة[1]، فتقدم بقواته حتى اقترب من المعسكر السلجوقي، ودار حوله مستكشفًا، فتبين له أن جيش أرسلان مسترخ غافل، فاغتنم هذه الفرصة، ووزع قسمًا من قواته حول المعسكر، ومعهم الآلات الموسيقية ـ البوقات وغيرها ـ، واستعد هو من القسم الآخر للإنقضاض على المعسكر.

وهيأ جو المفاجأة، وفي الوقت المحدد أعطى إشارة البدء للموسيقيين بإطلاق الموسيقى، وإحداث جلبة مصطفة، فلما سمع الجنود السلاجقة تلك الضجة من أصوات الموسيقى وجلبة الرجال، واصطكاك الحديد، وشدة وقع حوافر الخيل التي كانت تدور باستمرار حول المعسكر، هالهم ذلك، وتوهموا أنهم مطوقون بأعداد هائلة من الجنود، فدبَّ الزعر بينهم، وغرقوا في بحر من الفوضى، ثم لازوا بالضرار طالبين النجاة، تاركين وراءهم خيامهم وأثقالهم، وانقض عليهم في تلك اللحظة، المظفر تقي الدين عمر بفرسانه، وأخذ يعمل فيهم قتلاً وأسرًا، وهم هاربون لا يلوون على شيء، وغنم جميع ما تركوه، ثمَّ من على الأسرى، وسرَّحهم، وعاد قلج أرسلان الثاني إلى ملطية يجر أذيال الهزيمة والعار، وملطية بلد من بلاد الشام المشهورة، والمتاخمة إلى بلاد الشام[2].

وبعد مرور عام على هذه الأحداث، عاد النزاع مرة أخرى بين صلاح الدين الأيوبي وقلج أرسلان، وكان سبب هذا النزاع شغله عامين، فقد أقام قلج

---

(١) «الكامل» (جـ ٩، ص١٤٨).

(٢) ابن الأثير في «الكامل» (جـ ٩، ص١٤٩)، د/ ياقوت الحموي في «معجمه» (جـ ٥، ص١٩٢).

أرسلان الثاني علاقـات سياسية مع أصحاب حصن كيـفا، ووثق هذه العلاقات بزواج ابنته سلجـوقة خاتون بنور الدين محـمد قرا أرسلان، صـاحب الحصن، ومنحه قلج أرسلان الثاني عددًا من الحصون التي تجاور بلاده كمهر.

وبعد فترة من الزمن أحبَّ نور الدين مـحمد مغنية، فمال إليـها وتزوجها، وأعرض عن زوجته السلـجوقة، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فـبعث إليه: «أما أن تحسن عـشرتها، وإمـا أن تفارقهـا»، فلم يهتم به، عند ذلك قـرر قلج أرسلان الثاني القيام بحملة عسكرية ضد نور الدين محمد لتأديبه والإستيلاء على بلاده، فاستجار هذا الآخر بصلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه أن يتخلى عن محاولته ضد إمارة كيـفا، فأجابه بأنه أعطى نور الدين محمد عدة حـصون مجـاورة لبلاده، عندما زوجـه ابنته، وقد سـلك سلوكًا سيـئًا من ابنته، فقرر استعـادة ما أعطاه من الحصون، ومن ثمَّ ترددت الرسل بين الرجلين دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صـلاح الدين إلى التوجه على رأس جيشه إلى بلاد الروم لإيقاف قلج أرسلان الثاني عند حـده، والتحق به نور الدين محمد، فتقدم إلى تل مباشر، وهي قلعة حصينة شمالي حلب[١].

ثم عرج على رعـبان، فلمـا علم قلج أرسلان الثـاني بتقـدم صلاح الدين خشي الهزيمة، وأرسل علـى الفور أحد كبار مـساعديه، وهو الأمير اخـتيار بن عفراس، ليشرح له الموقف، وأنه لابد من تأديب نور الدين محمد على تصرفه، وأسفرت الإتصـالات عن اجتماع الأطراف الثـلاثة: نور الدين، وقلج أرسلان، وصلاح الدين في شـهر جمـادى الأولى ٥٧٦هـ ـ تشرين الأول ١١٨٠م، على النهر الأزرق ـ أحد فـروع نهر الفرات، وفي هذا الإجتـماع تمسك صلاح الدين

(١) «معجم ياقوت» (جـ ٢، ص٠٤).

لدرجة أنه هدد بالزحف على ملطية، وبقية بلاد السلاجقة، في حال إصرار قلج أرسلان الثاني على تأديب نور الدين محمد.

وكان الأمير السلجوقي قد شاهد أثناء إقامته في المعسكر الأيوبي، قوة صلاح الدين المتمثلة في حشوده وسلاحه ودوابه، فهاله الأمر، فبذل جهدًا في إنهاء هذه الأزمة، وأقنع صلاح الدين من الوجهة الدينية، فتم الإتفاق على أن: يطلق نور الدين محمد المغنية بعد سنة، وإذا لم يفعل يتعاون صلاح الدين مع قلج أرسلان على حربه، ويدخل جميع أمراء الموصل، وديار بكر، والأراتقة في هذا الصلح، وقد أبدى صلاح الدين كرمًا وشهامة القائد عندما وافق على طلب لقلج أرسلان بمساعدته في حربه ضد الأرمن في كيليكية الذين كانوا يهاجمون الأراضي السلجوقية، وقد أوفى بوعده عقب توقيع الصلاح فورًا، فهاجم بلاد الأرمن على الفور[1].

ورغم ذلك ظل السلطان السلجوقي قلج أرسلان يمارس سياسة فرد وجه في علاقاته مع صلاح الدين، وسنجد ذلك عندما نتعرض للحملة الصليبية بقيادة الإمبراطور الألماني فريدريك بربردوسا أحد الملوك الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الثالثة، والتي بدأت في عام ٥٨٥هـ - ١١٨٩م.

أولاً - الطائفة الإسماعيلية ومحاولات اغتيال صلاح الدين:

خرج معظم أفراد الطائفة الإسماعيلية من مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في عام ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م، وكان على رأس هذه الجماعة الحسن بن الصباح، الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشة أو الباطنية، وقد كون له اتباع شديدي الولاء له، لمواجهة

---

(١) «الكامل» (جـ ٩، ص٩-٤٤٧).

الخلافة العباسية، وهي ألد خصومة، والذي تحدى وجودها وشرعيتها، وكان شديد العداء لبعض أمراء المسلمين السلاجقة، وكان سلاحه الفتاك هو الاغتيال، واتخذ لدعوته قصرًا في قلعة الموت المنيعة في خراسان، وتقع على جبل شاهق من حدود الديلم[1]، وقد أحبه اتباعه حبًا شديدًا ومطلقًا، مع جعلهم على استعداد لأي مخاطرة، أو تضحية بأنفسهم في سبيل تنفيذ أوامره، وقد نجحوا في القيام بسلسلة من الاغتيالات بين الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، وقد امتلك هؤلاء عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل: القدموس، والعلبقة، والكهف، ومصيان، وغيرها.

وقد امتلأوا حزنًا وارتياعًا لزوال الدولة الفاطمية وخلافتها في مصر، وانتصار عدوهم نور الدين محمود وتوسعه في الشرق، ومن أجل ذلك أرسلت القيادة في قلعة الموت في عام ٥٥٨هـ - ١١٦٣م، أرسلت رشيد الدين سنان البصري، المعروف بشيخ الجبل، ليتولى إقليم النصيرية في بلاد الشام، فتوجه إلى حلب متنكرًا بزي الدراويش، وبقي فيها عدة أشهر، ثم تنقل بين قلاع الإسماعيلية حتى استقر في مصيان.

وقد كان صلاح الدين محل نقمة هؤلاء وكراهيتم، لأنه أسقط الخلافة الفاطمية، لذلك تعاون رشيد الدين سنان مع الزنكيين والصليبيين للتخلص منه، والقضاء عليه، وكانت المحاولة الأولى عندما طلب منه سعد الدين كمشتكين في عام ٥٧٠هـ - ١١٧٤م، مساعدته لقتل صلاح الدين، وكان صلاح الدين قد توجه لحصار حلب، وعرض عليه كمشتكين أموالاً كثيرة ثمنًا لهذا العمل،

---

(١) المصدر السابق (جـ ٩، ص٧٢٨).

فأرسل رشيد الدين سنان جماعة من اتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي، فاكتشفهم أمير يدعى خمارتكين، فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين في وسط معسكره، وهجم عليه أحدهم لقتله، فقُتل قبل أن يصل إليه، واستبسل الباقون من الفدائيين في الدفاع عن أنفسهم، حتى قتلوا جميعًا مما يدل على تفانيهم في مهمتهم، واقتناعهم بها[1].

لم يتوقف رشيد عن محاولات اغتيال صلاح الدين رغم فشل المحاولة الأولى، بل زاد تصميمه، فأرسل في ذي القعدة ٥٧١هـ - أيار ١١٧٦م، جماعة من اتباعه يتنكرون في زي الجنود، فدخلوا المعسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب مع جند صلاح الدين، واختلطوا بهم يتحينون الفرصة لقتل صلاح الدين.

وفيما كان الجند مشغولون بحصار العدم، مرَّ صلاح الدين ونجيمه الأمير جاولي الأسدي، لتشجيع الجند على مواصلة القتال، فهجم عليه أحد الإسماعيلية وضربه بسكينة على رأسه، ألا أن صلاح الدين كان يلبس خوذته الحديدية فوق رأسه، فعاد الرجل وضربه على خده فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده، وحاول تعطيله، وهو مستمر في هجومه وضربه إلى أن أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثان على صلاح الدين، فتصدى له داود بن منكلان وقتله، ثم هجم فدائي ثالثًا لتنفيذ المهمة، فاعترضه الأمير على أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله، وخرج رابع من الخيمة هاربًا، فطارده الجند وقتلوه.

---

(١) «الفتح القسي في الفتح القدسي» للأصفهاني (ص١٨١)، و«الكامل» (جـ ٩) (ص٤٠٨).

تسبب هذا الحادث المفاجئ في اضطراب صلاح الدين، حتى أنه فحص جنوده جميعًا، فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقره، وحرص حرصًا شديدًا، واتخذ تدابير احترازيه صارمة.

وبالطبع فقد كان للحادث أثر في نفوس الجند، حتى أنهم توقفوا عن القتال أمام عزاز، وخاصة عندما أشيع أن صلاح الدين قد قتل[١].

وعلى سبيل الاحتراز الشديد ضرب حول سرادقه برجًا من الخشب، وقد أرسل القاضي الفاضل رسالة يطمئن الملك العادل أخي صلاح الدين يطمئنه فيه على أخيه، ويروى له تفاصيل الحادث الحقيقية، كانت هذه الأحداث كافية ليعرف صلاح الدين مدى ما وصلت إليه حركة الإسماعيلية الحشيشة، من دقة في التنظيم، وسرية وجرأة في عمليات القتل.

ولذلك فقد أعد صلاح الدين عدته لإزالة خطر هذه الحركة من طريقه الذي بدا واضحًا، فجهز حملة عسكرية في محرم عام ٥٧٢هـ - تموز ١١٧٦م، وهاجم حصونهم، وحاصر بعضها، وضربها بالمنجنيق، ثم اقتحمها جنوده، وقتلوا من بداخلها وخربوها، إلا قلعة مصياف التي ظلت تقاوم أسبوعًا، ثم اتفق الطرفان على البدء في إجراءات صلح بينهما، وقد وافق صلاح الدين على ذلك بعد أن دمر قوتهم، دراي الاستفادة ممن بقى منهم فيما - في اغتيال قادة الصليبيين، وبالفعل قتل سنان أمير صور الصليبي كونرا دمونتذيرات -، ولم يتمكن من قتل ريتشارد قلب الأسد[٢].

---

(١) «الروضتين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٣، ص٤١٠).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١، ص١٠٦).

ثانيًا ـ صلاح الدين والبيزنطيين:

كان الإمبراطور مانويل كوفين، من أكثر المعادين لصلاح الدين والمسلمين، وكان حليفًا للصليبيين، ولكن عندما تولى الإمبراطورية اندرد نيقوس كوفين في عام ٥٧٨هـ ـ ١١٨٢م، تغيرت الأحوال، وأقام علاقات قوية مع صلاح الدين نظرًا لمصلحته مع صلاح الدين، فقد كان عدوه الأول السلاجقة الذين دمورا الجيش البيزنطي في معركة ميريو كيفالون في أواخر عام ٥٧١هـ ـ ١١٧٦م، كما أن كراهية البيزنطيين للصليبيين اللاتين والإيطاليين لاستيلائهم على مقدرات واقتصاد بيزنطة، جعلت اندردنيقوس كوفين يتقارب أكثر مع صلاح الدين، وكان هذا التقارب يهدف إلى المحافظة على مصالحهما المشتركة المتمثلة بمقاومة اللاتين الصليبيين بشكل عام، والسلاجقة بشكل خاص، وقد نظر الضرب الأوروبي إلى هذا التقارب على أنه انتهاك لرابطة الدين من بيزنطة، وتحطيمًا للتقاليد، لأن الحروب بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي كادت تكون مستمرة منذ ظهور الإسلام، ومع ذلك اندر نيقوس كوفين وخليفته اسحاق الثاني انجيلوس، بدلاً لهذه السياسة، وتقربًا من صلاح الدين أكبر عدو للصليبيين، بل إنهما حاولا جاهدين أن يقضيا على الإمارات الصليبية في الشرق[1].

وسبق ذلك تقارب شخصي عندما نفى اندر دنيقوس كوفين، أنه عزله عن إمارة كليكية بعد عام ١١١٦م، فقد لجأ إلى دمشق، فأحسن نور الدين استقباله، وقد وضع اندر نيقوس كوفين أساسًا لهذه العلاقة عندما أرسل سفيره إلى صلاح الدين في عام ٥٨١هـ ١١٨٦م، يعرض عليه قيام تحالف بينهما على أسس أهمها:

[١] يبذل صلاح الدين الولاء لاندر نيقوس كوفين، نظرًا لأنه إمبراطور.

---

(١) «تاريخ الأيوبيين» د/ محمد سهيل طقوش، ط بيروت

[٢] يتعاون الطرفان ضد السلاجقة، وإذا تم الإستيلاء على آسيا الصغرى من السلاجقة، تضاف إلى أملاك الإمبراطورية.

[٣] يتعهد اندر نيقوس كوفيين ببذل المساعدة لصلاح الدين في نضال ضد الصليبيين في بلاد الشام.

ولكن قبل أن يقرر صلاح الدين الرد على هذه الشروط، خُلع اندرنيقوس كوفيين عن العرش في جمادى الآخرة عام ٥٨١هـ ـ أيلول عام ١١٨٥م، ثم قتل، وأصبح اسحق انجيلوس إمبراطوراً ١٨٥هـ ـ ١١٩٥م[١].

وقد رغب صلاح الدين في استمرار التقارب مع الإمبراطور اسحق الثاني، استجابة لرغبة الثاني، الذي رأى ضرورة الحفاظ على هذه العلاقة ليواجه أعدائه، وهم: النورمان في صقلية الذين هددوا العاصمة القسطنطية، والصليبيين في بلاد الشام، والسلاجقة في آسيا الصغرى، فأقر المعاهدة السابقة مع اندو نيقوس كوفيين، بعد أن عدَّل صلاح الدين في بعض شروطها بما يتفق وقوته ومكانته التي لا تضاهيها قوة البيزنطيين المنهارة[٢].

وقد أغضب هذا الاتفاق الصليبيين في الشرق، فعمد ريموند أمير طرابلس الصليبي، إلى القار القبض على الكيوس أخي الإمبراطور، وكان في طريقه من دمشق إلى القسطنطينة، حيث كان لا يزال ضعيفًا على صلاح الدين، وذلك أثناء مروره بعكا في عام ٥٨٢هـ ـ ١١٨٦م، ثم قام بإيداعه السجن.

استنجد الإمبراطور اسحق بصلاح الدين وحثه على مهاجمة الصليبيين، والضغط عليهم لإطلاق سراح أخيه، وهاجم في العام التالي جزيرة قبرص كي

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة» وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٣٥).

(٢) المصدر السابق.

يخفف الضغط عن صلاح الدين، غير أن القوات البيزنطية تعرضت للهزيمة، كما جرى تدمير الأسطول البيزنطي.

أما صلاح الدين فقد هاجم في تلك الأثناء مملكة بيت المقدس الصليبية مستغلاً الأحداث لتحقيق هدفه الأول، وهو ضرب الصليبيين، واستطاع صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس والمدن الساحلية، وأطلق سرح الكيوس الذي عاد إلى القسطنطينية.

وبعد أن انتصر صلاح الدين على الصليبيين، أرسل رسلاً إلى الإمبراطور البيزنطي، تحمل إليه الهدايا، ويخبره بما حققه من انتصارات ونجاحات، فاستضاف الإمبراطور رسول صلاح الدين في قصر وسط العاصمة، وجدد التحالف مع صلاح الدين[1]، ورد الإمبراطور برسالة مماثلة، واستقبل صلاح الدين الرسولين البيزنطيين في ذي القعدة ٥٨٣هـ - ١١٨٨م، بعد أيام عن دفع الحصار عن صور، بحضور أبنائه وموظفيه، وقد أشاد اسحق الثاني أنجيلوس في رسالته لصلاح الدين بما قام به من جهد في سبيل إطلاق سراح أخيه، والمرب له عن اقتناعه، وسأل صلاح الدين الرسولين عن أحوال الإمبراطورية، ولعل أهم خبر حملته البعثة، الإشارة إلى ما حدث في الغرب من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، لاستعادة بيت المقدس.

وقد كان صلاح الدين على علم بهذه الأنباء، فتبين له إخلاص اسحق الثاني، وقد شعر صلاح الدين واسحق الثاني بالإنزعاج من هذه الأنباء، وقد ضمن صلاح الدين ضمان مساعدة اسحق الثاني انجيلوس أثناء اجتياز الحملة من بلاده التي تعد ممرًا طبيعيًا للحملات البرية، لذلك أرسل مع الرسولين البيزنطيين

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص٢٤٧).

عند عودتهما رسلاً من قبله للتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي، بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين: الأيوبية والبيزنطية، للتصدى للفرد الصليبي، وكان من بين الهدايا التي أرسلها صلاح الدين إلى اسحق الثاني انجيلوس منبرًا لتذحيبه في مسجد القسطنطينية، مع اهتمامه بعمارته، والمحافظة على الشعائر الإسلامية في العاصمة البيزنطية، وأبدى اسحق الثاني انجيلوس رغبة في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس فلسطين[١].

وأرسل الزعيم الألماني فريدريك بربروسًا، رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي اسحق، يخبره أنه سيشارك في الحملة الصليبية الثالثة، وعزمه على اجتياز أراضيه، وطلب منه السماح له بالمرور، وتقديم ما يلزم للانتقال إلى الشاطئ الآسيوي، وفتح الأسواق أمام جيشه.

ولكن الإمبراطور البيزنطي ارتاب من نوايا الزعيم الألماني، وعندما احتل بربروسا مدينة فيليبوليس أرسل منها الرسل إلى القسطنطينية برئاسة أحد الأساقفة، لتنظيم أمر انتقال عساكره إلى آسيا الصغرى، ففجأ اسحق الجميع، وألقى برسل بربروسا في السجن، بهدف جعلهم رهائن، حتى يضمن حسن السلوك من جانب الألمان، أثناء اجتيازهم أراضيه، وصادر خيولهم وأمتعتهم، ومنحها لرسل صلاح الدين الذين كانوا آنذاك ما يزالون في القسطنطنية، وأرسل سفارة أخرى لصلاح الدين، متقربًا إليه، حتى أنه طلب منه أن يرسل بعثة من علماء الدين لإقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي في جامع القسطنطينية، وحرص صلاح الدين من جهته على الاستجابة لطلب الإمبراطور، فأرسل إمامًا وطائفة من المؤذنين والقراء لتلاوة القرآن، استبقل هؤلاء في القسطنطينية استقبالاً باهرًا، وأقيمت أول خطبة، وشهدها عدد كبير من التجار المسلمين ورحالتهم[٢].

---

(١) «النوادر السلطانية» لابن شداد (ص٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (ص٢٠٢).

وأما ضغط الألمان وتهديدهم قام اسحق بإطلاق سراح السفارة الألمانية، وتم عقد صلح بين البيزنطيين والألمان في أدرنه، وتهـديد الإمبراطور البيزنطي اسحق الثاني انجيلوس بتموين السفن، إذا اجـتاز الجيش الدردنيل لا البوسفور، وتزويده بالمؤن أثناء اجتيازه الأناضول.

وعلى الجانب الآخـر حرص اسحق على علاقـاته مع صلاح الدين، فكتب إليه يعتذر عن السماح لعبور فـريدريك بربروسا الأراضي البيزنطية، ويخبره بأن الجيـش الألماني لن يستطيع القـتال إذا وصل إلى الشـام، لأن ما تعـرَّض له من متاعب أثناء اجتـيازه آسيا الصغرى، وما تعـرضت له مؤنه من نقص، فقال في رسـالته: «وقـد ضعـفوا بحـيث إنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كـانوا ضعافًا بعد شدة كثيرة، ولا يقدرون ينفعون جنسهم، ولا يضرون نسبتك»[٢].

تفـهم صـلاح الدين مـوقف الإمبـراطور اسـحق، وغـادر الجـيش الألماني الأراضي البيزنطية، واجتاز أراضي سلاجـقة الروم، ودخل عاصمتهم تونية دون مقـاومة تُذكر، فتـلقى صلاح الدين تقارير عن سـيرهم، كان من بينهـا الرسالة الواردة من أُسقف أرمينية الصغرى، وصاحب قلعة الروم على الفرات، وهو من الذين انحازوا إلى جـانب صلاح الدين بسبب مـا يكنيه من الكراهية الأرمـينية الصغرى التي يحكمها بيت روبين الموالي للصليبيين[٣].

فكشف صلاح الدين على أن زعم اسحق الثاني انجليوس في رسالته الأخيرة الجيش الألماني أنه غـير دقيق، وفيـه طمس للحقائق، ولكن لم يكن أحـد سواء صلاح الدين أو اسحق يعرف مـا خبأه القدر لفردريك بربروسا، فـقد حال القدر

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لابن شداد (ص٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (ص١٩٢).

بينه وبين الوصـول إلى الشام، فعندمـا وصل إلى سهل سلوقـية في ٤ جـمادى ٥٨٦هـ ـ ١٠ خريران ١١٩٠م، وتجهز لعبور نهر كاليكادنوس، وهو نهر ينبع من شمال طرطوس، ويصب في البحر الأبيض، لـيدخل إلى مدينة طرطوس، بثغور الشام، نزل إلى حافة الـنه، وغرق في النهر لسبب غير مـعروف، وانتشل الجيش جثته، وتلى ذلك تفرق الجيش، وقد صُدم الصليبيين جميعًا لوفاته، وقال صلاح الدين: أن وفاته كانت خلاص للمسلمين ونجاتهم من شره[1].

وحاول اسحق الثـاني تأكيد موقـفه لصلاح الدين من الصليبـيين في رسالة شـفهـيـة في عـام ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م، وطلب من صـلاح الدين أن يجـعل له الأشراف على بيت المقدس، وأن يشترك معه فـي الهجوم على قونية، وهنا شعر صلاح الدين أن اسحق الثـاني لا يعمل لمصلحة المسلمين من خـلال جهوده في تحطيم جيش الألمان، ولكن الهدف هو مصلحـته ومصلحة بلاده، ورفض صلاح الدين طلبه في أنه لا يكون لمذهب من المذاهب السـيادة على بيت المقدس، ولـم يستجب لأي طلب طلبه منه.

ولما علم اسحق الثـاني بمفاوضـات صلاح الدين مع ريتشـارد قلب الأسد، وأنه ينوي أن يعيد إلى اللاتين الصليبـيين إدارة الكنائس في بيت المقدس، فأرسل إليه رسـولاً، وصل إلى بيت المقـدس في الأول من شهـر جمـادى الأولى عام ٥٨٨هـ ـ ١٥ أيار عام ١١٩٢م، واسـتقبله صلاح الـدين بعد يومين، ولـم تكن طلبات الإمـبراطور البيـزنطي سوى تكرار لما ورد من نصـوص في المعاهدة التي جرى الحديث عنها، وطالبـه بعقد تحالف، ثم القيام بحملة بحرية مـشتركه ضد جزيرة قبرص.

---

(١) «النوادر السلطانية» لابن شداد (ص٣٠٦).

رفض صلاح الدين هذه المقترحات، إلا أنه لم يشأ أن يقطع الاتصالات مع القسطنطينية، والإمبراطور البيزنطي اسحق، لذلك أرسل ابن البزار، من الديار المصرية، مع الرسول البيزنطي عندما عاد إلى بلاده، لمراجعتها مع الإمبراطور اسحق[1].

سافر ابن البزار وقد حمل الهدايا معه، برفقة السفير البيزنطي على متن سفينة تابعة للبندقية، إلا أنهما لم يصلا إلى العاصمة البيزنطية بسبب تعرض السفينة لقرصان البحر التابع لأهالي جنوده والبيازنة، ثم وفاتهما، وتوقفت علاقة صلاح الدين مع اسحق الثاني انجيلوس عند هذا الحد.

وقد حاول البيزنطيون كل هذه المحاولات السابقة، لاستخدام قوة صلاح الدين والمسلمين لضرب أعدائهم من كل صول وملة، سواء أكانوا سلاجقة، أو نورمان أو جنوبيين، ولم يستطع اسحق الثاني الوفاء بالتزاماته لصلاح الدين، لضعفه وضعف قواته، وقد ا كتشف صلاح الدين ذلك أخيرًا، وكانت القوة الألمانية قد ضعفت، فأصبحت بيزنطة غير ذي قيمة عند صلاح الدين، وفي الوقت نفسه لم ينجح البيزنطيون في استلاب ما لهم من صلاح الدين، وقد فشل في النهاية التقارب الأيوبي البيزنطي في عهد صلاح الدين ولم يحقق شيئًا.

---

(١) المصدر السابق (ص٣١١).

الصراع الأيوبي الصليبي في عهد صلاح الدين

بدأ الصراع بين الأيوبيين والصليبيين مبكرًا، بدءًا من عام ٥٧٠هـ - ١١٧٤م، وقد استمرت هذه المرحلة اثنى عشر عامًا، كان صلاح الدين الأيوبي غير مستعد للدخول في معارك جهاد واسعة ضد الصليبيين، فقد ظل يعمل لتأمين دولته، وتوحيد أركانها، وتحويلها من قوى صغيرة وإمارات متناثرة في بلاد الشام وشمالي العراق إلى دولة واحدة متماسكة، ولم تكن اشتباكات صلاح الدين مع الصليبيين خلال هذه الفترة إلا لحماية أملاك المسلمين من اعتداءاتهم، وضرب الحركات الإنفصالية التي تساعد الصليبيين، وتطويقها، ومنعها من التحالف معهم ضد إخوانهم المسلمين.

وحماية طرق تجارة المسلمين، وجيوشهم من اعتداء الصليبيين، وقد احتل الدور السياسي دورًا سياسيًا في هذه المرحلة التي امتدت من عام ٥٧٠هـ - ١١٨٠م، والمعاهدة الثانية مع ريموند الثالث أمير طرابلس في عام ٥٨١هـ - ١١٨٥م، وقد ادت هذه المعاهدات دورًا مهمًا في شق الصف الصليبي، والتفرقة بينهم، والمساهمة في إضعاف قوتهم، وذلك من خلال الحنكة السياسية التفاوضية لصلاح الدين.

أما المرحلة التالية فقد بدأت بعد توقيعه المعاهدة بينه وبين الموصل، وقد حددها المؤرخون من عام ٥٨٢هـ-٥٨٨هـ - ١١٨٦-١١٩٢م، وقد جاءت هذه المرحلة بعد أن وحد صلاح الدين الجبهة الإسلامية، وكانت هذه المرحلة مرحلة انتصارات هامة، تحدث عنها التاريخ العربي الإسلامي بفخر شديد، وتحدث عنها المؤرخون الغربيون بحزن وأسى، وقد تصاعد الصراع تدريجيًا كما يلي[١]:

---

(١) «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» (ص٥١).

أولاً ـ في مصر:

كان صلاح الدين منذ أن تولى الوزارة في مصر، كان مشغولاً بترتيب أوضاع الجبهة الإسلامية، وكان يعلم تمام العلم أن مصر هدف رئيسي بعد بلاد الشام، للحملات الصليبية، وقبل أن يتحرك إلى الشام، اهتم صلاح الدين بإنشاء ثغور بحرية في مصر، وأنشأ سلسلة من التحصينات في القاهرة، ولما رأى أن لكل من القاهرة والفسطاط سور منفصل، رأى أن يطوقهما بسور واحد لتسهيل عملية الدفاع عنهما بحامية واحدة، وأدخل في هذا السور القطائع والعساكر، وبنى قلعة في الوسط عند مسجد الدولة على جبل المقطم، تكون مركزًا للحكم، وملجأ يحتمى به إذا هدَّدته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي يجيء من الصليبيين، وحفر حول السور خندقًا في بعض أجزائه، وبئرًا يضمن لمن في الداخل الحصول على الماء، وبنى جسرًا على النيل في منطقة الجيزة بهدف عبور عساكره في أي وقت، وبرجًا لقلعة في شمالي القاهرة الذي كان يعرف بأم رنين، ثم عرف باسم قلعة المقس أو قلعة قراقوش، وقد أشرف بنفسه على بناء هذا البرج أو القلعة[١].

ولم تقتصر اهتمامات صلاح الدين على القاهرة فقط، وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانئ المصرية التي كانت محط أنظار الصليبيين، وبخاصة مينائي دمياط والإسكندرية، وقد كان صلاح الدين يتفقد بنفسه أعمال التحصينات منهما، ومن ذلك أنه بنى برجين في دمياط ربطهما بسلسلة ضخمة من الحديد لمنع دخول السفن المعادية إلى الميناء، ورتب عليهما المقاتلين، وطوقهما بسور وخندق[٢].

---

(١) «الخطط» للمقريزي (جـ ٤، ص٦٨).

(٢) المصدر السابق.

وكذلك قلعة تنيس المجاورة لبر دمياط، والتي كانت مشهورة بمينائها التجاري، وقد تعددت غازات الصليبيين عليها، حتى أمر بإخلائها من السكان، ونقل سكانها إلى دمياط، وجعلها ثغرًا من ثغور الحرب والقتال فقط[1].

واهتم صلاح الدين أيضًا بالإسكندرية، فاشرف بنفسه على ترميم أسوارها، وأمر بتجديد الأسطول البحري، وأفرد له ديوانًا خاصًا، عُرف بديوان الأسطول، مهمته الإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها، ودفع نفقة العاملين عليها[2].

واهتم صلاح الدين بمراقبة السفن التي تدخل الميناء، والتي تخرج منه، بواسطة مراقبته، خصصوا لهذا الغرض أطلق عليهم اسم «أمناء»، كما وضع الأجناد البطالين في الثغور والسواحل[3].

ثانيًا ـ في الشام:

أثر وفاة عموري الأول، ملك بيت المقدس على الصليبيين، كان عموري الأول ملك بيت المقدس شخصية قوية لها خطرها على الجانب الإسلام، وكان رجلاً صاحب خبرة وتجارب في الحكم، كما أنه كان من أكثر الزعماء الصليبيين قدرة على الاستفادة من ظروف المسلمين التي احاطت بهم بعد وفاة نور الدين محمود، وقد توفى الملك عموري الأول في ٨ ذي الحجة عام ٥٦٩هـ ـ ١١ تموز عام ١١٧٤، فخسر الصليبيون بوفاته شخصية قوية، ومروا بعد وفاته مجالة من الضعف، بل إن وحدة صفوفهم تعرضت للتفسخ، ذلك أن بلدوين الرابع الذي

---

(١) المصدر السابق (جـ ١، ص٣٣٤).

(٢) «السلوك في معرفة الملوك» للمقريزي (جـ ١، ص١٨٦)، ط: العلمية.

(٣) المصدر السابق.

خلف أباه عموري الأول المتولي، كـان صغير السن في الثالثة عـشرة من عمره، وعلى الرغم من أنه تمتع بمواهب عالية، ومقدرة كبيـرة، وحيوية نشاط كبيرتين، إلا أنه كان مريضًا بالجذام (البرص)، مما جعلهم يلقبونه ببلدوين المجذوم[١].

وكان بحكم مرضه، ضعيف البنية، كثير الأوجاع والعلل، أما أخته إيزبيلا، التي تكبره بسنة واحدة، فلم تكن متزوجة بعـد، ونظرًا لصغر سنه ومرضه، فقد اضطر في أوقات كثيـرة، إلى السماح لإمرأته بتسيـير أمور المملكة، الأمر الذي جعل قيادات كثيرة دينية وإقطاعية، تدخل في منافسات مع بعضها البعض، لكي تفوز بالوصـاية عليه، وانتهى أمـر المنافسة بفـوز مايلزبلانسي، صديق عـموري الراحل بالوصاية.

وكان مايلز سيدًا ورثيًا لإقطاع مـا وراء نهر الأردن، فاستأثر بشؤون الحكم، ولكنه لم يكن مـقبـولاً لكبره ولعـجرفـته، ومن مـسالبـه أنه كان قليـل الحذر مندفعًا[٢].

ولكن مايلز وجد من يواجه ويحيك ضده هذه المؤامرات، فقد عارضه حاكم طرابلس ريموند الثالث، والقيادات التي عانت من تكبره وعجرفته واندفاعه، فقتل في ٥٧٠هـ ـ ١١٧٤م، بعد مؤامـرة حيكت ضده، وأصبح ريموند الثـالث وصيًا على مملكة بيت المقـدس، وملكها الصغـير بلدوين الرابع، وأضـحى الشخصـية القوية المتمكنة، فهو وصي على الملك، ومتولي إمر طبريه والجليل.

كان صـلاح الدين آنذاك في مـصر يتطلع إلى بلاد الشـام، وتوحيـدها مع مصر، وقد انقسم الصليبيون على أثر وصاية ريموند الثالث إلى قسمين:

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» وليم الصوري (جـ ٢، ص٩٧٢)، تحقيق: سهيل زكار.

(٢) المصدر السابق (جـ ٢، ص٩٧٤).

• أمراء يسعون إلى التفاهم مع المسلمين، والبعد عن المحازنة والمخاطرة، ومنهم: الأمراء الوطنيين، والاستبارية الذين خضعوا لقيادة ريموند الثالث.

• وأمراء متشددون، متعصبون لنصرانيهتم، وهم: الداوية، والقادمون حديثًا من بلاد الغرب، وقاد هذا التيار رينولد شاتوت الذي كان مأسورًا لدى المسلمين واطلقوا سراحه، ومعه جوسلين حاكم الرها[١].

وفي هذه الأثناء كبر بلدوين الرابع ونضج، فاتخذ سياسة متوازنة بين الفريقين.

■ ■ ■

الصراع العسكري قبل حطين

حاول ريموند الثالث أن يحد من قوة صلاح الدين، وأن يمنعه من ضم حلب، وقد بدأ الصليبيون شن غاراتهم على أملاك صلاح الدين، مستغلين فرصة انشغاله مع الزنكيين، ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق نتائج ملموسة كما سنرى:

ومن هذه الغارات ما حديث في المحرم من عام ٥٧١هـ ـ آب عام ١١٧٥م، عندما انتهز الملك الصليبي بلدوين الرابع فرصة انشغال صلاح الدين في شمالي بلاد الشام، فغزا إقليم دمشق، ولكن صلاح الدين كان هادئًا لا يريد تسخين جبهة الصليبيين، فجدد الهدنة مع مملكة بيت المقدس[٢].

وفي العام التالي نقض الصليبيون الهدنة، فيما كان صلاح الدين مشغولاً بالصراع مع الزنكيين، فأغار ريموند الثالث طرابلس على إقليم البقاع، حيث زحف جيش الملك الصليبي بقيادة الملك وهمضري سيدتبنين، وفي البداية تعرض ريموند الثالث للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك، فاتخذ الجيشان الصليبيان

---

(١) «الفتح القسي» عماد الأصفهاني (ص٢٠١). (٢) «الكامل في التاريخ» (جـ ٩، ص٤٢٢).

معًا، واصطدما بأخي صلاح الدين شمس الدين توران شاه حاكم دمشق من قبل أخيه صلاح الدين، عند منطقة عنجر في البقاع، وكان قد أخره لنجدة بعلبك، ولم يحسم القتال في هذه المنطقة لصالح أي من الطرفين.

فجاء صلاح الدين من الشمال، فانسحب الصليبيون من المنطقة، ولكن صلاح الدين لم يتعقبهم، وفضل العودة إلى مصر تاركًا أخاه توران شاه في دمشق[١].

ثم توقف القتال لمدة عام كامل، حاول كل طرف من الطرفين ترتيب أوضاعه والاستفادة من فترة التوقف، فمن جهة صلاح الدين فقد حرص على إعادة تحصين مصر.

أما مملكة بيت المقدس الصليبية، فقد واجهت مشاكل بسبب الوصاية على العرش والصراع على الوصاية على الملوك الصغار، وفي هذه الأثناء ترامت الأنباء وترددت الشائعات أن لويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك انجلترا، قررا القيام بحملة صليبية، وذلك أرسل الإمبراطور البيزنطي مانويل كوفين، سفيره إلى بيت المقدس يعرض على الملك بلدوين الرابع إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، كما وصل إلى عكا، أسطول بيزنطي مؤلف من سبعين سفينة[٢].

ولكن تردد الصليبيين ضيع عليهم هذه الفرصة، وإفاد صلاح الدين، فقد كان بإمكانهم ضرب صلاح الدين في مصر، حيث أنه كان ضعيفًا في الشام، لم يثبت أقدامه بعد في شمالي بلاد الشام.

وعاد الصليبيون إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين في بلاد الشام.

واستهلوا ذلك عقب مغادرة صلاح الدين بلاد الشام في عام ٥٧٢هـ، عائدًا إلى مصر بعد أن عقد الصلح مع الملك الصالح إسماعيل أمير حلب[٣].

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة» وليم الصوري (جـ ٢، ص٨٨٦).
(٢) المصدر السابق (ص٩٩٤).
(٣) «الفتح القسي» للاصفهاني (ص٢٣١).

كان بلدوين الرابع قد انتهز الفرصة، وطلب من فيليب الألزاسي بضرورة التعاون معه لضرب القوات الإسلامية المتمركزة على الحدود الشرقية لإمارتي الرها وطرابلس، فوافق الأمير على طلبه، ثم غادر بيت المقدس في شهر ربيع الآخر عام ٥٧٣هـ ـ نهاية شهر تشرين الأول عام ١١٧٧م، متوجهًا إلى الشمال لمساعدة كل من ريموند الثالث صاحب طرابلس، وبوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، بناءًا على طلبهما، وأمده الملك بمائة فارس، وألفين من المشاة[1].

وأغارت كتيبة من الجيش على بلاد حمص، فوقعت في كمين كل ما حصلت عليه من غنائم، بينما أغار كل من فيليب وريموند الثالث بقواتهما على حماة، التي كادت أن تسقط لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنهما، وارتدا خائبين بعد حصار دام أربعة أيام، دون أن يحققا شيئًا[2].

يبدو أن هذه الأخبار وصلت لصلاح الدين، فذكرها في كتابه المرسل إلى الخلافة في بغداد الذي قال فيه: «خرج الكفار إلى البلاد الشامية، فاسخين لعقد كان محكمًا، غادرين صريحًا، مقدرين أنا يجهزوا على الشام، لما كان بالجدب جريحًا، ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى»[3].

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة» (جـ ٢، ص٩٩٦).
(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٢٩).
(٣) «الروضتين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٢، ص٤٧١).

الإغارة على حارم

كانت حارم مدينة تقع شرقي نهر العاص على بعد إثنى عشر ميلاً من انطاكية، وقد طلب أمير أنطاكية بوهيموند الثالث من فليب الألزاسي أن يشن هجومًا على مدينة حارم، ووعده ببذل المساعدة، فتوجه فيليب إليها بصحبة ريموند الثالث، وكانت آنذاك تحت حكم كمشتكين - الأتابك السابق للملك الصالح إسماعيل -، وقد سادها الاضطراب الداخلي بسبب مساندة أهلها لكمشتكين الذي كان على خلاف مع الملك الصالح إسماعيل[1].

حوصرت حارم على يد الصليبيين في أوائل شهر جمادى الآخرة - شهر تشرين الثاني، فتناسى أهل حارم خلافاتهم، وقاوموا الحصار الذي استمر أربعة أشهر، وكانت مقاومتهم باسلة، في الوقت نفسه أخذ الحلبيون يشنون غارات على الأراضي الصليبية القريبة، وأرسل الصالح إسماعيل، فرقة عسكرية اجتازت خطوط الصليبيين، وانضمت إلى حامية المدينة[2].

وخرج صلاح الدين في هذا الوقت، من مصر ليهاجم مملكة بيت المقدس الخالية ممن يحميها، فخشى الصليبيون أن يستنجد الحلبيون به، كما غرموا على مساعدة مملكة بيت المقدس، لكن الملك الصالح إسماعيل فاوضهم على فك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال، كما أنذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين، فقاموا بفك الحصار، وفشلوا في الإستيلاء عليها[3].

---

(١) «تاريخ الأعمال» وليم الصوري (جـ ٢، ص٩٩٧).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٣١).

(٣) «تاريخ الأعمال» وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٠٥).

معركة الرملة

أراد صلاح الدين أن يفاجيء الصليبيين من الساحل إلى داخل فلسطين لتخفيف الضغط على حارم، فخرج من القاهرة يوم الجمعة، من جمادى الأولى عام ٥٧٣هـ - ٢٩ تشرين الأول عام ١١٧٧م، وعسكر بظاهر بلبيس، ثم توجه إلى عسقلان في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى - ٢٤ تشرين الثاني، واستولى عليها وقتل عددًا من الصليبيين، لأنهم بهجومهم على مدينة حارم نكثوا عهدهم معه[١].

فنهض بلدوين الرابع للدفاع عن عسقلان رغم مرضه، وحشر كل ما يستطيع حشده من الجنود، فقد حشد أكثر من خمسائة فارس، وصحبه أسقف بيت لحم، يحمل صليب الصلبوت، ودخل عسقلان على الفور، فاستغل صلاح الدين خطأه هذا، فحاصره داخل أسوارها، ومن ثم أصبحت مملكة بيت المقدس دون ملك أو جيش[٢].

واستغل صلاح الدين هذا الحصار، وسار باتجاه بيت المقدس بعد أن ترك قوة عسكرية على حصار عسقلان، إذ لم يكن من الأعداء ما يحول بينه وبينها، وأغار على المدن والتحصينات القريبة، ثم هاجمت قوة إسلامية بقيادة عز الدين جالولي الرملة وأحرقتها، كما هاجمت اللد، وهي قريبة قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين، ووصلت إلى ساحل البحر في أرسوف، وهي مدينة بين قيسارية ديانا، ووصلوا إلى نابلس أيضًا[٣].

---

(١) «الفتح القسي» للأصفهاني (ص٢٥٤).

(٢) «تاريخ الأعمال المنجزة» وليم الصوري (جـ ٢، ص٩٩٨).

(٣) المصدر السابق (جـ ٢، ص٩٩٩).

بعد هذا التـقدم والنجاح أصـبح صلاح الدين أكثـر وثوقًا في جنده، وأقل حذرًا، فحدث استرخاء في جنوده، فتفرغوا لجمع الغنائم، وتفرقوا هنا وهناك.

استـغل (بلدوين الرابع) هذه الحـالة، وشق له طريقًا إلى خـارة عسـقلان، وأرسل إلى الداوية في غـزة بأن يلحقـوا به، وأخذ السـاحب طريقًا وخط سـير حتى وصل الرملة، ثم انحرف إلى الداخل، وكان (رينولـد شابتون) في صفوف جنده، واعتـرض صلاح الدين نهر تـل الصافيـة على مسافـة بضعة أمـيال إلى الجنوب الشرقي من الرملة، فتفرقت قواته تبحث عن مكان صالح يعبرون منه، وكثرت مشاوراته مع بعض قادته بإحداث تغيير في خطط تعبئة جيشه.

وفي وسط كل هذا فاجـأ الصليبـيون صلاح الدين وقـواته، وهم على هذا الحال من الشتات والارتباك، وتفرق القوات هنا وهناك، فاضطر صلاح الدين أن يقاتل الصليبيين بمن معه من الرجـال، فحلت به الهزيمة قبل أن يتمكن من تنظيم قواته وترتيب صفوفه[1].

كانت مبالغة الصليبيين وعدم حذر الأيـوبيين، سببًا في ارتفاع خسائرهم، فقد كانت القوات الأيوبية قليلة العدد، والبقـرية في حالة استرخاء وتفرق، وقد وصل الأمر إلى حد تعرض حياة صلاح الدين نفسـه للخطر، لولا شجاعة حرسه الخاص من الغلمان، وقد أبيـد معظم جنود صلاح الدين الذين حمدوا في القـتال، وأسر الصليبيون ما بقى منهم، فعاد صلاح الدين إلى مصر مهزومًا سيىء الحال[2].

توصل صلاح الدين بعـد هذه التجربة المريـرة، والهزيمة الثقـيلة إلى قناعة، وهي أنه لابد من توحيد صفوف المسلمين، وتجهيز قوتهم الضاربة قبل أي تفكير في مواجهة الصليبيين والاصطدام بهم.

---

(١) «الفتح القسي» للعماد الأصفهاني (ص٢٥٧).
(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩) (ص١٤٢).

وفي سبيل علاج صلاح الدين لآثار هذه الهزيمة، اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات، أهمها:

- إعادة تعبئة الجيش، بل وتجهيز جيش قوي قادر على القتال.
- أعاد الصمود إلى جبهته، بإصراره على الثأر من الصليبيين.
- وزع الأموال الكثيرة على الناس الذين أصيبوا بالضرر، مما أكسبه رضى المصريين، فقطع الطريق على أعداء الداخل.
- وعاقب المقصر وخاصة جماعة من الأكراد لسوء مشورتهم.
- أسرع بطمأنة أهل الشام على سلامته عقب وصوله إلى مصر، مما بث روح الطمأنينة والأمان بين الناس.

لم تمض فترة طويلة حتى استطاع إعادة تعبئة جيشه، وتنظيمه، والعودة لمهاجمة الصليبيين.

الصليبيون بعد موقعة الرملة:

أما الصليبيون .. فقد فرحوا بهذا النصر، وإن لم يغير على أرض الواقع شيء من حيث أحوالهم الداخلية والخارجية.

وقام (بلدوين الرابع) بتوزيع الغنائم على رجاله، وطارد فلول القوات الإسلامية حتى عسقلان، ثم عاد إلى بيت المقدس، ولكنهم لم يقوموا بمطاردة صلاح الدين إلى داخل حدود مصر، ولم يخاطر بقواته سواء في اتجاه الجنوب إلى مصر، أو في اتجاه الشمال إلى دمشق.

ولكن نظرًا للثقة التي حصل عليها الصليبيون من معركة الرملة ونتائجها، فإنهم هاجموا إقليم حماة، ثم هاجموا منطقة شيزر[١].

---

(١) المصدر السابق (جـ ٩، ص٤٣٥).

وفي الجنوب قام (بلدوين) بعدة تحصينات على حدوده في الجليل الأعلى، وذلك لمواجهة أي هجوم قد يأتي عن طريق دمشق، وشيد حصنًا جديدًا قرب بانياس عند جسر بيت يعقوب في مكان يعرف بـ «مخاضة الأخران»، وذلك في شهر جمادى الأولى عام ٥٧٤هـ ـ تشرين الأول عام ١١٧٨م، وقد ذكر المؤرخون أن هذا الحصن تمتع بموقع استراتيجي وعسكري كبير، نظرًا لأنه يقع على الطريق بين طبرية، وصفد من ناحية، وطبرية بلدة مطلة على بحيرة طبرية المعروفة، وهي في طرف الجبل، كما أن صفد مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وهي من جبال لبنان(١)، وبين دمشق من ناحية أخرى.

وقد انزعج أمراء صلاح الدين من هذا الحصن، وقالوا: متى أحكم ذلك الحصن، تحكم من الثغر الإسلامي الرهن، وغلق الرهن(٢).

وفي العام التالي بنى (بلدوين) حصنًا آخر في هونين إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة، يتحكم في منابع النهر، نهر الأردن العليا، أي: في مواجهة بانياس، وكسب الصليبيون حصنين على قدر كبير من القوة، لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق.

ويذكر المؤرخون(٣): أن هذه المنطقة كانت آهله بفلاحين ورعاة من المسلمين والنصارى الشرقيين.

---

(١) انظر: «معجم ياقوتش (جـ ٤، ص١٧)، (جـ ٣، ص٤١٢).

(٢) «تاريخ الأعمال» وليم الصوري (جـ ٢) (ص١٠٠٨).

(٣) «مصر والشام في عصر الأيوبين والمماليك» سعيد عبد الفتاح عاشور (جـ ٢، ص٧٦١).

عودة صلاح الدين للشام

بعد مرور عـدة أشهر من وصول صلاح الدين إلى مـصر، على أثر الهزيمة في معـركة الرمل، عـاد صلاح الدين إلـى دمشق في ٢٤ شـوال عام ٥٧٤هـ ـ نيـسان عام ١١٧٩م، وقـد أعد عـدته وتجاوز كـبوته، وأضـحى كل شيء تحت سيطرته، وأمضى بدمشق بقية أيام السنة، تخللتها غارات ومنافسات بسيطة.

وفي هذه الأثناء كان صلاح الديـن قد طلب من ابن المقدم (محمـد بن عبد الملك) حاكم بعلبك، بأن يتنازل عنها لصالح أخـيه توران شاه، ولكن ابن المقدم رفض، فحاصـر صلاح الدين بعلبك، وانشغل صلاح الدين أيضًا بأمـر حصون الصليبيين التي بُنيت، ومنـها حصن «مخاضة الأخران»، فـقال لأمرائه: «إذا أتم الصليبيون بناء هذا الحصن، نزلنا عليه وهدمنا إلى الأساس»[1].

واستطاع صلاح الدين السيطرة على بعلبك، ثم تفرغ للحصن، فأرسل إلى الصليبـيين أن يهدمـوه، فطلبوا مقـابل ذلك النفقـات التي بذلوها في تشيـيده، فـعرض عليـهم مبلغـًا من المال قدره سـتين ألف دينار، ثم رفع المبلغ إلى مـائة ألف، ولكنهم رفضوا ذلك[2].

بدء الانتصار عن قلعة ثقيف أرنون

قلعة ثقـيف أرنون، قلعة حـصينة في كهف مـن الجبل قرب بانيـاس، وقد حدث في شـهر ذي القعدة عـام ٥٧٤هـ ـ شهر نيسـان عام ١١٧٩م، أن هاجم (بلدوين الرابع) الرعاة المسلمين الذين خرجوا لرعي ماشـيتهم في المراعي القريبة

---

(١) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص٧٢).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩) (ص٤٣٩).

من بانياس، وشاركه (همفرى دي تورون سيد تبنين)، فأرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة ابن أخيه (عز الدين فروخشاه) ليستطلع الأمر، فاشتبك مع العدد بالقرب من ثقيف أرنون، وانتصر عليه، وقد نجا الملك (بلدوين الرابع) من الموت أو الأسر، بفضل بسالة همفري الثاني، الذي جرح في المعركة، وتوفى بعد ذلك متأثرًا بجراحه، وقد عد المؤرخون الصليبيون أن وفاته كانت من أكبر الخسائر وأفدحها على الصليبيين، وعندما علم صلاح الدين بنبأ هذا الانتصار ما خرج لحصار بيت الأخران، ولكنه اكتفى بمهاجمة حراس الحصن وحاميته، ثم عاد عنه بعد أن رأى متانة استحكاماته الدفاعية، ثم عسكر عند تل القاضي في سهل مرجيون غربي بانياس[١].

معركة تل القاضي

بدأ صلاح الدين إطلاق الغارات على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدًا وبيروت، وهو في مكانه بتل القاضي، وقد غضب (بلدوين الرابع) من هذه الغارات، فبدأ يعد العدة لمواجهة هذه الغارات الإسلامية، ثم دعا (ريموند الثالث) أمير طرابلس لمساعدته، وخرج لمواجهة المسلمين بعد أن علم بأن (فروخشاه) ابن أخى صلاح ا لدين عائد من الساحب بغنيمة كبيرة، فتحرك نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطالي، والمجرى الأعلى لنهر الأردن، غير أن صلاح الدين شاهد تحركه، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه، كان (ريموند الثالث) والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن.

---

(١) «تاريخ الأعمال المنجزة» وليم الصوري (جـ ٢، ص١١١٣).

بدء المعركة:

وعند مدخل الوادي فاجأوا صلاح الدين، فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على النور، ولكن صلاح الدين صمد في المعركة، ونفذ خططًا عسكريًا جعلته يقوم بهجوم مضاد ناجح يدمر قوة عدوه الرئيسة، فانهزم الصليبيون وولوا الأدبار، ثم لاذوا بالفرار، ووقع كثير منهم في الأسر، وكان من بين الأسرى مقدم الداوية (أودوسانت أماند)، (دبلدوين) سيد الرملة، وهو صاحب الجليل[١].

وقد حدثت هذه المعركة في أوائل عام ٥٧٥هـ - صيف عام ١١٧٩م، وكان بإمكان صلاح الدين أن يستثمر هذا الانتصار الحادث بمهاجمه بيت المقدس، لكنه ظن أن باستطاعة (بلدوين الرابع) ملك الصليبيين جمع قواته، والتفاهم حول مما يجعل لهذه الفكرة مخاطر غير محسوبة العواقب، وخاصة أنه في هذه الأثناء وصلت إلى مملكة بيت المقدس مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة (هنري الثاني دي شامبانيا)، مما رفع معنويات الصليبيين، وأنعش آمالهم في النصر[٢].

غير صلاح الدين اتجاهه، وقام بمهاجمة حصن بيت الأخران القوي في شهر ربيع الأول - شهر أيلول من نفس العام، وحاصر الحصن بقوة لمدة خمسة أيام، ثم قام باقتحامه، ونفذ خطته بتدمير الحصن، وتسويته بالأرض.

ثم أغار صلاح الدين على المناطق الساحلية، وهي صور، وصيدًا، وبيروت، وهاجم اسطول صلاح الدين البحري مدينة عكا، ودمر السفن الراسية فيه

---

(١) المصدر السابق (ص١٤ ١)، وانظر «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٣٩)

(٢) «تاريخ الأعمال» وليم الصوري (جـ ٢، ص١٤ ١)

ارتفعت خسائر الصليبيين، وأنزعج (بلدوين الرابع) من هذه الانتصارات للمسلمين، فلم يجد أمامه إلا طلب الهدنة، وبالفعل وافق صلاح الدين على طلب (بلدوين) عقد هدنة بينهما، لاعتبارات خاصة لديه، ومنها:

[١] أنه أراد أن يضم حلب إلى سيطرته قبل أن يوجه ضربة حاسمة إلى الصليبيين، وفي الوقت نفسه يتقي شهر هجمات الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب.

[٢] ومن هذه الاعتبارات أيضًا: عقبة في القيام بحملة على أرمينية.

[٣] أن يبني علاقة مع (قلج أرسلان الثاني) سلطان سلاجقة الروم، تجعله في معسكره أو على الحياد بينه وبين الصليبيين.

[٤] أن يتفرغ لمهاجمه إمارة طرابلس، وقد وصلته أنباء بأن هناك اتصالات بين الصليبيين والبيزنطيين لتجديد التحالف بينهما.

وقد هاجمه أسطول انطرطوس، وهي بلد على سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية[١]، وفتح جزيرة في البحر قرب القسطنطينية، يُقال لها: أرواد، فاضطر (ريموند) إلى عقد هدنة معه، وطلب الانضمام إليه وجعله من أتباعه، وذلك بسبب خلافاته داخل مملكة بيت المقدس، والتي انتهت إلى اقصائه، وطرده من حكم المملكة[٢].

أما (بلدوين الرابع) . . فقد أصبح منهكًا متعبًا، وكذلك جنوده بسبب كثرة الاصطدامات بينه وبين صلاح الدين، ولذلك فإنه سعى إلى الهدنة لحاجته إليها في تنظيم صفوفه، ومخاطبة حلفاء جدد، وقد تحددت مدة الهدنة بينهما بسنتين.

---

(١) ياقوت الحموي «معجم البلدان» (جـ ١، ص٢٧٠).
(٢) ابن الأثير (جـ ٩، ص١٥١).

ويتبين من ذلك أن الفترة التي سبقت الهدنة، كانت هدفها الإمارة على الصليبيين، والموافقة على الهدنة لبناء الصفوف الإسلامية وتوحيدها[١].

الوضع داخل الإمارات الصليبية:

في الفترة الواقعة ما بين سنتي ٥٧٨-٥٨٢هـ، كانت أحوال مختلف الإمارات الصليبية تسوء بشكل متماد.

والواقع أن انتصارحطين الذي سنتحدث عنه يعود إلى تراجع مملكة بيت المقدس الصليبية تراجعًا شديدًا ومتواصلاً بدءًا بجهاد (عماد الدين زنكي) وابنه (نور الدين محمود)، إلى أن وصل هذا التراجع إلى عهد صلاح الدين، فقد ظلت خلافات الأمراء الصليبيين مستمرة في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يستعد عسكريًا وسياسيًا للمعركة الفاصلة مع الصليبيين.

ونصل إلى بداية السنوات الأربع من ٥٧٨هـ-٥٨٢هـ، فقد كان ملك مملكة القدس مريضًا بالجذام، وبدأ المرض يتفاقم ويشتد عليه، وحين حاول أمير أنطاكية (برهيمند الثالث) بالاشتراك مع (ريموند الثالث) صاحب طرابلس زيارة القدس ٥٧٦هـ - ١١٨٠م، دون موعد سابق تشكك في أمرهما، وظن عن أنهما يتآمران على عرش المملكة ومنعهما، مما فصم العلاقة الراسخة بين إمارتي طرابلس والقدس، والتي تأسف المؤرخ الصليبي وليم الصور على انفصامهما، لأن صاحب طرابلس كان شجاعًا، وصاحب رأي، وخسرت المملكة معونته[٢].

والأمر الأخر يعود إلى وراثة العرش، وخاصة عندما تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع، وكانت وراثة العرش لأخت الملك الأميرة (سبيلا)، بعد أن توفى

---

(١) «صلاح الدين في مصر وبلاد الشام والجزيرة» د/ عبد القادر نوري (ص٢٨٢).
(٢) «صلاح الدين الفارس المجاهد» د/ شاكر مصطفى.

زوجها (وليم مونتفيرات)، وكان لابد من اختـيار زوج آخر للأميرة (سبيلا) بعد وفاة زوجها (وليم مـونتفيرات)، فزوجوها من (جاي لوزيتـان) أصغر أبناء نبيل فرنسي ضئيل الشأن، لم يتحل بصفات الفروسية أو الحكمة في معالجة الأمور، وتم زواج (سبـيلا) من (جـاي لوزيتان) في عام ٥٧٦هـ-١١٨٠م، وحاز على إمارتي يافا وعسقلان إقطاعًا له[١].

وقد عـهد إليه المـلك ف عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م، بالوصاية علـى الفوس بناءًا على إلحاح والدته (اغنيس دي كورتناي)، وأختـه (سبيلا)، والبطريرك (هرقل)، فأضـحى (جاي) يسـيطر سيطـرة تامة على المملكة، باسـتثناء بيت المقـدس التي احتـفظ بها الملك لنفـسه، وقَبِلَ أمـراء المملكة مكرهين على ما اتـخذه الملك من قرارات[٢].

ولما بدا صلاح الدين في مهاجمـة الجليل، استغل الأمراء المناوئين لـ (جاي) و(همار ريموند الثالث) صاحب طرابلس، و(بوهيموند الثالث) صاحب أنطاكية، وضغطا على الملك لأبعـاد جاي عن الوصاية، وعين ابن أخـته (سبـيلا) الطفل (بلدوين الخامس) شريكًا له في الحكم، ووريثًا بعد وفاته، وبذلك فقد قطع عليه الطريق لمجـرد التـفكيـر في وراثة العـرض، بل حـاول إقناع أختـه بالطلاق، والإنفصال عنه، فانسحب (جاي)، وقرر المجلس اختيار (ريموند الثالث)، وصيًا على الملك، وذلك في عام ٥٨١هـ-١١٨٥م.

نعود مرة أخـرى للأمراء، لنقف على مدى التخـبط والتدهور الذي أصاب الصليبين، وننظر إلى (بوهيموندا) يد أنطاكية، فقد كان منصرفًا لشهواته، وعلى

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠١٦).

(٢) «تاريخ الحروب الصليبية» ترجمة: السيد الباز العربي - دار الثقافة ببيروت، ط:٢ (جـ ٢، ص٧٠٥).

من أنه كان متزوجًا من أميرة بيزنطية، إلا أنه تزوج من أخرى وطلق الأولى، ثم وقع في غـرام ثالثـة، كـانت تتصـل بصلاح الديـن وتفضح له أسـرار الإمـارة وتحركات جيوشه، ويقابلها بسيل من الهدايا، ولم ينفع في ردعه عن غرامه حتى الحرمان الكنسي.

ومن الأحداث أثرت تأثيرًا مباشرًا في الصليـبيين، وفاة الإمبراطور البيزنطي (مانويل كـومنين)، لأن الأباطرة الذين أتوا بعده كانوا يعـتبرون الفرنجـة أعداء، وقد كان (مانويل كومنين) حليفًا هامًا للصليبيين.

وقد ظهـر ذلك العداء بعـد وفاة (كـومنين)، عندما أرسل خليـفتـه (الكيوس كومنين) مـبعوثًا إلى القاهرة يصـالح صلاح الدين، ويطلب منه أن يقبله صـديقًا، ولكي يعبر لصلاح الدين عن هذه الرغبة، أطلق له ١٨٠ أسيرًا مسلمًا كانوا عنده.

أرناط ونقد الهدنة:

قبيل وفاة الملك ـ ملك القدس ـ انتقل ثقل الدولة إلى أيدي الفارس الفرنجي الذي يسميه المسلمون (أرناط)، وهو (رينه دي شاتيون)، وكان (أرناط) قد قضى في الأسـر في حلب ١٦ سنة، وعاد بعـد أن أطلق سـراحه الملك الصـالح إلى طرابلس ثم القـدس، ثم تـزوج من وريثـة حصـن الكرك والشـوبك، ليـخطى بإقطاعها، وكانت هذه الوريثة (إتين دو مـيلس) قد تزوجت رجلين قبله، ولكنها ورثت عن أبيها حصن الكرك والشوبك.

كان (أرناط) أحـمقـًا مندفعـًا، وأصبح صاحب القـول الأول والأعنف في المملكة، وقد أخـذه الغرور ولم يدرس جيـدًا أصول المسلمين في ذلك الوقت، ولم يدر أنهم تغيروا وتغيرت أوضاعهم خلال مدة أسره وسجنه، لذلك فكر في

الانتقام لأسره وسجنه على يد المسلمين، وكان في الأصل أهوج الفعل والرأي، وكان يحلم دائمًا بمشاريع تفوق طاقته، فكان سببًا في تورط مملكة بيت المقدس في مشاكل مع صلاح الدين.

أعد (أرناط) حملة كبيرة خرج منها في البر إلى شمال الحجاز، متجاهلاً الهدنة المعقودة مع صلاح الدين الذي كان في الجزيرة إذ ذاك، وكان ذلك في صيف ١١٨١م - ربيع الأول ٥٧٧هـ، وأدغل حتى بلغ (تيماء)، وهي الواحة التي تقع على منتصف الطريق إلى المدينة المنورة، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، ولكن (فروخشاه) ابن أخى صلاح الدين ونائبه في دمشق، أسرع إلى غزو الأردن وحصني الكرك والشوبك، ونهب وضرب، مما جعل (أرناط) يُعجِّل بالعودة للدفاع عن بلده، ونهب في عودته قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة، وسكب فيها ثروة ضخمة، وظل جيش دمشق يراقبه طويلاً حتى لا يعود، ففرق جيشه، وقد أفزع هذا العمل كثيرًا من المسلمين، وانتبهوا إلى هذه الجبهة الجديدة، كما يبدو أن ملك القدس فزع من خرق (أرناط) للهدنة مع صلاح الدين، لأن مملكته كانت في حاجة إليها، وودع صاحبه فلم يسمع له، فجهز جيشًا وكان في الظاهر - على قول مؤرخهم وليم الصوري - لقطع الطريق على صلاح الدين في عودته من مصر، مطلع ٥٧٨هـ، وفي الواقع كان الجيش لمعاقبة (أرناط) وتأديبه لمخالفته أوامر الملك، وقد زاد في فزع الإفرنج، إن صلاح الدين كتب إلى ملك القدس يطلب أن يوقف صاحبه عند حده، وأن يسرع في رد أموال المسلمين وأسراهم، ولكن (أرناط) رفض الإصغار إلى الأوامر، واضطر (بلدوين الرابع) إلى إخبار صلاح الدين بعجزه عن إخضاع حليفه وفصيله، وهذا يعني سقوط هيبة الملك، ملك القدس من جهة، كما يعني إمكان تجدد الحرب من جهة أخرى.

وقد لام صلاح الدين الملك (بلدوين الرابع)، وذكّره بالهدنة المقصودة بين الطرفين، وطالب بالتعويض، فأقر الملك الصليبي عدالة دعواه، لكن (أرناط ـ رينولد شاتبون) أبى أن يعترف بخطئه، ورفض أن يدفع التعويض، وسانده أصدقاؤه في البلاط الملكي، مما حمل الملك على طي الموضوع، وأخبر صلاح الدين بعجزه عن إخضاع أحد أمرائه وإقناعه باحترام الهدنة المقصودة مع المسلمين.

وحدث في هذا الوقت أن تحطمت سفينة يُطلق عليها اسم (البسطة)، والتي ألقتها الرياح إلى بحر دمياط، وعليها ١٧٠٠ من الحجاج والجند، وكانوا يتصوّرون أنهم محميون بالهدنة، لكنهم لقوا مصيرًا مختلفًا، لأن (أرناط) نقدها، وألقى بهؤلاء إلى الأسر.

ويقول وليم الصوري ـ مؤرخ الصليبيين ـ: قدم صلاح الدين بتحد مباشر، فجاء بمطالب يستحيل عمليًا تلبيتها، وأضاف كإنذار لم يستجب ملك القدس لهذه المطالب، فسوف يحتفظ بالسفينة كتعويض، وسيلغي الصلح[1].

واشترط صلاح الدين لإطلاق هؤلاء الأسرى، أن يحرر (أرناط) أسرى المسلمين، ويطلق سراحهم، ويرد الغنائم التي استولى، لكن (أرناط) رفض للمرة الثانية، مما أدى إلى تأزم الأمور حتى وصلت إلى حد الصدام[2].

كان وجود صلاح الدين في بلاد الشام في هذه الأثناء ضرورة ملحة لخلافات بينه وبين (عز الدين مسعود) الأول الذي خلف الملك الصالح إسماعيل بعد وفاته، وقد خشي صلاح الدين من أن يتدخل الصليبيون في أوضاع حلب، فكان وجوده في الشام ضرورة سياسية وعسكرية كما ذكرنا.

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٣٧).
(٢) «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٢، ص٩٩).

علم (أرناط) بخروج صلاح الدين من مصر في طريقه إلى بلاد الشام، واستطاع إقناع الملك (بلدوين الرابع)، بحشد الجيش الملكي في إقليم ما وراء نهر الأردن للإنقضاض عليه، وقد ارتكب الصليبيون بهذا العمل خطأ عسكريًا جعل من فلسطين منطقة مكشوفة.

وقد أقام الصليبيون خطهم الدفاعي عند حصن الكرك في الوقت الذي اجتاز فيه صلاح الدين صحراء سيناء إلى العقبة، ثم توجه ناحية الشمال إلى إقليم الشوبك، حيث دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين دون أن يصادف مقاومة تذكر[1].

ولكي يخفف الضغط عن صلاح الدين، خرج (فروخشاه) من دمشق، وأغار على دبورية الواقعة قرب طبرية، وهاجم جيش جلدك الواقع في السواء من أعمال دمشق، واستولى عليه، وعندما بلغت هذه الأخبار مسامع الملك الصليبي، أدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه، فقرر أن يطارد صلاح الدين، لكن هذا الأمير احتاط في سيره، والتزم الأطراف حتى دخل دمشق في شهر صفر عام ٥٧٨هـ- شهر خريران عام ١١٨٢م، أما الجيش الصليبي فقد اتجه إلى صنورية قرب طريرة في إقليم الجليل، بانتظار رد فعل صلاح الدين، وما يقوم به[2].

ثم توغل صلاح الدين في فلسطين، وجنوب الجليل، وأقام بعسكره في سهل الأقحوانة عند خروج نهر الأردن من بحرية طبرية[3].

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٣٧).
(٢) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٣٨).
(٣) «الكامل» لابن الأثير (جـ ٩، ص٤٦٠).

وأرسل ابن أخيه (فروخشاه)، للإغارة على إقليم الغور حول بيسان، وبيسان: مدينة بقور الأردن، بين حوران وفلسطين[١].

ودخل بيسان، ثم أفضم إليه صلاح الدين، وهاجما حصن كوكب الذي يشرف على هذا الإقليم، والطريق المؤدي إلى الناصرة في الهضاب بين بيسان وطبرية.

كل هذا الضغط جعل الملك (بلدوين الرابع) يغادر إقليم ما وراء نهر الأردن للتصدي لجموع المسلمين، وسار بمحاذاة الضفة الغربية للنهر، بعد أن استولى البطريرك الذي حمل معه صليب الصلبوت، والتقى الجيشان، جيش صلاح الدين الإسلامي، وجيش بلدوين الصليبي، عن أسفل حصن كوكب، لكن أيا منهم لم يحقق انتصارًا واضحًا على الآخر، وفضل صلاح الدين الاحتفاظ بقواته للمعركة الكبرى، فعاد إلى دمشق متيقنًا أنه لا جدوى لهذه المعارك[٢].

مهاجمة بيروت:

أراد صلاح الدين شق قوة الصليبيين وإضعافها، وكانت بيروت هي التي إذا استولى عليها استطاع أن يحقق ذلك، لأنه إذا قام بالاستيلاء على بيروت استطاع أن يفصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس.

حشد صلاح الدين قواته جنوب البقاع تمهيدًا لمهاجمة بيروت، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر ليسانده من ناحية البحر، وقد أغار الأسطول المصري على الداردم وغزة وعسقلان، وضرب حصار حول بيروت، وبذلك أصبحت بيروت محاصرة من البر والبحر[٣].

---

(١) الحموي (جـ ١، ص٥٢٧).

(٢) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٦١)، وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٤٣).

(٣) المصدر السابق.

ولما علم الملك (بلدوين الرابع)، الذي كـان لا يزال معسكرًا في صـفورية، قام بإعداد الأسطول الصليبي في عكار وصيدًا، لإنقاذ بيروت.

ولكن صلاح الدين شدد الحـصار على بيروت لفتحهـا قبل قدوم الإمدادات الصليبيـة، إلا أن المدينة حـمدت ولم يستطع النيـل منها، فرأى أن أمـر بيروت يطول، لذلك انصرف عنهـا، وأمر أسطوله بالعودة إلى مـصر[1]، وسار صلاح الدين بعذ ذلك إلى الجزيرة لينهى مشاكلها.

استغلال الصليبيين فرصة غياب صلاح الدين:

بدت البـلاد خالية أمـام ملك القدس، وظـن أنها الفـرصة المواتيـة، ونترك مؤرخ الصليبـيين يروي بعض الأحداث من وجهة نظر الجانب الصليـبي، فهو - أي: المؤرخ وليم الصـوري - يـصف المسلمين بالأعـداء، وبلاد المسلمين بـبلاد الكفرة، إلى آخر ذلك:

يقـول وليم الصوري: بـدت بلاد العدو (بعض بلاد المسلمين) مجـردة من المدافعين عنها، ولذلك اعتقد الملك ونبلاء المملكة بدون سبب واضح أن الفرصة المرغـوبة منذ زمن طويل لإلحاق الضـرر بالعدو قـد حلت، وازداد غـضبـه ضد صلاح الديـن بحكم أنه كان بعـجز منه وتعـاليه، قـد احتقـر القوة العـسكرية للمـملكة، ورحل دون الدخول في هدنة الملك، ولـذلك جمـعوا بعد الـتداول قواتهم، ودخلوا بصحبة البطريك وصليـب الصلبوت بلادة الكفرة - يقصد بلاد المسلمين - ليعيثوا فيها فسادًا.

---

(١) «الكامل» (جـ ٩، ص٤٦٨).

مروا خلال بلاد حوران التي تشغل جزءًا كبيرًا من أراضي مصري، ودخلوا الشام الصغرى التي عاصمتها دمشق، ثم وجهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة، وشقوا طريقهم إلى مدينة درعا المشهورة والآهلة بالسكان، واجتاحوا المنطقة من هناك، ودمروا جزءًا كبيرًا من المواقع النائية والمعروفة باسم القصور، حيث حرقوها أو خربوها بكل وسيلة ممكنة، وكان سكان هذا الإقليم قد علموا باكرًا باقترابنا، فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم وجشادهم - روابهم - إلى مواقع كانت فيها تحصينات أفضل، وهكذا لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لا شيء من الغنائم أو الثروات، لكن حرقوا أو دمروا المحاصيل ومستلزمات الحياة التي يتمكن العدو - يقصد المسلمين - من أخذها معه أثناء هروبه[1].

ويتبين لنا من سرد وليم الصوري أن الصليبيين لم يكونوا يبتغون أكثر من الأذى والهرب دون حرب.

ويمضي وليم الصوري في حديثه، فيقول: وتوجب عليهم أن يمروا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى، وتدوال شعبنا حول إمكانية الإستيلاء على أحوازها، بيد أنه تبين أن هذا لا يمكن إنجازه بسرعة، بل يتطلب إقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء، لذلك قرروا العودة خشية أن يكابدوا مع مواشيهم من العطش، وكان السكان قد أفسدوا أماكن تجمع الماء بالقاذورات وبتحطيمها، وتسريب الماء منها، وكانت محاصيلهم تختزن في مغائر مبنية تحت الأرض، فلا يمكن العثور عليها ولا إحراقها، لأن الحبوب لا تحرق وحدها إلا مع التبن، وتعذر إلحاق الضرر بالبيادر بعد أن بعثرها السكان،

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٤٧-١٠٤٩).

ولم تكن قـوة الجند الصغـيرة التي تُركت في ذلك الإقلـيم لدى مغـادرة صلاح الدين قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بـالصدام مع المسيحيين، إلا أنهم تعقبوا عن بعد على شكل زمـر مؤخرتنا، وحاولوا إلحـاق بعض الضرر بنا، لكن لم يمكنوا من تقديم أي عائق.

ثم يقول وليام الصوري: توقف شعـبنا لدى عودته في الإقليم نفسه، الذي يدعى السواد، وهو الإقليم الذي تقع فيه تلك القلعـة التي كان العدو قد أخذها من المسيـحيين بالحـيلة قبل وقت قـصيـر، عندما كـان جيشنا فـي وادي عربة، ويشتهر السواد بمنتجاته من الخـمر والحبوب والزيتون، وبالمناخ الصحي، والموقع البهيج ـ وهنا يقصد حصن جلدك.

ورأي المسيـحيون أن من المرغـوب فيه الاستـيلاء على الحصن، ولهـذا أقيم معسكر أمامه، وبذلت جهود فعالة لإجبار الموجودين فيه على الاستسلام.

كانت القلعة محصنة بشكل جيد للغاية، وكان موقعها لا يسمح بمهاجمتها إلا من الجزء العلوي بعد أن تقطع الصـخور منه حتى موقع القلعة، وأخـذ الحجارون في العمل، وكهف القلعة على جانب جبل شديد العلو، والطريق إليه شاق لا يمر منه سوى جندي بعد آخر، ولا يتجاوز عرض الممـر أكثر من قدم، والجرف عميق ومروع حتى اسفل الوادي، وتناوبت فرق الحجارين العمل ليلاً ونهاراً.

وقسم جـيشنا مجـموعتين، بقى قســم منه معسكرًا فوق الـهضبة ـ هضـبة الكهف ـ، وبقى القسم الثاني في السـهل في الأسفل، وكانت القوة في الكهف مؤلفة من سبعين جنديًا اختارهم صلاح الدين بنفسه، وبدأت الكتلة بأكملها تهتز وترتعش مع توالي ضربـات المطارق حتى تعد خُـشى من انهيار الكهف فـجأة، وسحق من بداخله، فأرسلوا سفارة إلى الملك بعد ثلاثة أسابيع أو أكثر بقليل من

الحصـار، وحصلوا من خلال وسـاطة كونت طرابلس على إذن بالرحـيل بحرية إلى بصرى بعد التخلي عن أسلحتهم ومعداتهم، وبعد عملية التسليم رأى الملك وبقيـة النبلاء بحكمـة وضرورة تزويد القلعة بالأسلـحة والمؤن، وعهـد بها إلى رجال مخلصين[١]، حدث هذا في تشرين الأول ١١٨٢م ـ رجب ٥٧٨هـ.

ثم ما لـبث قادتنا أن أدركـوا بعد ذلك من قـصيـر في شهر كـانوان الأول والثـاني أن صلاح الدين كـان مـشغـولاً بأمور أكـثـر أهميـة في بلاد الموصل، فاجـتمعوا من جـديد، وهم كارهون لفقـد الفرصة التي قـدمها غيـابه، وقرروا بالأجماع أن يلتقوا في قيـسارية على الساحل، وأن يتزودوا بكل ما هو ضروري لاستخدام الجند والحـيوانات في حملة أخرى تستغـرق ١٥ يومًا، حتى لا تضيع الفرصة، وشنت في البلد غارة سرية لم يشارك فيها سوى الفرسان، على منطقة معارية بالقرب من بصرى، وعادوا سالمين مع كثير من المغانم والقطعان والجشار، وعدد كبير من العبيد، وكانت انطلقت من طبرية بقيادة كونت طرابلس.

ثم اجتمعت قوى المملكة من المشاة والفرسان بصحبة صليب الصلبوت قرب طبرية في ١٥ ديسمبر، وعبروا عند مـحاضة يعقوب، ودخلوا بلاد العدو ـ بلاد المسلمين ـ خلال الـسهل ـ الجولان ـ ووصلوا بيت جن، فـدمروا الموقع تدمـيرًا كامـلاً وخربوا كل شيء واحرقوا، ثم وصلوا إلـى مسافة قـريبة من داريا، على أربعة أو خمسة أميال من دمشق، فخربوها على الطريقة نفسها.

كان الناس في هذه الأجواء قـد هربوا بعضهم إلى الجبـال اللبنانية، وبعض دمشق، نتـيجـة لذلك ما أخـذوا أسيرًا في تلـك الغزوة، وفقـدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش، وكان بعض الفرسان الأتراك الواثقين من سرعة خيولهم

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٥١-١٠٥٣).

قد انطلقوا من دمشق يحومون حول صفوفنا على مسافة قريبة، ويترصدون لإلحاق الأذى بنا، وقد انقضوا فجأة على الغزاة المهملين وقتلوهم في هجوم ضار، كما انطلق الدمشقيون من مدينتهم أيضًا، وحشدوا أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة، وواصلوا هذه المسافة مراقبة جندنا مراقبة دقيقة، إلا أنهم لم يحيزوا على الزحف مسافة أقرب، ولم يجرؤ المسيحيون على مهاجمتهم، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورهم إلى داخل المدينة.

وحين بلغت هذه الأخبار صلاح الدين وهو في الجزيرة كان تعليقه: إننا نأخذ مدنًا، ويأخذون قرى نستعيدها.

وكان ذلك منتهى الاستهانة بالفرنج، وكان حين ترك الشام قد جعل نائبه ابن أخيه (فروخشاه) وهو ثقة من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعًا كريمًا فاضلاً عالمًا بالأدب وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك، ولكنه توفي في جمادى الأولى من هذه السنة[1].

وذلك ما جعل المنطقة شبه مفتوحة لعدوان الفرنج المتكرر، ولاستطالتهم على سواد دمشق، دون الجرأة على الهجوم على إحدى مدنها، أو معاقلها.

أطماع (أرناط) في الجزيرة والبحر الأحمر:

كان هدف (أرناط) الأكبر ينحصر في تحقيق أمرين:

الأول - الوصول إلى قبر الرسول ﷺ.

الثاني - الاستيلاء على منابع التجارة الإسلامية عبر البحر الأحمر، وكانت هذه الأهداف والطموحات أكبر تأثيرًا من قوة (أرناط).

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١، ص٤٩١).

كما كان أخطر بكثير أن ينالها مثله، ولكنه في رعونته تخيل الأمر سهلاً، فقد بنى أسطولاً وفرغ منه بالكرك، ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر آيلة، خليج العقبة، وجمعها في أسرع وقت، وفرغ منها بالمقاتلة فساروا في البحر، وافترقوا فرقتين، فرقة أقامت على حصن آيلة ـ العقبة ـ، وهو للمسلمين يحصرونه ويمنع أهله من ورود الماء، فنال أهله شدة عظيمة، وأما الفرقة الثانية فساروا إلى عيذاب، وهي مدينة مرور الحجاج المقاربة على الضفة الغربية للبحر الأحمر، وهي ميناء كبير للنوبة، وتقابل صبره، كما أنها مرفأ التجارة الهام بين اليمن ومصر، واستولت على سفن تجارية محملة بالبضائع قادمة من عدن، ثم اجتازت البحر الأحمر إلى ساحل الحجاز، فاشعلت النار في السفن الراسية بالحوراء وينبع، وأوغلت حتى بلغت راغب من موانئ مكة، واعترضت بالقرب منها سفينة حجاج متجهة إلى جدة[1].

وأفسدوا في السواحل، ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر الأحمر، فرنجيًا لا تاجرًا ولا محاربًا، وقد كانت هذه الغزوة المفاجئة من أسوأ ما وقع للحركتين الدينية والتجارية للمسلمين يومئذ، كما مثلت أقصى ما يصل إليه الحقد الفرنجي من مشاريع النكال، والهجوم غير المتوقع الذي أزعج البلاد الإسلامية الآمنة، وبخاصة بسبب جرأتها على طعن المسلمين في ديارهم وفي أماكنهم المقدسة.

كان البحر الأحمر مغلقًا عليهم إلا من هذه النقطة، آيلج المجاورة للكرك في الجنوب، و(أرناط) كان نموذج الفارس اللص بجشعه ووحشيته وغدره

---

(١) المصدر السابق (جـ ٩، ص٤٦٨).

وتعصبه الأعمى وبعدم التزامه بالعهود، وصفه بذلك المؤرخون في الغرب والشرق[١]، وبهذا العمل الأخرق، وضع أرناط الصليبيين في موقف خطير وحرج، إذ أن تصرفه هذا آثار حفيظة المسلمين جميعًا الذين ارتاعوا لما حدث، وتسبب في سريان موجه من السخط بينهم، أكبر من تلك التي رافقت إقامة إمارات صليبية، بل إن حكام حلب والموصل الذين التمسوا مساعدة الصليبيين، فجلدا لإتخاذهم حلفاء، وقد ظهر خطر الصليبيين جليًا على المسلمين.

نعود إلى ردة فعل صلاح الدين على هذا العمل الأرعن، فقد عرف بالأمر الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين ونائبه في مصر.

فعمَّر أسطولاً وسيَّره من خليج السويس، وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم (حسان الدين لؤلؤ)، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً شجاعًا كريمًا، فساد (لؤلؤ) مُجِّدًا في طلبهم، فابتدأ بالذين على آيله، فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيدنا، فقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقي، وسار من دقته بعد الظفر يقص أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ذلك المرسى، ليفعلوا كما فعلوا فيه، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة وأخذ الحجاج، ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن، بعد أن أحرقوا وأسروا نحو ١٦ مركبًا، وأخذوا مركب حُجاج في عيذاب، وقافلة كبيرة منهم، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين بضائع اليمن وأشياء كثيرة كانت معدة لمبرة الحريض[٢].

---

(١) د. شاكر مصطفى «صلاح الدين الأيوبي» - ط: دار القلم (ص٢٤٠).

(٢) «السلوك» للمقريزي (جـ ١، ص١٧٩).

ويقول أبو شامة: أنهم أغاروا على بعض القوافل على ساحل الحوراء قبل العثور عليهم، وأنهم اشتروا بعض البدو، ليدلوهم على داخلية البلاد[١].

سار (لؤلؤ) يقفوا أثرهم فبلغ رابغ وساحل الحوراء وغيرهما، فأدركهم بساحل الحوراء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا القطب، وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب الجبلية، فنزل (لؤلؤ) من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها وقاتلهم فرسانًا ورجالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، وأرسل اثنين منهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم في القاهرة والإسكندرية ودمياط.

والواضح أن (أرناط شاتيون) استهدف من وراء هذه العملية تحقيق أربعة أهداف:

الأول- السيطرة على البحر الأحمر.

الثاني- قطع طريق الحج، وضرب العالم الإسلامي في الصميم.

الثالث- الاستيلاء على عدن، مما يتيح له التحكم بممرات البحر الأحمر، يغلقها في وجه أعدائه، واحتكار التجارة الشرقية.

الرابع- إقناع مملكة الحبشة النصرانية بالعمل على المشاركة في الحروب الصليبية.

• وقد ترتب على هذه الأحداث نتيجتان، فيما يتصل بعلاقة صلاح الدين و(أرناط رينولد شاتيون):

الأولى- إثارة العداء الشخصي بين الرجلين، حيث نذر صلاح الدين بأنه لن يغفر لرينولد محاولته انتهاك حرمة الدين.

---

(١) «الروضتين في إخبار الدولتين» (جـ ٢، ص٣٧).

الثانية ـ لفتت نظر صلاح الدين إلى الخطر الذي يهدد دولته من ناحية الكرك، ووادي عربة، وهي المنطقة التي تقع بين قسمي دولته في الشام ومصر، فضلاً عن الحجاز[(١)].

وقد حدث كل هذا فيما كان صلاح الدين ما يزال في الجزيرة، وجاء في سنة ٥٧٩هـ، وهو بين مادرين وآمد، ثم لما فرغ من هناك سار إلى عينتاب في شمال حلب وفتحها، وأبقى صاحبها فيها، لكن الفرنج أرادوا متابعة استغلال غيابه، فسارت عصابة كبيرة منهم من نواحي الداردم إلى مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون، فخرجوا إليهم عن طريق آيلج، فهرب الفرنج منهم إلى ما يقال له: العسيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فآتاهم المسلمون وهم عطاش، وقد أشرفوا على الهلاك، فرأوا أن الفرنج قد ملكوا الماء، وكان الزمان قيظًا، والحر شديدًا في بر مهلك، فأرسل الله بلطفه سحابة عظيمة أمطرت الكثير، فقويت أنفسهم، وقاتلوا الفرنج ـ الصليبيين ـ فنصرهم الله عليهم، ولم يسلم منهم إلا الشرير الفريد، وغنموا ما معهم من سلاح ودواب[(٢)].

وفي الوقت نفسه في العاشر من محرم لقي اسطول مصر في البحر بطسه فيها نحو ٣٠٠ من الفرنج الصليبيين بالسلاح التام، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل فقاتلوهم، وصبرا الفريقان، وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى، فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضًا للأسر، وغنموا ما معهم، وبعثوا يبلغون بذلك صلاح الدين، الذي كان ما يزال على حلب يأخذها ويصالح أهلها، ويفقد عليها في الوقت نفسه أخذ تاج الملوك (بوري)، ثم يفتح حارم،

---

(١) «تاريخ الأيوبيين» د. سهل طقوش (ص١٣٧).
(٢) ابن الأثير (جـ ١١، ص٤٩٥).

ولما فرغ من كل ذلك سار إلى دمشق، وتجهز للغزو في أواخر أغسطس ١١٨٣م ـ جمادى الأولى ٥٧٩هـ، ومعه عساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، وسار إلى بلاد الفرنج ـ الصليبيين ـ[١].

عبر نهر الأردن في جمادى الأخرة، فرأى أن تلك النواحي قد فارقوها خوفًا، فقصد بيسان، فأحرقها وخرَّبها وأغار على ما حولها، فاجتمع الفرنج وجاؤوا إلى قبالته، فحين رأوا كثرة عساكره، لم يقدموا عليه، فأقام عليه وقد استند إلى جبل هناك، وخندقوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام، وتناوشهم القتال فلم يخرجوا، وأقاموا كذلك خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون، فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضًا، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا في غير السلامة، وأغار المسلمون على تلك الأعمال يمينًا وشمالاً، ووصلوا إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه، فلما كثرت الغنائم لديهم أو العودة إلى بلادهم معها[٢].

ونترك مؤرخهم وليم الصوري يتحدث عن هذه المعركة من وجهة نظرهم وعلى صورة مغايرة لما رواها ابن الأثير وغيرة من مؤرخي المسلمين.

يقول وليم الصوري: كان صلاح الدين قد استدعى بعد دراسة متمعنة قواته مما وراء الفرات، واجتاز حدود المملكة مع جميع قوات الفرسان التي استطاع أن يجمعها من كل مصدر يتبعه جيشه الضخم المدجَّج بالسلاح، وظهر فجأة بعد اجتيار منطقة حوران على طول بحيرة طبرية مع فيالقه في فرق عديدة في موقع يدعى الأقحونة، وتقدم من هناك مع مجرى النهر إلى بيسان، وليس هناك سوى عدد قليل من السكان المتفرقين، وقرية صغيرة في مكان مستنقعي.

---

(١) ابن الأثير في «الكامل» (جـ ١١، ص٥٠١).
(٢) المصدر السابق (ص٥٠٢).

ومع أن الناس القاطنين هناك كانوا مجتهـدين بشكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبـة لأعدائهم، إلا أنهم لم يشعـروا بأي ثقة في دفاعـات قلعاتهم، ولذلك تخلوا عن القلعة قـبل وصول الجيش المعـادي، وذهبوا إلى طبرية تاركين جـميع ممتلكاتهم خلفهم.

وهكذا وجـد العدو بيـسان فـارغة، ونـقل أفراده جـميع الأسلحـة والمواد الغذائية، وكل ما كان يفيد مفيدًا، وانطلقوا في كتائب يخربون، وخيَّمت إحدى الكتائب بجـانب نبع يدعى عين جالوت، وكـان المسيحيـون مخيَّـمين قرب نبع صنورية، وكـانوا منتظرين بقلق ليعـرفوا الجـهة التي سـوف تغزو منهـا القوات المعـادية - قوات صلاح الـدين - قد استـولوا على سـهل بيسـان، وأن فيالقـهم اجتاحـت تلك المنطقة، وعبر المسـيحيون الجبال التي تقع فيهـا الناصرة، ونزلوا تابعين صليب الصلبـوت، والآلوية الملكية إلى السـهل الكبيـر مرج ابن عـامر، ووجهوا مـسيرهم هناك بقوات، بتـشكيل المعركة وتواعد العلم العـسكري نحو ينابيع عين جـالوت، حـيث أقـام صـلاح الدين مع فـرقة قـوية من الفـرسـان المشهورين ببسالتهم.

كانت مقاصد المسلمين طرد العدو، والحـصول على منابع الماء، لاستعمالهم الخاص، إلا أنهم شعـروا لدى وصولهم أنه من المستحيل الاسـتيلاء على الموقع دون تجشم مصاعب جمة، وخوض معارك خطيرة مع العدو.

وصل صلاح الدين إلى المعسكر وتخلى عن الينابيع بـشكل مفاجئ للغاية، وخيَّم قـبالة بيسان على بعـد ميل واحد منها، وقـبل أن يتمكن المسيحـيون من الوصول إلى الموقع، توزع الكفرة إلى زمر صغـيرة خرجت من الجيش الرئيسي،

وبدأت باجتياح المنطقة، ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية، وكانت إحدى هذه الزمر قد هاجمت جبرين الصغرى، وأتلفوا تمامًا كل ما كان فيها، وعثروا على عدد قليل أو لا شيء من السكان، لأنهم هربوا إلى أماكن محصنة، وصلت زمر أخرى إلى عقربلا، فاستولوا عليه بالقوة، وعاثوا فيه بطريقة عدوانية وفعلوا الشيء نفسه في كل ما رأوه، وسلك آخرون الطرق العامة وترافق وجودهم مع مخاطر عامة على الفرسان والمشاة، لدرجة أن الذين كانوا يسرعون للإنضمام إلى جيشنا وصلوا هناك بعد تعريض حياتهم للخطر، وصعد بعض هؤلاء الأعداء جبل الطور، وإلى الدير الإغريقي هناك، وحاولوا شق الطريق إلى دال الرواق الكبير فيه، وانسحب الرُّهبان والناس من القرى المجاورة إلى داخل الدير، والذي كان محميًا بسور وأبراج، وأبدوا هناك دفاعًا شجاعًا، وهزموا عناصر العدو التي تسلقت الجبل، تسلق بعض الزمر المرتفع الذي تقع الناصرة وراءه، وكان بإمكانهم أن يشاهدوا المدينة بأسرها من الهضاب في الأعلى، وسبب ظهورهم رعبًا شديدًا للنسوة والأطفال الذين ذهبوا هناك، مع المسنين والمرضى، ويُقال: إن الكثيرين خنقوا في الإزدحام، وهم يكافحون للهرب طلبًا للملاذ الكنيسة الكبيرة، كما أن أغلب السكان القادرين على حمل السلاح كانوا إما يتبعون العساكر مع الحملة العاقة، أو رحلوا مع أسرهم إلى المدن على الساحل، وخاصة إلى عكا.

سببت هذه الزمر المنفصلة المنتشرة فوق المنطقة بأسرها خطرًا شديدًا بالنسبة للذين كانوا يرغبون الوصول إلى جيشنا، ولم يجرؤ أحد بسبب الخوف منهم على الإقتراب مع المعسكر المسيحي للمتاجرة، أو جلب المساعدة ونتيجة لذلك انتشرت مجاعة على الفور بين صفوف العساكر، فقد كانوا تقدموا دون أمتعة أو مؤن لكي يزحفوا دون عائق آملين أن المسألة سوف تحل خلال يومين أو ثلاثة

على الأكثر، وكـان الرجالة (المشاة) من الخطر الأكبر، وخاصـة الذين قدموا من الساحل، حيث تم استدعـاؤهم دون سابق إنذار، وأعني بهذا البيازنة والجنوبيين والبنادقة، واللومبـاردتين، وكانو هؤلاء قد تركوا سفنهم، واتخذوا اسـتعداداتهم للإبحار إلى قواتنا، مع الحـجاج الذين التقطوهم ليعـيدوهم، ولم يكونوا جلبوا معهم أي كمية من الغذاء، وكـانوا لا يقدرون على حمل أسلحتهم إلا بصعوبة، لأن المعسكر كـان على بعد ٢٠ ميلاً من البـحر، ولذلك أرسل الرسل إلى المدن المجاورة، ليطلبوا من المسـؤولين إرسال المؤن بسرعة، وأطيعت الأوامـر بسرعة، وجاء الطعام، ووصل القسم الأكبر مـن هذه المخزونات بأمان، إلا أن فريقًا كان يحمل كمية ضخـمة من المؤن، وقع في أيدي العدو، ولأن الأتراك كانوا بحاجة شديدة إليه، وقد قُتل الكثير، وأسر الكثير من حاملي الأغذية.

ويضيف وليم الصوري قائلاً: لم يرد في أي مصـدر مدوَّن أن قوات ضخمة جدًا كهذه من الفرسان والمشاة قد اجتمعت من قبل من سائر مناطق الشرق، كما لا يتـذكر المسنون أن قـوات مجـهزة بشكل جـيد قـد اتحدت أبدًا من قـبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة، فقـد كان لدى المسيحيين قوات من الفرسان، بلغ تعـدادها ألف وثلاثمائة فـارس، وقيل: أن عدد المشـاة المجهـزين جيـدًا قد تجـاوزه ألف جندي، وعلاوة على ذلك كلـه، كان الجـيش إمرة قـادمة عظمـاء ومشهـورين، وهم (ريموند) كونت طرابلس، و(هنري دو لفان)، وآخـرين مثل كونت يافـا، (وأرناط) صاحب الكرك، (وبـغدوين) صاحب الرمـلة، ويُقال أن بعضهم كره العمل مع كونت يافا (غي لو سينيان)، الذي كان الملك قد عهد إليه قبـل يومين بالوصاية، وضـمان مـصالح المملكة، وهو رجـل غامض، وعـاجز بالاختصـار سمحوا للعدو بصبـرًا، وبالأحرى نجري أن يبقى ثمانية أيام مـتوالية مخيمًا في المنطقة المجاورة لجـيشنا، وعلى بعد أقل من ميل، وهو أمر لم يحدث في المملكة من قبل، وقد اجتاح الأتراك المنطقة بأسرها.

ويُقال في سبب عدم نشوب معركة مع العدو: أن صلاح الدين كان قد طوق المنطقة على شكل دائرة بقواته تنقض عند هجوم المسيحيين، كما أنه كان يعسكر في منطقة صخرية، ومن موقع دفاعي قوي، وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم التاسع وانسحب، وليس أحد من الناس مقتنعًا أنه لن يعود[١].

ونتبين من نص وليم الصوري مدى خوف ورعب مملكة القدس من وحدة المسلمين، وقد حاول الصوري إخفاء هذا الخوف والجبن حتى أنه يغرد هذا في سياق انتصارهم، يغرده إلى غضب الرب على آثامهم، بالإضافة إلى الحديث المتكرر عن العدوان والتخريب من المسلمين لتشويه صورتهم، فيما نلاحظ أنه يذكر نفس أحداث التخريب نفسها للصليبيين في الأراضي الإسلامية بروح من التشفي والانتقام.

مهاجمة حصن الكرك:

كان حصن الكرك باقيًا في يد (أرناط رينولد شاتيون)، وكان بوسعه أن يعترض طريق القوافل التجارية، ولصلاح الدين تجارب مع (أرناط) في نقض المعاهدات.

وكان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق بعد غزوة ناجحة لبيسان وعين جالوت في شهر جمادى الآخرة عام ٥٧٩هـ ـ شهر أيلول عام ١١٨٣م[٢].

ثم خرج منها في شهر رجب ـ شهر تشرين الأول، على رأس جيش كثيف

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٦٠-١٠٦٥).

(٢) انظر: «سيرة صلاح الدين» لابن شداد، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ص١٠٧-١٠٩).

لحصار الكرك، وكتب إلى أخيه العادل في مصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إليها مع أهله وماله، لأنه عيَّنه لحلب وقلعتها، ونزل صلاح الدين على الكرك في رجب، ووافاه العادل بالعسكر المصري، وتمكن صلاح الدين من حصار الحصن، وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لن يمكنوه من حصار الحصن، فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لذلك الحصن المنيع، وصادف في تلك الأثناء واجتماع الأمراء الصليبيين في الحصن للإحتفال بزواج الإميرة (إيزابيلا) من (همفري سيدتبنين)، فعسكر أمام أسوار الحصن القوية التحصين، والواقع أن الحصن صمد في وجه الحصار وضربات المنجنيق.

ويقول المؤرخون[1]: أنه في الوقت الذي كان فيه الحصن يتعرض لقذائف المنجنيق، أعدت (ستيفاني) والدة العريس، صحونًا من طعام العرس، وأرسلتها إلى صلاح الدين، فأمر هذا في مقابل ذلك، بألا يتعرض البرج الذي تجرى فيه احتفالات الزواج للقذف.

ورغم ذلك كله، لم ينل صلاح الدين من الحصن، وعلم (بلدوين الرابع) بحملة صلاح الدين على الحصن، فجهز الجيش الملكي، وعهد بقيادته إلى (ريموند الثالث) صاحب طرابلس، وأصر الملك أن يحضر المعركة على الرغم من شدة مرضه، ولما اقترت هذا الجيش من الحصن، فضل صلاح الدين أن ينسحب بعد أن رأى أن أمر الكرك يطول، وعاد إلى دمشق.

عاد صلاح الدين في ربيع الآخر ٥٨٠هـ إلى الحصن، وبلغه مسير الصليبيين، فرحل عن الكرك، ويصافقهم ثم يعود للكرك، فقرب منهم وخيم،

---

(١) ابن شداد (ص١١٠)، ابن واصل (ص١٥١)، أبو شامة (جـ ٣، ص١٩٠)، وليم الصوري (ص١٠٦٥-١٠٧١).

ولكن خشونة الأرض، وصعوبة المسالك لم تسمح له بالهجوم، فمكث ينتظر خروجهم من ذلك المكان أيامًا ليتمكن منهم، لكنهم لم يبرحوا خوفًا على أنفسهم، ولما رأى ذلك رجع عدة فراسخ وجعل بازائهم من تعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما عرف ذلك صلاح الدين علم أنه فاتوه، وأنه لا يتمكن من غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما في طريقه من البلاد، فلما وصل المدينة أحرقها وضربها ونهبها، وقتل فيها وأسر وسبى فأكثر، ثم سار عنها إلى سبسطية وبها مشهد زكريا، فمنح أهلها الأمان إكرامًا له، وبها أسرى من المسلمين فاستنقذهم، ورحل إلى جنين فخر بها ونهبها، وفي عودته إلى دمشق نهب ما على طريقه، وبث السرايا، يمينًا وشمالاً يغنمون ويخربون[1].

وإذا كنا تحدثنا عن حصار صلاح الدين لحصن الكرك من وجهة نظر من يقف خارج الحصن، فلنستمع ولنقرأ المشهد داخل الحصن من وجهة نظر المؤرخ الصليبي وليم الصوري، فقد كان معاصرًا لهذه الأحداث، وقد بدأ تاريخه بذكر تاريخ بناء القلعة بيد الصليبيين الذين أقاموها فوق رأس الجبل الذي كانت فيه مدينة بطرا القديمة، وقد نشأت بجانب القلعة قرية أهلها السكان، وعند الحصار منعهم (أرناط) من الانتقال للقلعة بحجة أن لا خوف عليهم. وحاول بالفرسان والمشاة منع المسلمين من الوصول إلى الربض حول القلعة ففشل، كما فشل في وضع العقبات على الطريق الموصلة إلى الأعلى، ودمّر المسلمون مقتنيات السكن الذي زاد في محنتهم أن الخارجين من القلعة دمّروا الجسر الموصل إليها بعد أن امتلأت القلعة بالناس بأعداد كبيرة، ومن الباقين من الجنسين. فكانوا عبئًا على المحاصرين، واتفق أن عرسًا ملكيًا ـ هو ما ذكرناه سابقًا ـ كان سيُقام في موعد

---

(١) ابن الأثير (جـ ١١، ص٥٠٦-٥٠٧).

الهجـوم، فكان هناك عـددًا كبيـرًا من الممثلين أيـضًا والبهلـوانيين والموسيـقيين والمدعوين والقادمين لحضور مهـرجانات الزفاف، واحبطت توقعات هؤلاء بشكل محزن، لأنهم بدل الأفرح واجهوا مـعارك حربية، ورمى النشاب، وعلاوة على ذلك كان الكثير من المسيحـيين السريان من الريف المجاور، قد أتوا مع زوجاتهم وأبنائهم فصار الازدحـام بالقلعة من الكثافة بحيث ضاف المرور فـيها، وتعطلت حركة المدافعين.

وفي هذه الفترة كان الملك الفـرنجي (بلدوين الرابع) يفدل (غي لو سينان)، ويتوج ابن أخيـه الصغير (بلدوين الخامس) بالتاج الملكـي، لأن مرض الجذام قد قعـده عن أي عمل، ولـم يكن لهذه الأحـداث من صدى سـوى أنها كشـفت ضعف ممـلكة القدس، بين ملك مـريض يموت، وملك قاصـر في الخامـسة من العمـر، ونبلاء يتزاحـمون حول الوصـاية والسلطة، وأمر الملك بحشـد القوات لمساعدة (أرناط)، وكان صلاح الدين قـد نصب على القلعة ثماني آلات حربية، ست منها في الداخل، حـيث كانت المدينة القديمة، واثنتـان في الخارج أي: في الربض، واستـمر الهجوم في الليل والنهـار حتى استحـوذ الرعب واليأس على المحاصـرين، لدرجة أن بعض المسلمين تدلوا بالحـبال وأخذوا بعض البـهائم من خندق القلعة وأكلوها، فلم يجرؤ أحد على الظهور أمامه، ووضع الطباخون في جيش العدو ورشـات عملهم في منازل أهل الربض، التي كانت مـجهزة بشكل جيد بالحبـوب والشعير والخمر والزيت، فـاستولو عليها واستـخدموها، وحاول المحاصرون في القلعة تشييد ألة حربية لقذف الحجارة، لكن آلات القذف الحربية بين المسلمين سددت إليهم قـذائف الصخور بخبرة متناهية لـدرجة فضلوا اللجوء إلى الصبر بدل تعريض انفسهم للخطر والموت.

وزأرت القنابل، وارتجف الجنود برعب، وترقب الناس انهيار البناء من الضربات الصاعقة.

وأخيرًا مزج ملك الفرنج بنفسه مع صليب الصلبوت بعد أن جمع من المملكة القوي من كل مصدر، وزحف حتى إذا وصل البحر الميت جعل كونت طرابلس قائدًا للجيش، وحين عرف صلاح الدين بذلك، أمر برفع الحصار بعد شهر كامل، وعاد صلاح الدين فيما كان جيش الملك يتابع السير إلى الكرك[1].

وبعد أن عاد صلاح الدين إلى دمشق وجد سفيرًا من خليفة بغداد ينتظره مع عدد من اتباعه، وكان السير شيخ الشيوخ يحمل براءات الخليفة بولاية الدين الجديدة، وكان هذا الشيخ قد غادر الوساطة مع الموصل مغضبًا، وذهب إلى بغداد، وبقيت قضية الموصل معلقة، وسمع صلاح الدين - وهو في دمشق -: أن صاحب الموصل (عز الدين مسعود) تلقى تعزيزات لجيشه قوامها ٣ آلاف فارس من أتابك أذربيجان (مظفر الدين قزل أرسلان)، لشن هجوم على أربيل، ومع أن الهجوم كان فاشلاً ألا أن حاكم أربيل ناشد صلاح الدين الوفاء بوعده وحمايته، فأتيح لذلك أمام صلاح الدين للعودة من جديد إلى منطقة الموصل.

لكنه قبل أن يتحرك نظم توزيع مملكته بين أخيه وأبنائه وأبناء إخوته وأقربائه وأمرائه، وعرف من مراقبته مملكة القدس أنها من المعجز أن تقوم بهجوم على الشام، لو تغيب بسبب مشاكلها الداخلية العويصة، ونزا أمرائها على سلطة العرش، وجاءته دعوة من (ريموند الثالث)، للإتفاق على هدنة مدتها أربع سنوات، وكان ذلك لأسباب تتعلق بأوضاع الصليبيين بعد وفاة (بلدوين الرابع).

استغل صلاح الدين هذا العرض ووافق، وبهذا الشكل تفرغ تمامًا لإيجاد

---

(١) وليم الصوري (جـ ٢، ص١٠٧١).

حل مع الموصل كان يريده سلميًا، وجاءته دعوة من (ريموند الثالث) كونت طرابلس في صفر ٥٨١هـ ـ آيار (مايو) ١١٨٥م، وسار إلى الموصل، مع أنه تلقى تحذيرًا من السلطان (قلج أرسلان)، صاحب سلاجقة الروم، بأنه سوف يقوم بائتلاف يضم أمراء الشرق ضده، إلا أنه لم يأبه له لأن الائتلاف تفكك من تلقاء نفسه، وتُركت الموصل لمصيدها، ورفض الخليفة في بغداد التدخل، لأن صلاح الدين ظل يذكره بأن الموصل أُجبرت على الإعتراف بسيادة السلطان (طغرل السلجوقي) عليه، وقد كان هذا السلطان على عداء مع الخليفة.

وجرت بعد ذلك أمور التدخل في خلاط وماردين، وأمور الوساطة، ثم مرض صلاح الدين، ثم أقر بنود السلام التي سعى فيها (عماد الدين زنكي)، وانتهت بصلح استمر حتى وفاة صلاح الدين، بالقيام العملي للجبهة الإسلامية الموحدة.

كانت عودة صلاح الدين إلى دمشق في المحرم عام ٥٨٢هـ ـ مارس (آذار) ١١٨٦م، وقد قضى بدمشق ٥٨٢هـ ـ ١١٨٦-١١٨٧م، معظمهما أن لم يكن كلها مشغولاً بترتيب البيت الأيوبي في اتجاهات خمسة مهمة، وهي:

أولاً ـ تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه:

حرص صلاح الدين في إدارته على التسويات بالتراضي، وحفظ التوزنات لإرضاء الجميع، فقد كان رجلاً بسيطًا في فكرة لا يحب التعقيد الإداري، وكان كثيرًا ما يترك الإدارة لغيره من أهل ثقته، ليتفرغ لمهمته الكبرى، وهي المهمة الحربية، ولما كان المتطوعون بالولاء الشخصي له قد كثرت نسبتهم في الجيش، وكلهم من الأكراد، فقد قلت نسبة المماليك، وقام هذا الولاء مقام الكابح المشترك للجميع، فلم تظهر المنافسات، ولا التحاسد على الإقطاعات والإمتيازات.

وقد نال أفـراد أسرته، وهم المؤسسة العـسكرية الأم، النصيب الأوفى من ذلك، ولما كان لا يشترط على نوابه وحـكامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات إلا معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقـات الجهاد والإحتفاظ بجيوشهم جاهزة دومًا للقتال، فقد ترك الأمور الإدارية كلـها وراء ظهره، وكان لا يهتهم بسوى الولاء المخلص من اتباعه، لأنه كان يعرف أن هذا الولاء هو الذي يجمع القوى بيده، ولذلك كـان يهتم به، وقـد قال مرة لصـديقه المصـاحب له ابن شداد ـ المؤرخ ـ، صاحب كـتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليـوسفية)، وهـو سيرة صلاح الدين[1]، قال له: «إنني لو حدث لي حادث الموت، ما تكاد تجتمع هذه العـساكر»، وقـد سبب له ذلـك كثيـرًا من الإحراج أيام الحـرب ضد الحـملة الصليبية الثالثة.

وقد كتب القاضي الفاضل: إن المولى انفق مـال مصر في الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل[2].

وقد قـال مرة: «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كـما ينظر إلى التراب»[3].

ويقول المؤرخون: إن هذه الناحية نقصًا في إدارته، لأن عددًا من ولاته أثروا الثراء الفاحش ولـم يُـحاسبوا، وكانت حـملاته العسكرية مناسبـات لحملات من السخاء، كانت تُغضب أحيانًا أمراءه وخواصه، وتحرج القائمين على خزانته.

---

(١) طبعة دار القلم العربي، سوريا ـ حلب.
(٢) «الروضتين» (جـ ٢، ص١٧٧).
(٣) ابن شداد (ص١٨).

ثانيًا ـ تنظيم أطماع أسرته والعمل على إرضاؤهم:

الأسرة الأيوبية شأنها شأن أي أسرة خرج من بين أبنائها حاكم وزعيم، فهي ستتدرج هذه الأسرة ـ الحاكم ـ، وفي الوقت نفسه تصبح شاغلاً من مشاغل هذا الحاكم، وكانت مطامع أسرة صلاح الدين متفقه مع مفاهيم عصره، لكنها لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة، فقد كانت عملية الحكم، جديدة عليهم، تدخل في فهمهم على أنها إمتلاك لأراضي الناس وثرواتهم ورقابهم، لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير الرعية هو مسؤلون عنها، ومفهوم.

وقد كتب منشورًا ذات مرة في الرقة، قال فيه: «إن أشقى الأمراء من شمَّن كيسه، وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق، من أخذ الباطل من الناس، وسماه الحق، ومن ترك لله شيئًا عوضه، ومن أقرض الله قرضًا حسنًا وفاه ما أقرضه».

وقد كتب له النواب بدمشق مرة: إن الأموال ضائعة، وإن الأطماع فيها رائعة، وإن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي إفراد جهات لما سنح من مهمات[1].

وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: يقصد العمار[2]، اكتب لي عليها جميعًا بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: ما أتلو عليك الأسماء، فقال: لا!، بل تِّرهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسول دارَّة[3].

---

(١) «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٢، ص٥).

(٢) العماد الأصفهاني، انظر: المصدر السابق لأبي شامة.

(٣) المصدر السابق.

وكانــت إدارة صلاح الدين تعـتمـد على أهل الثقـة من نوابه وعُمـاله، وذلك شكوى الناس فيهم أحيانًا، كما جرى مع أحد رجاله هو (أبي الهيجاء السمين)، وقلما كانت تقوم هذه الشكوى، وقد أمضى هذه الثقة، وربما كان ذلك سببًـا لها أريحتيـه المبالغ فيهـا في كثير من الأحيـان، فقد كان سـفاحًا للمال لا يدخره لوقت الحاجة[٢].

صلاح الدين أتاه من توقد حماسته الدينية، أما أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر، وقد عـانى صلاح الدين من تباين الحالين، وعبر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل، وهو يطلب عقد تمليك لحلب مقابل ١٥٠ ألف دينار، اقترضها صلاح الدين منه، قال: «أظننت أن البلاد تُباع وتُشترى، أو ما علمت أن البـلاد لأهلها المرابطين بهـا، ونحن خزانة للمسـلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم»[٣].

وقد انتـهى الأمر بعـدد من التغيـيرات والمبادلات في ٥٨٢هـ، عـلى النحو التالي:

١ـ أُعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة، ولا إقطاع كامل، ولكن بصفة وصي على (العزيز عثمان بن صلاح الدين).

٢ـ عين ابن أخيه (تقي الدين عمر) لإقطاع (ميافارقين)، وديار بكر، بعد أن تمرد في مصـر أو كاد يخرج عن الطاعة وعن مـصر، وقد اقنعه القـاضي الفاضل بعدم التهور.

---

(١) «صلاح الدين» د. شاكر (جـ ٢، ص٥).

(٢) «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٢، ص٥٢).

٣- تم إعادة ابن صلاح الدين (الظاهر غازي) لولاية حلب.

٤- بقي (شيركوه بن ناصر بن محمد) في إقطاعه بحمص.

ثالثًا - العمل الخارجي والعلاقات الدبلوماسية:

تعلم صلاح الدين من خلال تجاربه على مدى عشرين عامًا أن الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيرًا خطيرًا، وأن القوى المادية كالجيش والمال، والولاء له، والذي بنى منها دولته قطعة قطعة، غير كافية لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يجب.

إذن فلابد من صداقات ومعاهدات وهدنات وعلاقات سلام، تقوم على القوى الخارجية، بل ومع المعادية أحيانًا، واستطاع أن يوجه دبلوماسيته إلى بيزنطة، وعاصمتها القسطنطينية، وقد جاء وقت كانت فيه هذه الإمبراطورية، في عهد (مانويل كومنين)، حليفة ملك القدس، كما ذكرنا سابقًا، ورأينا كيف أنه كانت لها جهود في إقناع الفرنجة في الهجوم على مصر، وقامت معهم بتجهيز أسطول في عهد الكيوس (كومنين) ومن بعده.

وكان التقرب منها من جانب صلاح الدين، يؤدي في الوقت نفسه إلى إغضاب أعدائها سلاجقة الروم، ولكن الأمور تغيرت أيضًا بعد أن هزم السلاجقة الإمبراطور (مانويل) ٥٧٢هـ، في موقعه (ميريدكفالون)، وبعد وفاة (مانديل)، فقد بادر خلفاء (مانويل)، بإقامة العلاقات الحسنة مع صلاح الدين، وإبداؤها بمعاهدة ٥٧٧هـ، وعودة القسطنطينية إلى فتح المسجد الإسلامي منها، وإطلاق حوالي مائتي أسير مسلم عندها، وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص.

رابعًا ـ صلاح الدين واجتناب التجارة الأوروبية:

كان أساطيل الفرنجة، ومنها الأساطيل الإيطالية، أساطيل جنودا وبيزا والبندقية، كانت متصلة الورود والتكاثف على السواحل الشامية، ولها امتياز أنها في الموانئ والمرافئ كلها، وكانت تحمل الرجال والمال والسلاح إليه دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب، ودورها الفعال هو الذي ساند الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن، ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا تويت، فكان على صلاح الدين أن يكبح من قواتها ما استطاع، بحيث يصبح آداؤها لصالحه، فلم يفكر في حربها في البحر، فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك، وإنما استغل هؤلاء التجار تغلب تدينهم، وتجعلهم ينسون حتى الحرمان وعدم التدين الذي يمكن أن يرميهم به البابا، كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافستهم، وبذل كثيرًا من الجهود لإجتذاب تجارهم إلى مرافئ مصر، مما لا يؤدي إلى تأمين منافعهم، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجار المصريين من وراء الفرنج، وقد أقام مع البيازنة (البياشنة تجار بيزا) معاهدة ٥٦٩هـ، كان من نتائجها أن شاركوا القوات المصرية في دفع الهجوم الصقلي عن الإسكندرية ٥٧٠هـ، ومما يؤكد وجود اتفاق مماثل مع جنودا والبندقية، تقول الفقرة: وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ـ أسلحة ـ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاوه، وكلهم قد تقررت معهم المواصلة، وانتظرت معهم المسالمة.

خامسًا ـ الجهاد:

ربما كانت الدعوة إلى الجهاد هي السر في انتصار صلاح الدين على الصليبيين، وقد كانت قضية الجهاد هي القضية الأساسية التي شغلت صلاح الدين حتى أنها أخذت كل دقته وتفكيره.

وكانت الأشـهر الأخـيرة من ٥٨٢هـ هي أشـهر المكاتبات والرسـائل لنواب وعمـاله في ولايات مصـر والشام والجزيرة، وكـلها تدعوا للاسـتعـداد للحرب والجهـاد، وفي هذا الوقت كان أعداء صلاح الديـن يعيشون منازعـات داخلية، وقد ساءت أحـوال مملكة القدس في أواخر أيام ملكهـا المريض المجذوم (بلدوين الرابع)، ولم يلبث تحت تأثيـر بارونات المملكة، أن يبـعد (غي لوسيـفنان) عن وصاية المملكة، وأعلن ابن أخته (بلدوين الخامس) شريكًا في الحكم، ولم رفض (لوسينان) ذلك، واعتـصم بإقطاعه في يافا، قرر مجلس المملكة اخـتيار (ريموند الثـالث) أميـر طرابلس وصيًـا على المملكة، ثم توفى (بلدوين الرابع)، فـأعلن (بلدوين الخامس) الصـغير ملكًـا تحت وصاية (ريموند)، وكان في السـادسة من العمر، كما كان بدوره معتل الصحة، وخشى الوصي أن يموت هذا الطفل بدوره ويتمم به وتعقد الأمور.

كـما كـانت بلاد الشام عـامة في قـحط شـديد تلك السنة ٥٨١-٥٨٢هـ - ١١٨٥م، فطلب من صلاح الدين هدنة لمدة أربع سنوات، فوافق عليها ١١٨٥-١١٨٩م، لأنه كان ينوى تصفية عـلاقاته مع الموصل، ثم مرض وصفى الأمور، فلما عاد إلى دمشق سـمع بأن (بلدوين الخامس) توفى بدوره في أواخر أغسطس ١١٨٦م، وأصبحت الأمور في الـقدس معقدة سببت الصـراع الشديد الذي قام حول الفـوز بالعرش، ولعب أحـد البارونات دورة في إنهـاء (ريموند) الوصي، وإعلان زوجه (لوسينان) ملكة القـدس، بالإتفاق مع بطريرك القدس (وأرناط)، وانشق الأمراء بين فـويد ومعرض، لأن ذلك أعـاد زوجه (لوسـينان) إلى رئاسة الدولة الملكة، وقام فرسـان الداوية بحرسة أبواب المدينة المقدسـة أثناءء تتويجه، فيما تجمع الأمراء الناقمـون في نابلس، لكنهم تسربوا واحدًا بعد الآخر، وقبلوا الوقاع خـوفًا على اقطاعاتهم، ولم يبق علـى إنكار ذلك سوى (ريموند) الوصي

السابق صاحب طرابلس، و(بوهيمند) صاحب أنطاكية، وزاد في حقد (ريموند) أن ملك القدس الجديد بعث يطالبه بحساب البلادو وما انفق أثناء وصايته، وكان من حسن حظ الصليبيين أن هذه الأمور كانت تجري في ظل الهدنة التي كان (ريموند) قد عقدها مع صلاح الدين.

ريموند وصلاح الدين تحالف معهم:

أرسل ريموند إلى صلاح الدين يستنجد به ويرجو مساعدته ضد هذه الأحداث، واستغل صلاح الدين هذه الفرصة أحسن استغلال، فلم يدعها تفوته لكي يعمق الإنفصال بين إمارة طرابلس ومملكة القدس، فوعد (ريموند) بمساعدته ونصرته[(١)].

وقد قال المؤرخون[(٢)]: ضمن له أن يجعله ملكًا مستقلاً للفرنج خاطئه، واتخذ خطوة تجعله يثق به وبوعده، فقد كان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فاطلقهم ففرح (ريموند)، وحل ذلك عنده أعظم محل، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلف كلمتهم، وتفرق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدس منهم.

أصبح (ريموند) قوي العلاقة مع صلاح الدين، يسمع نصائحه، فعادى ملته، وبث السرايات في بلادهم تنهب وتدمر، لأن كان يملك مع زوجته بالإرث مدينة طبرية وما حولها، وكان يخشى اعتداء ملك القدس عليها[(٣)].

اجتمعت لصلاح الدين جميع دلالات العمل، وخيوط اللعبة، كان ذلك في وقد أرسل بعض قواته بالفعل لمعونة حامية طبرية، وكان في نية (غي لوسينان)،

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١، ص٥٢٧).

(٢) ابن الأثير.

(١) انظر: «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٢، ص٧٤-٧٥)، «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص١٨٥).

مهاجمتها بتحريض من فرسان الداوية، ولكن تهور (أرناط) صاحب مطلع ٥٨٣هـ، حتى أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة التي يتذرع بها لنقض الهدنة، الكرك، جعله يسبق ويعطي صلاح الدين الذريعة التي كان يرجوها، والفرصة التي كان يتمناها، فقد كانت قوافل التجارة والمرور والحج، تعبر ما بين مصر والشام والحجاز، تحت ظل الهدنة التي طلبها (أرناط) نفسه، بعد فشل حملته في البحر الأحمر، وكان يستفيد منها بفرض الضرائب والمكوس على عبور صحراء الأردن، ولكن طبيعة أرناط المتهورة والطمع بالنهب تغلبت عيه حين ترامى إلى أسماعه قرب مرور قافلة تحمل بضائع ثمينة، متجهة من القاهرة إلى دمشق أوئل ١١٨٧م، فقطع الطريق عليها، ونهب جميع ما فيها، وألقى رجالها أسرى في سجون الكرك، وعلى الرغم من وجود حامية عسكرية معها، فإنه تغلب عليها، مستعينًا بمجموعة البدو حول الكرك أوائل ٥٨٣هـ.

ولم تلبث أنباء الاعتداء، إلى أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة أرسل إلى (أرناط) ينكر عليه هذا العمل، ويقبح عمله، ويهدده إن لم يطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن (أرناط) رفض استقبال رسله، وأصم آذانه عن التهديد، ويُقال أنه قال للوسطاء: قولوا لمحمدكم يخلصكم، كان رده مستفزًا، فاتجه صلاح الدين إلى ملك القدس (لوسينان)، وأصر على تسليم الأسرى والأموال، فلبى الملك دعوته، لكن تدخل الملك لم يُجد نفعًا، فقد تحداه (أرناط) بالرفض أيضًا، لأنه كان يعتبر نفسه ذا فضل عليه، بتتويجه ملكًا على بيت المقدس.

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض (أرناط)،

وعجز الملك جاي، فأقسم أن ينتقم من (رينولد)، نظرًا لتطاوله وسفاهته، بل أنه نذر دمه وأعطى عهدًا إن ظفر به أن يستبيح مهجته[١].

أوجد هذا الحادث شيئًا من الخوف بين الصليبيين، وآثار التوتر في علاقاتهم مع صلاح الدين، وأسرع (بوهيموند الثالث) أمير أنطاكية، بعقد هدنة منفصلة عنه، فوافق صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية، ويتفرغ للقتال في الجنوب[٢].

ووسع (ريموند) مدى اتفاقيته مع صلاح الدين مضيفًا إليها حماية منطقة الجليل، وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج بين الأردن وفلسطين.

وقد كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الإنطلاق الأولى لمعركة حطين، ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، أتاح له مجالاً للتدخل في السياسة الداخلية للصليبيين، وأن تجديد تحالفه مع كل من (ريموند الثالث)، و(بوهيموند الثالث) حرمًا مملكة بيت المقدس من أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية.

وهكذا نجح صلاح الدين في شق الصف الصليبي، وفي المقابل، فإنه نجح في توحيد الجبهة الإسلامية.

عندئذ أعد صلاح الدين الجيوش الإسلامية في مصر والجزيرة والموصل والشام، معنويًا وعسكريًا للمعركة التي أرادها فاصلة.

أمر صلاح الدين جيوشه فقد فقت عليه من مصر والشام وديار بكر والموصل أواسط مارس ٥٨٣هـ.

---

(١) أبو شامة (جـ ٣، ص٢٧٤)، «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص١٨٥).

(٢) ابن شداد «سيرة صلاح الدين» (ص١٢٦).

وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج في دمشق في شهر المحرم ٥٨٣هـ ـ شهر آذار ١١٨٧م، واتجه من دمشق نحو الجنوب، فوصلت جيوشه وتجمع عند موقع يدعى رأس الماء إلى الشمال الغربي من حوران، وحوران: منطقة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة[١].

وترك ابنه في الموقع لينتظر قافلة الحجيج القادمة من الحرمين عند بصرى، وفيها أخته، فما أطمأن على وصولها في ١١ مايو، حتى يحاصر الكرك لملاقاة جيوش مصر القادمة، وكان حاكم الكرك (أرناط) متربصًا بقافلة الحجاج التي كان في عدادها أخته وابنتها[٢].

كان أرناط قد عزم على أن يقطع الطريق على قافلة الحجاج ـ كما ذكرنا ـ، ففاتته الفرصة، لأن صلاح الدين لقيها بعساكره، وعاد معها إلى رأس الماء.

وفي مهاجمته للكرك دمر (أرناط) الكرك والشوبك كافة، فقد سرح عساكره في المنطقة، فراحوا يعبثون فيها، ثم قصد الشوبك، وفعل مثلما فعل بالكرك، وظل في الأردن، شهري صفر وربيع الأول ٥٨٣هـ ـ شهر نيسان وأيار ١١٨٣م، وكان هدفه حصار هذه المنطقة تعطية للحشود، التي كانت تتجمع حول ابنه الأفضل في رأس الماء[٣].

والواقع فإن مهاجمة صلاح الدين لمنطقة الكرك والشوبك، كانت تهدف إلى تحقيق أمرين:

أولهما ـ التمويه على هدفه الحقيقي، وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس.

وثانيهما ـ إخافة (أرناط)، ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس لنجدتهما[٤].

---

(١) ياقوت الحموي (جـ ٢، ص٣١٧).

(٢) العماد الأصفهاني «الفتح القدسي» ـص٥٨-٥٩).

(٣) المصدر السابق (ص٦٠).

(٤) «الصراع الإسلامي الفرنجي» برهاني دجاني (ص٣٠٦).

معركة عين الجوزة

كانت أوضاع الصليبيين في هذا الوقت متدهورة، فقد توقف التعاون بين (جاي لوزيتان) من ناحية، وأمير طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى، وقد وصل الأمر إلى احتمال حدوث صدام بين (جاي لوزيتان) و(ريموند الثالث)، فجمع (جاي) رجاله وتوجه لهم صوب الشمال إلى الناصرة، لإخضاع الجليل لسيادته قبل أن يبدأ الهجوم الإسلامي، ولم يمنع حدوث الصدام إلا تدخل حاكم الرملة (بالسيان الإبليني) حاكم الرملة، الذي أقنع الملك جاي بمصالحة (ريموند الثالث)، واستشارته حيث أضحت الحاجة ماسة إلى مساعدته، فأرسل إليه وفدًا في طبرية من أجل ذلك.

والحقيقة أنه في الوقت الذي كان فيه أعضاء وفد المصالحة في طريقهم إلى طبرية، كان (ريموند الثالث) يستقبل وفدًا من قبل صلاح الدين يطلب منه السماح لبعض رجاله بدخول أراضيه في طريقهم إلى فلسطين في مهمة استطلاعية، ولربما اختار صلاح الدين هذا الوقت بالذات ليعرقل التفاهم بين (ريموند الثالث) و(جاي لوزيتان)، ولربما أراد أن يغير على عكا[1].

كانت القوى الإسلامية في ١٢ ألف فارس يتبعهم عدد مماثل من المشاة والمتطوعين البدو، ولما كان صلاح الدين حريصًا على تفريق الصف الصليبي، فقد أعطى تعاليمه، وهو مطمئن إلى حياد أمير طرابلس، لأمرائه في الشمال، بعقد هدنة لثمانية أشهر لأمير أنطاكية (بوهيمند).

وتصور بذلك أنه سينفرد بقوى مملكة القدس، وأراد القيام بمظاهرة عسكرية

---

(١) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٢١).

لمعرفة قوى أعدائه التي تجمعت ضده صفورية، والتي لم يبق صاحب قوة في المملكة لم يجتمع إليها، وكان (ريموند) قد وافق على مضض بمرور قوة صلاح الدين، لأنه كان مرتبطًا مع صلاح الدين، ولا يسعه أن يرفض هذا الطلب المثير، والمحرج في الوقت نفسه، ولكنه اشترط أن يجتاز المسلمن الحدود بعد طلوع النهار، وأن يعودوا قبل حلول الظلام، ولا يلحقوا أضرارًا بالمدن التي يمرون بها، وألا يؤذوا أحدًا من سكانها فوافق صلاح الدين على ذلك.

عندئذ أعطى (ريموند الثالث) تعليماته إلى كافة المدن الصليبية الواقعة في إقليم الجليل، مثل طبرية والناصرة، بإغلاق أبوابهما، حتى لا تعطي المسلمين فرصة للاستيلاء عليها.

وعندما جاء الوفد، وفد المصالحة الصليبي إلى طبرية، أطلعه (ريموند الثالث) على اتفاقه مع صلاح الدين، عند ذلك بدأت الخلافات، وبدأت الأحداث توحي بظهور أزمة سريعة حاول فيها كل من: صلاح الدين الأيوبي، (وجاي لوزينان) من خلالها أن يكسبا الوقت والمعركة[١].

أرسل صلاح الدين في أواخر نيسان ١١٨٧م قوة استطلاعية من بضعة آلاف، يقودها أمير حران (مظفر الدين كوكبرى)، وأمير عسكر حلب (بدر الدين الياروقي)، و(صارم الدين قايماز النجمي) أمير عسكر دمشق، للإغارة على إقليم عكا، وكان لابد لهذه القوة من المرور بالجليل أي: في أراضي (ريموند) الحليف المحايد.

وصلت أخبار قوة صلاح الدين لفرسان الداوية والاستبارية الذين جاءوا طبرية (لريموند الثالث) ضمن وفد المصالحة، فقد أخبرهم (ريموند) بتلك الأخبار، وكانوا قرب صفورية، علموا بدخول قوة إسلامية إلى المنطقة،

---

(١) «الصراع الإسلامي الفرنجي» دجاني وآخر (ص٣٠٧).

فاستعدوا بسرعة لمواجهتها، وحدث الصدام عند عين الجوزة بين صفورية وكفركنة، وهو بلد في فلسطين[١]، بالقرب من حطين، وأسفر الصدام عن انتصار المسلمين، وقُتل الكثير من الفرسان الصليبيين كانت من بينهم (روجر) مقدم الاستبارية، و(نجا جيرار دي ردفورت) مقدم الداوية، و(بالياف الإبليني)، و(رينولد) صاحب صيدا، وعندما توجهت قوة صليبية إلى صفورية لنجدة إخوانهم، كانت المعركة قد انتهت[٢].

لم ينج من الصليبيين في هذه المعركة سوى خمسة منهم مقدم الداوية ـ كما ذكرنا ـ، وقيل: أن النجدة التي جاءت بعد إنتهاء المعركة أبيدت عن آخرها أيضًا، وعادت حملة صلاح الدين تحمل رؤوس الفرنج على أسنة الرماح.

وقد ذكر المؤرخون أن هذه المعركة، وهذا النصر المحدود الذي حدث فيها كان مقدمة لمعركة حطين.

ويبدو أن ريموند الثالث ندم بعد ذلك للسماح لعسكر صلاح الدين، ولم يشأ الفرنج أن يتركوه ينفرد عنهم، فأرسلوا إليه الرسل من القسس والرهبان مع بطريرك صور، وبعض الفرسان، ينكرون عليه موقفه المجامل للمسلمين، وسماحة بمرورهم في أرضه، وذكروه بالقتلى والأسرى الذين وقعوا نتيجة لذلك، وتهدده البطريرك بالحرمان والفصل بينه وبين زوجته، فلما رأى شدة الأمر خاف، فاعتذر وتنصل وتاب، وكانوا قد قدموا عليه لهذا الطلب، ودعوه للإنضمام إليهم، فسار معهم إلى ملك الفرنج في عكا، فقدم له هؤلاء، وضم جيشه إليهم في صفورية، أما أمير أنطاكية، فلم يكن معهم، ولكن ابنه البكر هو الذي كان معهم واشترك في المعركة.

---

(١) ياقوت الحموي (جـ ٤، ص٤٧٠).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٢١).

بعد ذلك اتجه كل طرف من الفريقين المتحاربين إلى الاستعداد للمعركة الفاصلة، ودراسة خططه، ومحاولة معرفة خطط عدوه، كل يريد النصر في هذ المعركة الفاصلة.

استعدادات قبل المعركة الفاصلة:

عسكر الصليبيون في صفورية بالقرب من عكا، وحملوا معهم صليب الصلبيون تبركًا، وعندما علم صلاح الدين أن (ريموند الثالث) نقض الهدنة والإتفاقية المعقودة معه، غادر الأردن مسرعًا في سير متواصل، إلى أن وصل إلى عشترا في حوران، فاجتمع بابنه الأفضل وشاهد جيوشه البالغة إثنى عشر ألفًا من الفرسان بالإضافة إلى المشاة والمتطوعين، وقد اجتمعوا جميعًا، فعبأهم استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة، ثم توجه إلى طبرية يوم الجمعة في ١٧ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ - ٢٦ حزيران ١١٨٧م، وكان يقصد بوقعاته أيام الجُمع، لاسيما أوقات الصلاة، لأنها فيها ساعة إجابة، وتبركًا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة[١].

أقام صلاح الدين في الأقحوانة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، مدة خمسة أيام ثم ارتحل عنها باتجاه الغرب، للوصول إلى القرية الصغيرة الواقعة عند التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية[٢].

وقد ذكر الدارسون لموقعة حطين[٣]: أن اختيار صلاح الدين لهذا الموقع عند قرية الصفيرة الواقعة عند التلال المحيطة من بحيرة طبرية، أن اختيار هذا الموقع

---

(١) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٢٧).
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: «يوم حطين» لمحمود الرساوي (ص٣٤).

محفوف بالمخاطر، من جهة أنه أهمل طريق الإنسحاب في حالة الهزيمة المحتملة، وحشر نفسه وجيشه بين البحيرة والعدو، كما كان ذا فائدة للمسلمين من جهة أخرى، إذ يحول دون وصول الصليبيين إلى ماء نهر الأردن أو مياه الينابيع الموجودة في الوديان التي تنتهي في البحيرة، وتمر عبر التلال التي غدت تحت سيطرة المسلمين[١].

وأرسل من هذا المكان جواسيسه والكشافة لجمع المعلومات عن جيش العدو، ليبدأ مع قادته بوضع الخطط، فعلى الرغم من نيته الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إلا أنه أراد أن يثيرهم ليدفعهم إلى ترك مراكزهم عند صفورية، والزحف إليه حتى يصلوا متعبين، ويكون هو مدخرًا جهده، كما أمل بإثارة (ريموند الثالث) المشهور بشدة الغيرة، فبدأ يتصرف على محورين:

أولهما - أرسل قوة عسكرية هاجمت مدينة طبرية، ودخلتها في ٢٣ ربيع الآخر - ٢ تموز، لكن استعصت عليها القلعة التي احتمت بداخلها (اسكيفا) أميرة طرابلس، و(الجليل)، وزوجة (ريموند الثالث)، وقد أخطرت زوجها بما حدث.

ثانيهما - أنه كان حريصًا على السير ببعض جنوده كل صباح بحيث يراه الصليبيون، ويشرف عليهم[٢].

وقد اربكت هذه الخطوات القيادة الصليبية، ودفعت الملك (جاي لو زينان) إلى عقد مجلس الحرب للتشاور في تحديد الخطوة التالية، وكان الصليبيون آنذاك بصدد إحدى خطتين[٣]:

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٢٣).
(٣) تاريخ الأيوبيين» د. محمد سهيل طقوش (ص١٤٧).

الأولى- هجومية: تقدم بها (أرناط)، وتقضي بالقيام بهجوم عام ضد قوات صلاح الدين، والاشتباك مع العدو في معركة حاسمة.

الثانية- دفاعية: تقدم بها (ريموند الثالث)، والذي يحمل خبرة جغرافية للمنطقة، وبتوجه المسلمين العام، فقد نصح الملك بألا يتحرك من موضعه، بل إنه يجب عليه الإرتداد إلى المدن الساحلية الحصينة، وإن يترك لصلاح الدين اجتياز الهضبة، وأشار بأن الصليبيين آمنون في صفورية الغنية بالماء، ويعسكرون في مكان مرتفع، يصعب وصول القوات الإسلامية إليه من دون خسائر فادحة أو هزيمة، كما أنها تقع في قلب المملكة اللاتينية على مقربة من عكا الساحل، بحيث يصلها الإمداد بسهولة، وأن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة، لن يكون بوسع صلاح الدين أن يبقى على قواته الضخمة مدة طويلة في ظل أجواء الحرارة اللافحة، وسوف ينسحب بعد مدة وجيزة، إذا لم يستفزه الصليبيون، لذلك ينبغي أن تقوم خطة الصليبيين على الدفاع المطلق[1].

رفضت هذه الخطة من (أرناط)، و(جيرار) مقدم الداوية والذي يعادي (ريموند الثالث)، صاحب الخطة الدفاعية، واتهم (أرناط) و(جيرار) (ريموند) بالخوف والجبن، وأصر على القيام بهجوم عام على القوات الإسلامية، واستطاعا إقناع الملك بالأخذ برايهما.

ويقول ابن الأثير: فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام[2].

---

(١) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص٢٤).

وأصدر الملك (جاي لو زينان) الأوامر إلى الجند بالمسير، فاتخذ الجيش الصليبي الذي بلغ تعداده زهاءً خمسين ألفًا.

في الصباح الباكر من يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر ـ ٢ تموز، شرقًا نحو طبرية يتقدمه (ريموند الثالث) لأن الجيش يجتاز إمارته[١].

بهذا التهور الواضح، والسياسة العسكرية الفاشلة لدى القيادة الصليبية المتزمتة والمتعصبة، وقع الملك تقريبًا ومملكته وجيشه الصليبي في فخ صلاح الدين، ويبدو أن صلاح الدين كان يريد استدراجهم لما ذهبوا إليه من اندفاع وتهور، فقال معلقًا: «قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أسرتهم، فطبرية وجميع الساحل وما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع»[٢].

وسبب ذلك أن مغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية، كانت هدفًا لصلاح الدين، عندما هاجم طبرية، لأن صفورية تشتهر بغزارة مياهها حتى في فصل الصيف، وكان بإمكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين، لو مكثوا فيها، كان فخًا رائعًا يدل على سياسة صلاح الدين الحكيمة التي من خلالها أخرج عدوه إلى ساحات القتال الواسعة بظروف ملائمة له وليست ملائمة لعدوه، وقد واجه الجيش الصليبي بخروجه من صفورية مصاعب جمة، منها:

١ ـ شدة الحرارة في جو صيفي، حيث خرجوا في شهر يوليو.

٢ ـ نقص الماء وشعور الجند بالعطش في طريق صعب يبلغ طوله ستة عشر ميلاً.

---

(١) «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني (ص٧٤).

(٢) المصدر السابق.

٣- الروح المعنوية المنهارة بسبب انقسام القادة في الرأي، بين مؤيد للزحف ومكره عليه.

٤ - هجمات المسلمين المتلاحقة على ميمنة وميسرة الجيش، طوال الطريق وبصورة خاطفة وسريعة.

وقد ركزت الهجمات الإسلامية غاراتها على الخيالة الصليبية الثقيلة، والتي تعد بمثابة سلاح المدرعات في ذلك الوقت، فلم تنقطع غارات المسلمين عليهم أثناء زحفهم من صفورية إلى حطين، وراح المسلمون يضربون خيولهم، فقضوا على قسم كبير منها، كما لم يتركوا مجالاً للراحة، يضربونهم ويختفون، ثم يظهرون ثانية، مما زاد في أرباكهم واضطرابهم.

وقد هدف الجيش الصليبي الأول الوصول إلى ينابيع الماء، ولكن إن وصلوا إلى سطح جبل طبرية الغربي المشرف على سهل حطين، حتى وجدوا صلاح الدين قد دمر صهاريج الماء في منطقة، ونشر رجاله حول البحيرة ليسد الطريق أمامهم، ويمنعهم من الوصول إليها، وكان العطش سلاح فتاك استخدمه صلاح الدني، ومن شدة العطش حاول الصليبيون الوصول إلى كفر حطين، لكن القوات الإسلامية سدت أمامهم جميع المنافذ الموصلة إليها، فاضطروا إلى التوقف من التعب والعطش في مسكنة[1].

وقرروا المبيت فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين، ولم يستطيعوا الصدام معهم أو مواجهتهم كما ينبغي.

وارتحل صلاح الدين في هذه الأثناء من الأقحوانة، ونزل في كفر لوبيا[2].

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٢٤).

(٢) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٢٨).

المعركة الكبرى

كان الوقت مبكرًا في صباح يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر ـ ٣ تموز، حين اكتشف الصليبيون أنهم محاصرون بعيدًا عن الماء، فاندفعوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة هائلة اشتد فيها القتل والضرب، فحصد المسلمون رؤوس أعدائهم حصدًا، وكانت معركة رهيبة، انتصر فيها الجيش الإسلامي إنتصارًا عظيمًا، وهاجمت في بداية القتال قوة صليبية، بقيادة (ريموند الثالث) المسلمين، في محاولة لإحتلال الممر المؤدي إلى قرية حطين، حيث بعض ينابيع الماء والآبار، فانفصلت عن باقي الجيش الذي كان يتبعها، وعندما وصل أفرادها إلى الممر وجدوا أنفسهم مطوقين من جانب المسلمين، فحاولوا شق طريق لهم عبر صفوف المسلمين، لكن الرماة رموهم بالنبال، فلقى عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

وفي الوقت الذي كان فيه (ريموند الثالث) مطوقًا من قبل المسلمين، كان قلب الجيش بقيادة الملك، يستعد للقتال، وعندما بدأ الإقتحام والإلتحام، هجم فرسان الدواية والاستبارية بقوة، فقتلوا بعض المسلمين، وتسببوا في إنسحاب البعض الآخر، إلا أنهم لم يستثمروا انتصارهم الجزئي هذا، لأن المشاة قصروا في مجاراة الفرسان، لأنهم كانوا مرهقين، وانسحبوا إلى تلة هي إحدى قرون حطين، ويلاحظ هنا أن انهيار المشاة يُعد سببًا بارزًا في تراجع القوة الصليبية، وتفكك الجيش.

اضطرب الملك وأصابه الذعر عندما رأى حال جيشه، فحاول أن يعيد الثقة إلى المشاة، ويردهم إلى مواقعهم، لكنه فشل، ومع انسحاب المشاة انكشف قلب

الجيش الذي تعرض لضربات المسلمين، ولم يستطع أفراده الرد عليها لأنهم كانوا هم أيضًا مطوقين بالمسلمين، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين لخوض معركة ناجحة[1].

لجأ الملك الصليبي إلى محاولة نصب خيمة تكون مركز لإعادة التجمع، بعد ما رأى الفوضى العارمة التي أصابت جيشه.

أما (ريموند الثالث)، فقد أيقن أن المعركة في صالح المسلمين وصلاح الدين، قبل أن تنتهي نظرًا للتدهور العسكري الذي أصاب القوات، ولذا حاول النجاة بنفسه من ميدان المعركة، فحاول الإنسحاب، لكنه أخفق، ثم علت الصيحات بين صفوف الصليبيين، تقول: من كان منكم يستطيع الهرب فليهرب، لأن المعركة ليست في جانبنا، لكن الهرب أصبح صعبًا.

وحاول (ريموند الثالث) مرات فك الطوق عن قواته والإنسحاب من المعركة عن طريق القيام بصدمة الجناح الإسلامي المقابل له، بقيادة (تقي الدين عمر)، وقد نجحت خطته عبر ثغرة فتحها له القائد المسلم، وبعد أن اخترق صفوف المسلمين، أغلق القائد المسلم الثغرة، فانسحب من ساحة القتال، واتخذ طريقه إلى صور، ومنها: إلى طرابلس.

ودخل فرسان الداوية والاستبارية يقاتلون، في الوقت الذي فقدوا فيه الأمل بأي إنتصار.

حسم المعركة:

أصدر صلاح الدين أمرًا إلى ابن أخيه (تقي الدين عمر) أن يهجم مع خيالته

---

(١) «تاريخ الايوبيين» د. محمد سهيل طقوش ص١٥٠).

على الصليبيين الذي تمزقت صفوفهم، واختل نظام جيشهم، واشعل المسلمون خلال ذلك النيران في الأعشاب الجافة والأشواك، فحملت الريح لهيبها ودخانها باتجاه الصليبيين، فزادت معاناتهم، واجتمع عليهم العطش، وحر الزمان والنار، والدخان والسيوف، وأدى ذلك إلى فرار من بقى منهم من ساحة المعركة، إلى إحدى قرون حطين، حيث شاهدوا تقي الدين عمر يقبض على صليب الصلبوت، فاسقط في أيديهم، وكانت أكبر خسارة تكبدوها.

وفي وصف جزء من المعركة، يقول أحد المؤرخين[١]، حين سمع صلاح الدين عسيرهم قال: «جاءنا ما كنا نريد»، واجتمع أصحابه وأشاروا عليه بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقي بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد والاجتهاد والجهاد، وقال للجند: «لا تقاتلوا عني، ولكن قاتلوا في سبيل الله».

وتوضَّع الجيش الصلاحي فيما بين بحيرة طبرية، والآكام المشرفة عليها، ووجد الجيش الفرنجي الزاحف العطش لشدة الحر، ولم يكن في طريقهم ماء، وقد أفنوا ماء الصهاريج، فوصلوا لمواجهة جيش صلاح الدين، وباتوا وهم عطاش، وفي الصباح حاول بعض فرسانهم الوصول إلى الماء، فصدهم كثرة السهام والنشاب وقتلت الخيل، وكان صلاح الدين قد وزَّع النشاب في العسكر، وترك لمجموعاته مستودعات احتياطية منه.

وانتصف النهار، والحر الشديد يصهر الفرنج، والقتال محتدم، ومر اليوم الأول، وقد بلغ الجهد من الفرنجة كل مبلغ، وأدرك القمص أن المعركة إذا دامت

---

(١) «صلاح الدين» د. شاكر مصطفى ·ص٢٦٣).

بهذا الشكل خاسرة، فحمل على المسلمين ناحية الغرب، فشق له (تقي الدين عمر) الطريق، فهرب بأصحابه، ولم يلحقه المسلمون لإنشغالهم، ودامت الحرب في الليل، فانحازت كتلة الجيش الفرنجي إلى موقع جبلي ذي قمتين، اسمه حطين، ولهذا سُمِّي باسم «قرون حطين»، فألقى بعض المتطوعة النار في النباتات اليابسة، فاحترقت، وكان المسلمون يطوقون موقع الفرنج، ويزحفون مكبرين مهللين إليهم، فاجتمع حر النار إلى حرارة تموز إلى حرارة العطش، على جند الفرنجة، فكانوا رغم المقاومة القاسية يتساقطون من الإعياء، ولم يتمكنوا أن ينصبوا على الجبل إلا خيمة الملك، وأمامها صليب الصلبوت بيد البطريرك، فلما سقطت الخيمة عرف صلاح الدين أنه انتصر وسجد شكرًا لله، وصار يبكي من الفرح، آخر جمادى الأولى ٥٨٣هـ - ٧:٣ تموز (يوليو ١١٨٧م.

كانت ساحة المعركة ملأى بالجثث والدماء والأشلاء المبعثرة من بقايا الدواب والأسلحة والفرسان، فيما كان الأسرى يلتقطون بالمئات، ويُساقون فوق الأغنام كالأغنام الطيعة.

كان من يرى القتلى لا يظن أن أحدًا أسر، ومن يرى الأسرى لا يظن أن أحدًا قُتل، خسر الفرنج في هذه المعركة جيشهم كله، وكانوا في حوالي ثلاثين ألفًا، وخسروا ما هو أهم، وهو الرهان على بقاء الإمارات الصليبية في المشرق أو زوالها.

نزل صلاح الدين في خيمته، وسيق كبار الأسرى إليه: ملك الفرنج (غي لو زينان)، و(البرنس)، و(أرناط)، (البطريرك)، صاحب جبيل، وابن (هنغري)، ومقدم الداوية، وكبار الاستبارية، وقد ارهقهم العطش، فاستقبلهم صلاح الدين، وقدم الماء المثلج للملك، وأخرجهم إلى دهليزا الخيمة، واستدعى

(أرناط) فندد به، وذكره غدره ونكثه وجرائمه، وأعـماله ضد الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم وفى نذره وقتله بيده، فلم جروا أشلائه من الخيمة ارتاع الملك.

ونترك المؤرخ أبو شـامة المقـدسي يتحدث عن هذا المـوقف، فيقـول: وأما البرنس (أرناط) فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشربك، فقـد راجعًا من الديار المصرية في حـالة الصلح، فنزلوا عنده بالأمان فـغدر بهم، وقـتلهم فناشـدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فـقال مـا يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ: قولوا لمحمدكم يخلصكم.

وبلغ السلطان فحمله الدين والحمية، على أنه نذر إن ظفر به قتله، فما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليزا الخـيمة، فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجوده من المقدمين، ونصب الخيمة، وجلس فرحًا مسرورًا شاكر لما أنعم الله به عليه، ثم استـحضر الملك (جفري)، وأخاه البرنس (أرناط)، وناوله شـربة من جلاب ـ وهو شـراب يتخـذ من التمـر مع الزبيب ـ مثلجًا فشـرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعـضها البرنس (أرناط)، فقـال السلطان للترجـمان: قل للملك أنت الذي تسـقيـه، وإلا أنا ما سقيته، وكان على جميل عـادات العرب، وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسـره أمن، فقد بذلك الجري على مـكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهـم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا ليأكلوا شـيئًا، ثم عاد واستحضرهـم، ولم يبق عنده أحد سـوى بعض الخدم، فـأقعد الملك في الدهليـزا، واستحـضر البرنس (أرناط)، وأوقفـه على ما قال، وقال: ها أنا انتصـر لمحمد ﷺ، ثم عرض عليـه الإسلام، فلم يفـعل، ثم سل البيـمجاة ـ وهي السـيف القصـير ـ وضربه بهـا، فحل كتفـه، وتمم عليه من حضر، وعـجل الله بروحه إلى النار،

فأخذ ورمي على باب الخيمة، فلما رآه الملك، قد أخرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به، فاستحضره وطيب قلبه، وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حده، فجرى ما جرى.

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور وأكمل صبور، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد، فنزل ـ رحمه الله ـ على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء[1].

أمر صلاح الدين بعد ذلك بسوق الجميع إلى دمشق، وزحفت الناس بالأسرى، فما من جند إلا وعنده الواحد والعشرة والعشرون يسوقهم مربوطين بعود الخيمة، ورخصت أسعارهم بسبب الكثرة، فبلغ سعر الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، وباع أحدهم أسيره بحذاء، أما أسرى الداوية والاستبارية، فقد أمر صلاح الدين بقتلهم، لأنهم ألد الأعداء، ولا ينفعون في الخدمة.

كانت حطين نصرًا عظيمًا على الأطماع الظالمة والاستيطان الجشع، حررت بلاد المشرق العربي وأرضه من المجموعات البشرية التي جاءت لتحتله ولتبقى فيه، فقد كانت هذه المعركة هي المؤشر الأول والأساسي لرفض استقراء الغرباء على هذه الأرض، ولم يفقد الفرنج جيشهم فيها فقد، ولكن زهرة شبابهم ورجالهم أيضًا[2].

وقد انتصر صلاح الدين والمسلمون في حطين، لأنهم أعدوا أنفسهم إعدادًا نفسيًا وماديًا ناجحًا، بدت فيه آثار وحدة الصف الإسلامي، وتوجيه المسلمين نحو الهدف الإسمي، ومن الأسباب التي ساعدت على تحقيق النصر في هذه المعركة الفاصلة، ما يلي:

١ ـ سياسة صلاح الدين الناجحة، والتي استخدمها في شق الصف

(١) «مختصر كتاب الروضتين»، اختصار د. محمد بن حسن بن عقيل موسى ـ دار الأندلس جدة (ص٢٣٣).
(٢) «صلاح الدين» د. شاكر مصطفى (ص٢٦٤).

الصليبي، والتحالف مع قوى كبرى منهم، مثل (ريموند الثالث) صاحب طرابلس وبيروت والجليل وطبرية، وكما رأينا فإن هذا قد سهل العبور إلى أراضي مملكة بيت المقدس دون أن يدري أنه أتاح له تدمير هذه المملكة.

٢ ـ خطط صلاح الدين العسكرية الجيدة، وتنفيذ سياسة حكيمة، فقد أحسن اختيار أرضي المعركة، وحدد زمان وقوعها في شهر يوليو في شدة حره، واختار مخيم عسكره عند طبرية، بالقرب من الماء والظل، وبذلك حال دون الصليبيين والماء، فكان الحر والعطش من الأسلحة التي استخدمها ضد عدوه.

٣ ـ مشاركة صلاح الدين بنفسه في المعركة، مما دفع جنوده إلى الاستبسال في القتال، وتحقيق النصر.

٤ ـ وجود شبكة مخابرات قوية تمد صلاح الدين بالمعلومات أولاً بأول، من بين صفوف الصليبيين، فكانت أخبارهم تصل إليه بسرعة وباستمرار[١].

وقد كانت معركة حطين نجاحًا للمسلمين في القضاء على فكرة الاستيطان والاستقمار، وكانت درسًا قاسيًا للصليبيين يرقى إلى درجة الكارثة حلت بهم.

كما أوقفت المد الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي، وبداية النهاية للوجود الصليبي في هذه المنطقة.

وقد أنهت معركة حطين زهاء تسعة عقود من الإضمحلال والتدهور والتشرزم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا، وفي مصر وفي مواجهة كل الأخطار.

توج النصر في حطين مسيرة صلاح الدين، ووضعه في صفوف كبار المجاهدين، والقادة والحكام المسلمين، كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس والكرامة، التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة (نور الدين محمود).

---

(١) «الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين» برهان دجاني، وهاوية شكيل (ص٣٠١).

وقد كان لإنتصار صلاح الدين في حطين صدى بالغ في المسلمين بعامة، وأهالي دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله ومقره، وفيها قضاته وكتابه الذين كانوا طوال المعركة ساجدين لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه، وكما علموا بالإنتصار، عبَّروا عن فرحتهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله.

وقد فتحت معركة حطين طريق النصر إلى بيت المقدس، وقد وصف ابن واصل معركة حطين بقوله: كانت موقعة حطين، مفتاح الفتوح الإسلامية، وبها تيسر فتح بيت المقدس[1].

وقال: وتعد حلقة وسطى بين فتوحات (نور الدين محمود)، و(ركن الدين بيبرس البندقداري)، منذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدَّس روحه، فلم يؤيَّد الإسلام بعد الصحابة ﷺ برجل مثله، ومثل (نور الدين محمود زنكي) ـ رحمه الله عليهما ـ، فهما جددا الإسلام بعد دوسه، وشيَّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر (ركن الدين بيبرس)، وكان أمره أعجب، إذا جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وجمع شمل الناس أي لا انتعاش للملَّة، فبدد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنجة أكثر الحصون الساحلية[2].

وبينت أحداث معركة حطين أهمية مصر كقاعدة بشرية ومارة مهمة في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلت أهمية أرض فلسطين التي تعد بمثابة الجسر، أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر[3].

---

(١) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص١٨٨).
(٢) المصدر السابق (جـ ٢، ص١٩٣).
(٣) «معركة حطين» صفي الدين أبو الفر (ص١٣٦).

بين صلاح الدين في معركة حطين أهمية توظيف الموقع الجغرافي لمنطقة الشرق الإسلامي، واستثمار ميزات الموقع، بحيث يكون سهلاً فاعلاً يمكن من عوامل القوة الذاتية[1].

وقد صنع هذا الإنتصار رهبة لاسم صلاح الدين في قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت من به فتوحاته من النبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم، أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تذكر، وقد أظهر صلاح الدين رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه الأخلاق والتوجيهات مارست جيوش ضبط النفس عند النصر، وتجنب ارتكاب الأعمال الوحشية الفاحشة في هذا الوقت.

وقد تحدث مؤرخوا الفرنجة عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الفرسان في بيت المقدس، فكتب أحدهم يسمى (أرنول): لقد أعطاهن الكثير، لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرن في الخارج الكثير، عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين.

كما أكرم (أسكيفا) زوجة (ريموند الثالث)، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس، وكان (باليان الإبليني) من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده في بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) العماد الأصفهاني (ص٨٥).

وأصبحت بلاد الشام بعد انتصار حطين ممهدة للفتح، فشرع يفتح سائر المدن والقلاع الصليبية واحدة بعد أخرى فتحًا سريعًا مواصلاً بعد أن أضاعت معركة حطين هيبة الصليبيين، ومملكة بيت المقدس على وجه الخصوص بعد أسر ملكها (جاي لو زينان)، وقد جاءت عبارة: فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن شاهد الأسرى قال: ما هناك قتيل[(١)].

جاءت لتعبر عن مدى الخسارة التي تكبدها الصليبيون، مما سبب لهم نقص ملموس في الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين قتلى وأسرى.

ما بعد حطين:

شرع صلاح الدين بفتح المدن والحصون الصليبية واحدة تلو الأخرى فتحًا سريعًا ومتواصلاً، مركزًا ضرباته على الموانئ الصالحة، وكانت عملية الفتح سهلة بسبب ضعف المقاومة، مما يسر للمسلمين الانتشار والتقدم.

فحين فرغ صلاح الدين من حطين، خيَّب ظن الفرنج، فلم يذهب لأخذ القدس مباشرة، ولكن توجه إلى عكا يتسلم الموانئ التي يأتي منها مدد السلاح والرجال إلى الفرنج، وخرج أهلها يتضرعون إليه كما سنرى.

لقد بدا صلاح الدين بعكا فسار إليها يوم الأربعاء ٢٨ ربيع الآخر - ٨ تموز[(٢)].

وقد شبه الرحالة ابن جبير عكا بالقسطنطينية، نظرًا لأهميتها وعظمتها، فقال: إنها قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر

---

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل (جـ ٢، ص١٩٣).

(٢) ابن شداد - «سيرة صلاح الدين» (ص١٣٢).

كالأعلام، ومرفأ كل سفينة، شوارعها تغص بالزحام، وهي ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق[1].

وكانت اهتمام صلاح الدين بعكا، يرجع إلى أن فتحها سوف يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا، فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام، فلا يستطيع القضاء عليهم، وفتح عكا وغيرها من الموانئ، ستمكن صلاح الدين من تحقيق الإتصال البحري بين شطري دولته في مصر وبلاد الشام، مع ما ينتج عن ذلك من تدعيم موقفه.

وقد كان يحكم عكا أحد الأمراء الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين، وهو (جوسلين الثالث كورتناي)، ويبدو أن (جوسلين) هذا كان عاجزًا عن المقاومة، إذ لم تكن مقدمة الجيش الأيوبي تقترب من المدينة، حتى عرض التسليم على المسلمين، فأرسل أحد سكان المدينة، ويدعى (بطرس برايس) إلى صلاح الدين ومعه مفاتيح المدينة، فالتقى به عند وصوله إلى أسوارها، في ٢٩ ربيع الآخر - ٩ تموز، وعرض عليه تسليم المدينة إذا كفل حياة السكان وأمتهم.

أثار هذا الاستسلام بعض سكان المدينة، وقد رأوا في هذا التصرف نذالة وعارًا، وعزَّ عليهم تسليم مدينتهم للمسلمين دون مقاومة، فقاموا بأعمال الفتنة، وأشعلوا النار في بعض أحياء المدينة، لكن الفتنة لم تستمر طويلاً.

عمومًا فقد وافق صلاح الدين على عرض (جوسيلين)، ودخل المدينة يوم الجمعة في مستهل جمادى الأولى - ١٠ تموز، واستولى المسلمون على ما فيها من الأموال والذخائر، وأطلقوا من فيها من الأسرى المسلمين، وعددهم أربعة

---

(١) ابن جبير (ص٢٧٦).

آلاف، وصلى صلاح الدين صلاة الجمعة في جامعها القديم الذي حوله النصارى إلى كنيسة، ثم أقطعها لابنه الأفضل (نور الدين).

ثم توجه صلاح الدين بعد فتح عكا، إلى التفكير في فتح المعاقل القريبة، فأقام في ظاهر مدينة عكا في مخيمة، وبدأ في إرسال الفرق لفتح مدن الجليل، فوجه ابن أخته (حسام الدين محمد بن لاجين) إلى سبسطية، فحاصرها وقاومته حاميتها، فاستنجد بخاله، فسار صلاح الدين بنفسه إلى سبسطية، وضيق الخناق عليها حتى استسلمت في جمادى الآخرة - أواخر تموز، وفتح مدينة نابلس صلحًا، فأمن السكان على أموالهم وأملاكهم وأرواحهم[1].

وفي الوقت الذي أنجز فيه صلاح الدين فتح سبسطية ونابلس، كان ابن أخيه المظفر (تقي الدين عمر)، يحاصر تبنين، ولما لم يتمكن من فتحها، كتب إلى عمه يستدعيه ليتولى أمر فتحها، فخرج مستجيبًا لنداء ابن أخيه المظفر، وحاصرها حصارًا شديدًا حتى اضطرت حاميتها إلى طلب الأمان بعد أسبوعين، فتسلمها يوم الأحد في ١٨ جمادى الأولى - ٢٧ تموز، بعد أن استمهله الصليبيون خمسة أيام ليخرجوا بأموالهم، وقد بذلوا له رهائن من مقدسيهم وأعيانهم، وتقربوا من صلاح الدين، بإطلاق ما كان عندهم من الأسرى المسلمين، فخرجوا إلى صور[2].

وفي أواخر شهر شوال - شهر كانون الأول، أرسل صلاح الدين قوة عسكرية هاجمت هونين، وفتحتها - وهي بلد في جبال عامله، مطلة على نواحي مصر -[3].

---

(١) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» (ص٩٥).

(٢) المصدر السابق (ص١٠٠).

(٣) الحموي (جـ ٥، ص٤٢٠).

وتعد هذه القلعة ـ هونين ـ من أحصن القلاع وأمنعها[١].

واتجهت قوة أخرى لمهاجمة كل من صفر الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، وكانت تحت حكم الداوية، وكوكب الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، وكانت تابعة للاستبارية، وأرسل صلاح الدين، مظفر الدين كوكبوري إلى الناصرة وصفورية ففتحها، ووجه (بدر الدين بلدروم)، وغرس الدين قلج إلى قيسارية، ففتحاها عنوة وبالقوة[٢].

وكان صلاح الدين قد وجه رسالة إلى أخيه العادل في مصر، يبشره بالنصر في حطين، ويأمره بالمسير من ناحيته لمحاصرة ما يليه من المدن والحصون الصليبية، فهاجم حصن مجدل بابا، الذي يقع بين يافا ونابلس، وفتحه، ثم سار إلى يافا نفاسها، فقاومته، إلا أنها سقطت أخيرًا في يده[٣].

الطريق من حصن تبنين إلى صور:

سار صلاح الدين إلى حصن تبنين العصى، فاستسلم حماته وسيَّرهم إلى أهليهم، ثم زحف إلى صيدا، وأخذ في طريقه بيروت وهرب صاحب صيدًا، فاستسلمت، وقاومت بيروت أيامًا، ثم خضعت بالأمان، واستعصت جبيل رغم أن والد صاحبها كان أسيرًا لدى صلاح الدين، فرفض تسليمها ولو قتل أبوه، فتركها صلاح الدين، وأطلق سراح أبوه الأسير، وأمر أسطول مصر بالخروج لقطع طريق البحر على الفرنج، واتفق في تلك الفترة بالذات أن وصل عكا نبيل فرنجي أمير، وهو (دي مونتفرات)، ويسميه العرب (المركيش)، فدخلها بتجارته

---

(١) «مفرج الكروب» (جـ ٢، ص٢٤٧).

(٢) العماد الأصفهاني (ص٩٤).

(٣) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٢٨).

وماله وسفينته، فرأى فيها من الناس ما استغربه، ثم عرف بهزيمة الفرنج، فاحتال حتى هرب بسفينته إلى صور، وقد تجمع فيها معظم الفرنج في خلق كثير، وهم عازمون على التسليم، فلما وصلهم اجتمعوا إليه، فشد عزائمهم وتسلم زعامة البلد، وشرع في تحصينها، وحدد حفر خنادقها، وأسوارها، وهي شبه جزيرة في البحر، وحمايتها سهلة من البر، فتركها صلاح الدين، وفي ظنه أنها ليست أهم من عسقلان، التي ربط تربط مصر والشام، ولا أهم من القدس وهما هدف هذه المعارك كلها، ومهوى أفئدة المسلمين، لذلك اتجه من بيرت إلى عسقلان، واستقدم ملك الفرنجة، ومقدم الداوية من دمشق، ليطلبوا من حماتها التسليم مقابل فكاكهم من الأسر، فرفضت الحامية بأقبح رد، وأضرم فيها النار حتى استسلمت بالأمان بعد ١٤ يومًا، ثم بث السرايا، ففتحت الرملة، والداروم، وغزة، والخليل، ويني، وبيت لحم، والنظرون، وكل ما كان للداوية من القلاع، وتفرغ بعد ذلك لبيت المقدس، في رجب ٥٨٣هـ ـ أيلول (سبتمبر) ١١٨٧م.

كان في هذه المدينة بطريرك القس، وملكتها، و(باليان بن بارزان) صاحب الرملة، والفرسان الذين نجوا بالهرب من حطين وعسقلان، والمدن الأخرى التي استسلمت، وكثير من الخلق، لدرجة أنَّ الطرق اكتظت بهم، وكلُّهم يفضل الموت على التسليم بالقدس، وبقى صلاح الدين خمسة أيام يعرض السلم عليهم مرتين، ويطوف حول المدينة ويسمع الجلبة والضجيج فيها، والسور في غاية الامتناع، ثم بدا رمي المنجنيق، وخيَّاله الفرنجة يخرجون كل يوم، فيقاتلون في ظاهر البلد، ثم يرجعون، فحمل المسلمون مرة واحدة عليهم حتى أزالوهم، ووصلوا الخندق فجاوزه، وبدؤوا نقب الأسرار، فلمَّا رأى الفرنجة عبث المقاومة خرج وفدهم يفاوض على التسليم بالأمان.

وكان صلاح الدين حزينًا على مقتل أميرين من كبار أمرائه، فرفض إلا أن يذيقهم ما فعلوا بأهل القدس يوم دخلوها من المذابح، ثم ابن (بارزان) يطلب الأمان لنفسه، فرفض، فلما يئس قال: إذا كان لابد من الموت، فإنا نقبل أطفالنا ونساءنا وندمر الصخرة، وقبتها والمسجد الأقصى، ونحرق أمتعتنا وأموالنا، ولا نترك لكم شيئًا تنتفعون به، ولا دابة ولا حيوانًا، ونقاتلكم حتى الموت.

وعقد صلاح الدين مجلسًا استشاريًا لأصحابه، فرأوا قبول منح الأرمان على أن يدفع الرجل فدية عن نفسه عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينار من الجميع، وسلّمت المدينة في ٢٧ رجب، ورتّب السلطان على كل باب من أبوابها من يجيء الأموال، وازدحم النساء والأطفال، والناس خلف الأبواب، وأساء الكثيرون الجباية بالرشاوي، وتهرّب الكثيرون، وتدلى بعضهم بالحبال عن الأسوار، ودفع ابن (بارزان) ٣٠ ألف دينار عن الفقراء، وكان الاتفاق لمدة أربعين يومًا، غير أنها انقضت، وبقي في المدينة فقراء ليس يملكون الفدية، فافتداهم صلاح الدين من ماله، ولم يعتبرهم مماليك حسب الإتفاق، وبعض الأمراء أخرج بعضهم على أنهم من رعاياه.

أما ملكة القدس، فقد طلبت المسير إلى زوجها الذي نقل إلى قلعة نابلس، فأذن صلاح الدين لها، وأطلق مالها وحاشيتها، كما أطلق إمرأة أرناط على أن تطلب من حاميتها في الكرك، والشوبك التسليم، وعلى الرغم من رفض الحامية، فقد أطلقها مع اتباعها وحاصر الحصنين حتى استسلما له مرغمين، وزسر الحامية، وخرج بطيرك القدس، ومعه أموال البيع والكنائس وكنوزها في أحمال محمّلة، فلم يعرض له صلاح الدين بشيء رغم غضب الحاشية، ودفع عشرة دنانير، ومضى صلاح الدين يقول: «لا أغدر به».

وقسم صلاح الدين الخارجين ثلاثة مجموعات، سيَّرهم إلى صور بحماية الجند خوفًا عليهم من البدو وقطاع الطرق، وكان في القدس نساء أخريات منهن أرملة (عموري الأول)، وزوجة (باليان)، فسيَّرها محروسة إلى طرابلس، وهناك أميرة بيزنطية مترهبة، فأطلقها، وكانت النساء المأمورات في القدس كثيرات، حتى قيل إن هناك رجلاً واحدًا لكل خمسين امرأة وطفل.

وفي ٢٧ رجب ـ الثاني من أكتوبر، دخل المسلمون بلدة القدس، وتسلق بعضهم قبة الصخرة، وعليها صليب مذهب كبير فاقتلعوه، فما سقط صاح المسلمون بصوت واحد بالتكبير، فيما صاح الفرنج بالخارج متفجعين، فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها[١].

وأمر صلاح الدين بإعادة الأبنية الإسلامية إلى حالها الأول، وكانت الداوية قد اتخذت في غرب المسجد الأقصى، فهدم ما بنوا، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار، وفي الجمعة التالية رابع شعبان صلى صالح الدين والمسلمون في المسجد الأقصى، ثم نقل المنبر الذي كان صنعه نجار حلبي اسمه (الإختريني) لـ (نور الدين) برسم هذا المسجد، فنصب فيه بعد أن جلبه من حلب، وكان قد بقي فيها عشرين سنة ينتظر، وطلب بعضهم هدم كنيسة القيامة، لقطع أمل الفرنج بالعودة فرفض، وأمر السلطان بترخيم المسجد وتزيينه وتزويده مع قبة الصخرة بالمصاحف والرُّبع، كما سمح للنصارى المحليين بالبقاء في المدينة، ودعا المسلمين للسكن فيها بعد أن فرغت، وغادرها في ٢٥ شعبان لفتح صور، بعد أن أطلق آخر اليتامى، والأرامل والشيوخ المعوذين من الفرنج دون غداء، ومنحهم مساعدات مالية تعينهم على السفر.

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١، ص٥٤٩).

هذه أخلاق القيادة الإسلامية، الفذة في الحرب والسلام، فقد كان فارسًا وهو يقاتل عدوه بشراسة، وفارسًا شهمًا وهو يعفو عندما كان بيده النصر والقوة، لقد كان صلاح الدين في حطين رجل الحرب الذي عُلم الفروسية حق العلم، ورجل السلام الذي عرف الشهامة والمروءة، فكان فارس السلام أيضًا.

تحية لهذه الصفحات التي تحكي عن رجال دافعوا عن بلاد المسلمين بشرف، فلم يغتصبوا أرضًا، ولم يقتلوا طفلاً أو عجوزًا مسنًا أو امرأة، هؤلاء هم الذين أنزلوا الملوك منازلهم عندما تعرضوا للهزيمة، ومن ثم الذل والمهانة، فلم يقتل صلاح الدين ملوكهم ولم يتشفى فيهم، بل كان شهمًا صاحب مروءة وشجاعة.

مراحل دخول بيت المقدس:

وقبل أن يفتح صلاح الدين بيت المقدس حاول إجراء تفاوضًا مع سكانها، لتسليم المدينة إذا كان حريصًا على عدم إراقة الدماء فوق أرضها المقدسة، فدعاهم إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ورغم أنهم أدركوا بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين، أنهم أضحوا محاصرين فعلاً، إلا أنهم ظنوا أن صلاح الدين سيقبل بشروط لهم.

وأرسلوا وفدًا ليجتمع به في عسقلان، ففوجئوا بأن صلاح الدين يعرض عليهم تسليم المدينة بنفس الشروط التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية، أي: أن يؤمنهم على أرواحهم، ونسائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالمًا[1].

(١) «الكامل في التاريخ» (جـ ١٠، ص٣٣).

وصل (باليان الإبليني) المدينة، بعد أن أذن له صلاح الدين بدخولها لإفراج أهله منها، فوجدها وأهلها في حالة سيئة للغاية، وقد انهارت معنويات سكانها من الصليبيين، لقضاء مقاتليهم في فلسطين، فناشدوه جميعًا وطلبوا منه أن يمكث بينهم، ويتولى قيادتهم في الدفاع عن المدينة ـ مدينة بيت المقدس ـ، ولم يسمحوا بالخروج من المدينة قبل (باليان) شرط سكان المدن، وفي الوقت نفسه كتب إلى صلاح الدين يشرح له الظروف والمبررات التي أدت إلى نقض إتفاقه معه، وقابل صلاح الدين هذا الموقف بخلق الفارس الشهم، فكان كريمًا مع من بداخل المدينة من الصليبيين، فعفا عن (باليان)، وسمح بخروج زوجته، وأطفالها وحاشيتها مع أمتعتهم، وأرسل حرسًا يرافقها إلى مدينة صور، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة في أمان تام.

بعد ذلك أعاد صلاح الدين عرضه على السكان ـ سكان بيت المقدس من الصليبيين التسلم بشروط مقبولة وطيبة، وذلك رغبة منه في عدم استخدام القوة والعنف في مدينة مقدسة كهذه، لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين والنصارى على السواء، ولكنهم أصروا على موقفهم الرافض، فقرر صلاح الدين إقتحام المدينة.

وعلى الجانب الآخر بذل (باليان) جهدًا كبيرًا في تنظيم عملية الدفاع عن المدينة، فاهتم بتحصيناتها، ونصب كل صبي تاجوز السادسة عشرة من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة فارسًا، واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفًا ما بين فارس ورجل سوى النساء والأطفال.

بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء وجماعة ممن كانوا معه[1].

---

(١) المصدر السابق (جـ ١٠، ص٣٤).

وفي الخامس عشر من رجب عام ٥٨٣هـ ـ ٢٠ أيلول عام ١١٨٧م، وصل صلاح الدين إلى المدينة، وعسكرا أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها، لكنه وجد باستحكامات هذا الجانب المتينة المشحونة بالمقاتلين، بالإضافة إلى أشعة الشمس التي كانت تواجه عيون قواته، فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر، لذلك طاف حول المدينة فترة خمسة أيام، يبحث عن مكان يصلح للجيش أن يعسكر منه، إلى أن عثر على موضع في الجانب الشمالي نحو باب العمود وكنيسة صهيون، حيث الأسواء أقل منافسة، فانتقل إلى هذه الناحية في ٢٠ رجب ـ ٢٥ أيلول، وحين حل الليل بدأ بنصب المجانيق[1].

اشتد القتال ليلاً، وتبادل الطرفان التراشق بقذائف المنجنيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحمية وشهامة، وكذلك المسلمون، حيث كان كل فريق يرى ذلك دينًا عليه، وحتمًا واجبًا، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويُزجرون ولا ينزجرون[2].

وبدأ النقَّابون المسلمون في غضون ذلك، ينقبون السور، وفي ٢٤ رجب ـ ٢٩ أيلول، حدثت قفزة كبيرة، قفذ منها المسلمون على الرغم من شدة مقاومة الصليبيين، ولما رأى الصليبيون شدة القتال، واستشعروا الخطر الشديد، وشعروا أنهم أشرفوا على الهلاك، عقدوا اجتماعًا للتشاور فيما بينهم، وكان إتفاقهم على طلب الأمان، وقد أدَّى البطريرك (هرقل) دورًا في إقناع (باليان) بعدم

---

(١) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد ص١٣٤).

(٢) «الكامل» (جـ ١٠) (ص٣٤).

جدوى المقاومة، فأرسلوا وفدًا إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشترطوا احترام من في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها من قبل على (باليان)، لكنه رفض الآن قبولها، لأنه أوشك أن يفتح المدينة عنوة، وقال: «لا أفعل بكم كما فعلتم بأهلها، حين ملكتموها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها»[١].

قلق الصليبيون قلقًا شديدًا، خوفًا من بطش صلاح الدين لهم، وحاولوا مرة أخرى طلب العفو عنهم من صلاح الدين، وخرج (باليان) يستعطفه بنفسه، لكن رد صلاح الدين جاء حاسمًا، وهو أن بيت المقدس ستفتح بحد السيف، إن لم تستسلم المدينة دون قيد أو شرط.

وحاول (باليان) إلى أن وافق صلاح الدين على السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل عشرة دنانير عن الرجل، يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنانير عن المرأة، وديناريين عن الطفل، ومن يبقى فيها يقع في الأسر، واشترط أن يدفع الفداء المطلوب في مدى أربعين يومًا، ومن لم يؤد فداءه خلال تلك المدة يصبح مملوكًا[٢].

وبعد ذلك تبين أن بالمدينة قرابة العشرين ألف فقير، ليس بحوزتهم المبلغ المقرر للفداء، فوافق صلاح الدين على أن يدفع (باليان) مبلغًا إجماليًا قدره ثلاثين ألف دينار عن ثمانية عشر ألفًا منهم[٣].

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٣٥).
(٢) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٣٦)، العماد الأصفهاني «الفتح القسي» (ص١٢٧).
(٣) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٣٦).

ودخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس يوم الجمعة في ٢٧ رجب ـ ٢ تشرين الأول، وكان موافقًا لذكرى ليلة الإسراء والمعراج، ثم وضع على أبواب المدينة، أمناء من الأمراء ليأخذوا من الخارجين المال المقرر عليهم.

ونجد تسامحًا من العال أخو صلاح الدين، حينما طلب من أخيه إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، وقد ابتهج البطريرك من هذا التسامح، فطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، كما وهب (باليان) خمسائة أسير، ثم أعلن أنه سيطلق سراح كل شيخ، وكل إمرأة عجوز، كما وعد هؤلاء النسوة بأن يطلق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه كل واحد بحسب حالته.

وقد وصل عدد الأسرى الصليبيين الذي استرقوا بسبب عجزهم عن دفع المال المقرر عليهم إلى حوالي ستة عشر ألف أسير من الصليبيين[١].

وكانت في صلاح الدين أخلاق القائد الشهم، الذي يمثل سماحة الإسلام، عند القدرة واقترح عليه عدد من المسلمين بتدمير كنيسة القيامة، ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا المسلمين به في السابق، إلا أنه أشار إلى أن النصارى يجلون الموضع لا البناء، فما زالوا يؤدون الحج إليه، ولم يشأ أن يمنعهم من ذلك، بل إنه أمرهم باحترام الأماكن النصرانية المقدسة في المدينة، فقد أقرهم على هذا المكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان[٢].

---

(١) المصدر السابق (جـ ١٠، ص٣٦).

(٢) «الفتح القسي» للعماد الأصفهاني (ص١٣٩).

وبهـذه الإجراءات استطاع صلاح الدين أن يرد عـلى بطش الصليبـيين في حربهم الصليـبية الأولى، وما فـعلوا بالمسلمين من مهانة وإذلال ومـجازر، ولم يكن مثلهم بل كان يحـمل سماحة دينة، وخلق القـائد الشهم الشريف، واثبت لهم بالأدلة الواضحة ما لدى أهل المشرق من روح وقوة عظيمة، مبرهنًا على أنه كان قائدًا شهـمًا صاحب مروءة، يحمل في صدرة قلب كبـير، فلم تأخذه نشوة النصر إلى جنون العظمة.

■ ■ ■

الطريق إلى صور

في الوقت الذي كان يتجه فيه صلاح الدين إلى مدينة صور، كان الصليبيون برفـضون إخوانهـم، ويغلقون أبواب مـدنهم وبلادهم، الذي يقابل حـمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبال لبنان، وهو بين بعلبك وحمص[١].

أما حصن المرقب، فـهو بلد وقلعة حصينة تشرف على سـاحل بحر الشام، وعلى مدينة بانياس[٢].

فقرر صـلاح الدين فتح صور قبل التوجـه نحو الشمال، فـزحف إليها يوم الجمعة في ٩ رمضـان عام ٥٨٣هـ ـ ١٢ تشرين الثاني عام ١١٨٧م، ونزل على نهر قريب منها، ومكث أيامًـا حتى وفدت عليه جيوشه، ومعـها آلات الحصار، ثم تقدم إلى المدينة وحاصرها في ٢٢ رمضان ـ ٢٥ تشرين الثاني[٣].

---

(١) ياقوت الحموي (جـ ٢، ص٢٦٤).

(٢) المصدر نفسه (جـ ٥، ص١٠٨).

(٣) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٣٧).

في ذلك الوقت كان (رينولد) صاحب صيدا، مشرفًا على أمر الدفاع عن صور، وكان يتعارض معه على تسليم المدينة، وقد وصلت المفاوضات إلى مرحلة متقدمة، بدليل أن صلاح الدين، أرسل لوائين له لرفعها على القلعة.

وقد تعثر صلاح الدين في فتح هذه المدينة لظهور رجل صليبي قوي هو (كونراودي مونتفيرات) الذي وصل إلى عكا في منتصف شهر تموز قادمًا من القسطنطينية، ثم رحل عنها إلى صور عندما علم بأنهاسوف تسقط في أيدي المسلمين.

وكان المركيز (دي منتفرات)، قد انتهز فرصة انشغال صلاح الدين بفلسطين، فحصنها، ونظم المقاومة فيها، ولما توجه إلى صور، كان أكثر من يستعجله في المسير إلى صور هو الأمير على المعروف بالمشطوب، ويقول القرطنة تدرك بالبحث، وتفوت باللبث، وقد صارت المدينة كالجزيرة وسط الماء.

انضوى كل من بداخل المدينة تحت لواء كونراد، ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم، وحمايتهم من هجمات المسلمين، كما تقرر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط الصلح أثناء المفاوضات، وجرى إلقاء لوائيه في خندق القلعة[١].

اشتهر (كونراد) بالقوة والبسالة، وإدراك أن المدينة تستطيع العمود والمقاومة، حتى مجيء القوة العسكرية التي طلبها من الغرب الأوروبي، ويبدو أنه كان واثقًا بأن الغرب سوف يرسل هذه القوة إن عاجلاً أو آجلاً، لذلك حمل عبء الدفاع عن ما تبقى من الكيان الصليبي في بلاد الشام، حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة[٢].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٣٩).

وهكذا استطاعت صور أن تغلق أبوابها في وجه القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي، بعد أن استعد فعلاً لدخولها، مما أثار دهشته وغضبه، وحمله على تغيير خطته، بفتح بيت المقدس أولاً، ثم التفرغ بعد ذلك لإخضاع صور بالقوة.

كما ذكرنا، فإن صور قد أصبحت ملجأ لكثير من الصليبيين الذين فروا من وجه المسلمين عقب معركة حطين، أو الذي من معاقلهم بإذن من صلاح الدين.

وينتقد ابن الأثير صلاح الدين في هذا، ويحمله مسؤولية وجود هؤلاء في صور، فيقول: لم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه قد جهز إليها جنود الفرنج، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس، وغير ذلك، وكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بأموالهم وأموال التجار، وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم، فأجابوهم لدعوتهم، والملك لا ينبغي أن يترك الحزم، فأن يعجز حازمًا، خير من أن يظفر مفرطًا، وأعذر له الناس[1].

ومن الباحثين[2] من يعيب على ابن الأثير هذه الكلمات، والذي يلوم فيها صلاح الدين على سماحة الفرسان الفرنج، ورجالهم بالتجمع في صور، فيقول: هذه هي الغلطة التي أخال فيها ابن الأثير لسانه، ولو كان صاحب حرب وقتال، لعرف أن من يده في النار، غير من يده في الماء، وهو عالم أن صلاح الدين قبل الرحيل استشار أمراءه، فاختلفوا، فجماعة قالوا بالرحيل، لأن الرجال جُرحوا وقُتلوا وملُّوا، وفنيت النفقات، وهذا الشتاء قد حضر، فنريح ونستريح في هذا البرد، ثم نعاود الإجتماع في الربيع، وكان هذا قول الأغنياء

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١، ص٥٥٦).

(٢) الدكتور. شاكر مصطفى في كتابه «صلاح الدين».

منهم، وكأنهم خافوا أن يقترض السلطان منهم ما ينفقه في العسكر، فحلوا الخزائن من الدرهم والدينار، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها.

وقالت الطائفة الأخرى: الرأي أن نصابر البلد ونضايقه، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم، ومتى أخذناه انقطع طمع من داخل البحر وأخذنا باقي البلاد صفواً عفواً، فبقي صلاح الدين متردداً بين الرحيل والإقامة، فلما رأى من يرى الرحيل إقامته وبقاءه، أخلَّ بما ردَّ إليه من المحاربة والرمي بالمجانيق، واعتذروا بجراح رجالهم، وأنهم أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم . . إلى غير ذلك من الأعذار، فصاروا مقيمين في غير قتال، فاضطر إلى الرحيل آخر شوال ـ أول كانون الثاني (يناير) إلى عكا[1].

والعماد الأصفهاني يذكر: أن الأمراء المتخاذلين حاولوا إقناعه بالرحيل مرتين، وأنه سبَّ لهم أكياس الأموال في المرة الأولى، وقال: إن الفرصة لا تعوَّض، وراسلهم بالهبات، وقال: ما عذرنا إلى الله وإلى المسلمين إذا تركناه، ولم يكن من رأيه إلا أميران هما (جرويك)، و(طمان)، ثم عادوا فتباطؤوا مرة أخرى حين اشتدت الثلوج والأمطار وقسا البرد، وكان أشدهم تهرُّباً (تقي الدين عمر)[2].

فإذا كان ذنب صلاح الدين في جمع الفرنج في مكان واحد كبيراً، وليس عنده معتقلات، ولا أماكن لأسرى مدن بكاملها، ومن المؤكد أن صلاح الدين لو علم بما سيكون من وصول الحملة الصليبية الثالثة، لأصر على البقاء، وأنَّى له أن يعلم بالغيب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، ورب العزة يقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١١، ص٥٥٦).

(٢) العماد الأصفهاني ـ «الفتح القسي» (ص١٦٨-١٧٦).

ولذلك أذن للعساكر بالعودة إلى أوطانهم والاستراحة في الشتاء على أن يعودوا في الربيع، فعادت عساكر الشام والموصل وغيرها، وعساكر مصر، وبقي في حلقته الخاصة متحسرًا، مقيمًا بعكا نازلاً بقلعتها، وردَّ أمر البلد إلى قائده (عز الدين جورديك).

استغل (كونراد)، فرصة انصراف صلاح الدين عن مدينة صور، لتقوية استحكاماتها، وإعدادها للمعركة المنتصرة، فحفر خندقًا في الجانب الشرقي، وهو الجانب الوحيد الذي يربط المدينة بالبر، فاضحت المدينة كالجزيرة، وحصَّن أسوارها، مما زاد في مناعتها[١].

ولما عاد صلاح الدين إلى حصارها في ٢٢ رمضان - ٢٥ تشرين الثاني، تبين له ما حدث من تجديد استحكاماتها، ووصول إمدادات بحرية وعسكرية إليها، بالإضافة إلى ضيق رقعة الأرض حولها، مما يمنعه من حرية الحركة والانتشار، واستخدام رجاله ومنجانيقه، فأقام أيامًا قضاها في المشاورات مع أركان حربه، عما ينبغي فعله، وتقرر أخيرًا فرض حصار حول المدينة[٢].

بدأ صلاح الدين حصار المدينة بضرب أسوارها بقذائف المنجنيق، واستعمل المسلمون مختلف أنواع الأسلحة لإقتحامها، لكن دون جدوى، فقد صمدت المدينة في وجه الضرب والهجمات الإسلامية البرية والبحرية.

لذلك فقد رغب صلاح الدين في الأسلوب السياسي لإقناع (كونراد) بتسليم المدينة، إذا كان والده (وليم الثالث) أسيرًا في قبضة صلاح الدين، فحاول أن

---

(١) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٣٩).

(٢) المصدر السابق.

يستغله كورقة ضغط في التأثير عليه، وهدد بإعدامه، لكن هذ المحاولة فشلت أمام تصلب (كونراد) الذي ردَّ على صلاح الدين، لأنه يفضل أن يذبح هو وأبوه، على أن يسلم جزءًا من المدينة.

نظر صلاح الدين نظرة فاحصة لكل هذه الأحداث، وقرر رفع الحصار عن صور في آخر شوال ٥٨٣هـ ـ أول كانون ١١٨٨م[1].

وبعد رفع الحصار عن صور أول تراجع عسكري لصلاح الدين منذ انتصاره في معركة حطين.

قضى صلاح الدين الشتاء ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧-١١٨٨م، في عكا الربيع ٥٨٤هـ توجه إلى دمشق معرِّجًا في طريقه على قلعة كوكب، فحاصرها وهو في قلة من العسكر بعد أن تملك البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب، ماعدا صفد والكفرك، وهذه القلعة، فلما رأى امتناعها، رحل عنها تاركًا حصاره لبعض قادته.

وسار عنها في ربيع الأول إلى دمشق، وكتب إلى جنده بالمجيء إلى شمال الشام للحرب، فنزل على بحيرة قدس ـ بحيرة حمص على العاصي ـ، وأتاه من أصحاب الأطراف (عماد الدين زنكي بن مورود بن أقسنقر)، صاحب سنجار ونصيبين والخابور، وتلاحقت العساكر من الموصل والجزيرة وغيرها، فاجتمعت له، فسار حتى نزل على حصن الأكراد ـ قلعة الحصن ـ، فأقام يومين وسار الجريدة، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل بلد الفرنج، فأغار على صافيتا والعريمة ويحمور، ووصل إلى طربلس وأبصر البلاد، وعرف من أين يأتيها، وأين يسلك منها، ثم عاد إلى معسكره سالمًا، وقد غنم العسكر

---

(١) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٣٨).

والدواب على اختلاف أنواعها، ما لا حدَّ له، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر[١].

■ ■ ■

فتح جبلة

يقول ابن الأثير[٢]: أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد، فأتاه قاضي جبلة، وهو منصور ابن نبيل، يستدعيه إليها ليسلمها إليه، وكان هذا القاضي عن (بيهموند) صاحب أنطاكية وجبلة، مسموع القول، مقبول الكلمة، له الحرمة الوافرة، والمنزلة العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها، على ما يتعلق بـ(بيهموند)، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية، فسار صلاح الدين معه رابع من جمادى الأول، فنزل بانطرطوس سادسه، فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة، واحتموا في برجين حصينين، كل واحد منهما قلعة حصينة، ومعقل منيع، فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد، ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم[٣].

وكان الداوية بأحد البرجين، فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه في أحد البرجين بأمان وسلموه، فأمَّنهم على حياتهم، وخرَّب البرج وألقى حجارته في البحر، وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه، وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف، وكان قد أطلقه لما ملك بيت المقدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن، فخرَّب صلاح الدين ولاية أنطرطوس، ورحل عنها، وأتى

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٢، ص٦)، ط: دار صادر، وقد قال ابن كثير في سياق روايته هذه: وكنت حينئذٍ معه ـ أي مع صلاح الدين ـ فهو شاهد عيان.

(٢) المصدر السابق (جـ ١٢، ص٧).

مرقية، وقد أخلاها أهلهـا، ورحلوا عنها، وساروا إلى المراقب، وهو من حصونهم التي لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه، وهو للإستبار، والطريق تحتـه، فيكون الحصين عـلى يمين المجتار إلى جـبلة، والبحر علـى يساره، والطريق مضيـق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد، فـاتفق أن صاحب صقلية من الـفرنج قد سيَّر نجـدة إلى فرنج الساحل في سـتين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلـس، فما سمعـوا بسير صلاح الدين جـاؤوا، ووقفوا في البحر تحت المرقـب، في شوانيهم، ليمنعوا من يجتاز بالسهام، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجبتيات، فَصُفَّت على الطريق مما يلي البحـر من أول المضيق إلى آخره، وجعل وراءها الرماة، فمنعوا الفرنج من الدنو إلـيهم، فاجتاز المسلمون عن آخرهم، حـتى عبروا المضيق، ووصلوا إلى جبلة في الثامن من جمادى الأولى، وتسلمها وقت وصوله.

وكان قاضـيها قد سـبق إليها ودخل، فلما وصل صـلاح الدين رفع أعلامه على سورها، وسلَّمها إليـه، وتحصن الفرنج الذي كانوا بها بحصنهـا، واحتموا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخـوفهم ويوغبهم، حتى استنزلهم بشرط الأمان، وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى يطلق الفرنج رهائن المسلمين من أهل جبلة.

وكان القاضي (بيهومند) صاحبـها، قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة، وتركـهم بأنطاكيـة، فأخـذ القـاضي رهائن الفرنج، فـأنزلهم عنده حـتى أطلق (بيهـومند) رهائن المسلمين، فأطلق المسلمـون رهائن الفرنج، وجـاء رؤساء أهل الجـبل إلي صلاح الديـن الأيوبي بطاعة أهلـه، وهو من أمنع الجبـال وأشـقهـا مسـلكًا، وفيـه حصن يعـرف بـ «بكسرائيل» بين جـبلة ومدينة حـماه، فـملكه المسلمون، وحـاصر الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسـلام إلى العسكر، وكان الناس يلقـون شدة في سلوكه، وقـرر صلاح الدين أحوال جـبلة، وجعل فيها لحفظها الأمير (سابق الدين عثمان بن الداية).

لما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة، سارعنها إلى اللاذقية، فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، فترك الفرنج لعجزهم عن حفظها، وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل، فامتنعوا بها، فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنجة، وزحفوا إليهما، ونقبوا السور ستين ذرعًا، وعلقوه، وعظم القتال، واشتد الأمر عند الوصول إلى السور، فلما أيقن الفرنجة بالعطب، ودخل إليهم قاضي جبلة، فخوفهم من المسلمين طلبوا الأمان، فأفهم صلاح الدين، ورفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين، وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول إليها، وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية، وأكثرها زخرفة، مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرب المسلمون كثيرًا منها، ونقلوا رخامها، وشعثوا كثيرًا من بيعها التي قد عزم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار، وسلمها إلى ابن أخيه (تقي الدين عمر)، فعمرها، وحصن قلعتها، حتى إذا رآها اليوم من رآها قبل ينكرها، فلا يظن أن هذه تلك، وكان عظيم الهمة من تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها، كما فعل بقلعة حماة[1].

وجاء أسطول صقلية فوقف بإزاء ميناء اللاذقية، فلما رأوا تسليمها خنقوا على أهلها وعزموا على أخذ من يخرج منها، ولكن سكانها بقوا فيها، ورضوا بدفع الجزية.

وقبل الرحيل عنها طلب مقدم الأسطول الحضور عند صلاح الدين، فأمنَّه وحضر، وقبل الأرض بين يديه، وقال: ما معناه أنك سلطان رحيم كريم، وقد فعلت ما فعلت بالفرنج فذلُّوا، فاتركهم يكونون مماليك وجندك، وتفتح بهم البلاد، وترد عليهم بلادهم، وإلاَّ جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم الأمر ويشتد الحال.

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٢، ص٩).

فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهاره القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر، وأنهم إن خرجوا، أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر، فصلَّب على وجهه، ورجع إلى أصحابه[١].

وذكر العماد الأصفهاني أن عماد الدين أجابه قائلاً: لقد أمرنا الله بالجهاد ونحن قائمون بطاعته، وعلينا الإمتثال لأمره، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولا تكترث الأسياد بكثرة النقاد، ولو اجتمع أهل الأرض، لتركنا على الله في اللقاء، ولم ينال بأعداد الأعداء[٢].

■ ■ ■

فتح قلعة صهيون

ثم رحل صلاح الدين عن اللاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وتصد قلعة صهيون، وهي قلعة متينة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل، يطيف بها واد عميق، فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث أن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن، إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال، وقد عملوا لها خندقًا عميقًا لا يُرى قعره، خمسة أسوار منيعة، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المجانيق ورماها، وتقدم إلى ولده الظاهر، صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادي، ونصب عليه المجانيق أيضًا، فرمى الحصن منه.

وكان معه الرَّجالة الحلبيين كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة، ودام رشق السهام من قسي اليد، فخرج أكثر من بالحصن، وهم يظهرون التجلد والإمتناع، وزحف المسلمون إليهم ثاني جمادى الآخرة، فتعلقوا بقرنة من ذلك

---

(١) المصدر السابق (ص١٠).

(٢) «الفتح القدسي» (ص٢٤٠).

الجبل قد أغفل الفرنج أحكامها، فتسلقوا منها بين الصخور، حتى التحقوا بالسور الأول، فقاتلوهم عليه حتى ملكوه، ثم أنهم قاتلوهم على باقي الأسوار فملكوا منها ثلاثة، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك، واحتمى الفرنج بالقلعة التي للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان، فلم يجبهم صلاح الدين إليه، ولم يكن على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس، وتسلم الحصن، وسلمه إلى أمير، يُقال له: (ناصر الدين منكوبرس)، صاحب قلعة أبي قبيس، فحصنه وجعله من أحصن الحصون.

ولما ملك المسلمون قلعة صهيون - حصن صهيون - تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن بلاطنوس، وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفًا ورعبًا[1].

فتح حصن بكاس والشُّغْر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرى، فوصل إلى قلعة بكاس، فرأى الفرنج قد أخلوها، وتحصنوا بقلعة الشُّغْر، فملك قلعة بكاس بغير قتال، وتقدم إلى قلعة الشُّغْر وحصرها، وهي وبكاس على الطريق السهل المملوك إلى لاذقية وجبلة، والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية، فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام، ولا يوصل إليها بطريق من الطرق، إلا أنه أمر بمزاحفتهم ونصب منجانيق عليهم، ففعلوا ذلك، ورمى بالمنجنيق، فلم يصل من إحجاره إلى القلعة إلا القليل الذي لا يؤذي، فبقى المسلمون عليه أيامًا لا يرون فيه طمعًا، وأهله غير مهتمين بالقتال لإمتناعهم عن ضرر يتطرق إليهم، وبلاء ينزل عليهم.

---

(١) المصدر السابق (جـ ١٢، ص١١).

فبينما صلاح الدين جالس، وعنده أصحابه، وهم في ذكر القلعة، وأعمال الحيلة في الوصول إليها، قال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى: ﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾ (الكهف: ٩٧)، فقال صلاح الدين: ﴿أو يأتي الله بنصره من عنده وفتح﴾ (الأعراف: ١٢٩).

فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي دناري يطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل رسول، وسأل أنظارهم ثلاثة أيام، فإن جاءهم من يمنعهم، وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به.

فلما كان اليوم الثالث، سلَّموها إليه، واتفق يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة ٥٨٤هـ[1]، وكان سبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى (البيهموند)، صاحب أنطاكية، وكان هذا الحصن له، يعرفون أنهم محصورون، ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين، أو ينجدهم ويرحل المسلمين، فإن فعل إلا سلموها، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله في قلوبهم، وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد، ولا بلغ المسلمون منهم غرضًا، فلما تسلم صلاح الدين الحصن، سلَّمه إلى أمير يُقال له: (فلج)، وأمر بعمارته ورحل عنه.

فتح سَرمينيَّة

لما كان صلاح الدين مشغولاً بهذه القلاع والحصون، سيَّر ولده (الظاهر غازي) صاحب حلب على قطيعة قررها عليهم، فلما أنزلهم، وأخذ منهم المقاطعة، هدم الحصن، وعضَّ أثره وعالي بنيانه، وكان فيه وفي هذه الحصون

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٢، ص١٣).

من أسارى المسلمين الجم الغفير، فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة، وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

واتفق أن هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرينية مع كثيرتها، كان في ست جمع ـ ست أسابيع ـ، مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين، فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل، وهي جميعها من أعمال أنطاكية[1].

ونفهم من تعليق ابن الأثير أن صلاح الدين ورجاله كانوا مقاتلين أشداء، واجهوا أعدائهم الذين وصفهم بأنهم أشجع الناس، وأشدهم عداوة للمسلمين.

فتح قلعة برزية

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشُّغْر سار إلى قلعة برزية، وكانت قد وُصفت له، وهي تقابل حصن أفامية، وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، وعيون تنفجر من جبل برزية وغيره، وكان أهلها لا يعلمون شيء عن المسلمين، يقطعون الطريق، ويبالغون في الأذى، فلما وصل نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ٥٨٤هـ، ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعًا يقاتلها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب، فنصب له هناك خيمة صغيرة، ونزل فيها ومعه نص العسكرة جريدة لضيق المواضع.

وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة، فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين، وأما الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل، لعلوه وصعوبته، وأما جهة الغرب، فإن الوادي المطيق بحيلها

(١) المصدر السابق (جـ ١٢، ص١٤).

متى ارتـفع هناك ارتفاعًـا كثيـرًا، حتى قـارب القلعة، بحـيث يصل منه حـجر المنجنيق والسهـام، فنزله المسلمون، ونصـبا عليه المنجانـيق، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقًا بطَّلها[1].

ويواصل ابن الأثير الحديث فيقول[2]: ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة، لكنه لا يصل منه شيء إليهـا، امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق، وهي التي بـطَّلت منجنيق المـسلمين، فلمـا رأى صـلاح الدين أن المنـجنيق لا ينتفـعون به، عزم على الزحف، ومكاثرة أهلها بجـموعه، فقـسم عسكره ثلاثة أقسام، يزحف قـسم، فإذا تعبوا وكلُّوا عـادوا وزحف القسم الثاني، فـإذا تعبوا وضجـروا عادوا وزحف القسم الثـالث، ثم يدور الدور مرة أخرى حـتى يتعب الفرنج وينصبوا، فأنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك، فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة.

فلما كان الغد، وهو السابع والعشرون من جماد الآخرة ٥٨٤هـ، تقدم أحد الأقسام، وكـان المقدم عليهم (عماد الدين زنكـي بن مودود ابن زنكي) صاحب سنجار، وزحفوا، وخرج الفرنج من حـصنهم، فقاتلهم على فصيلهم، ورماهم المسلمون بالسـهام من وراء الجفتيـات والجنوبيات والطارقيـات - وهي عبارة عن سواتر - ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل، فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى، وتسلط الفرنج عليهم، لعلوّ مكانهم، بالنشاب والحجارة، فإنهم كـانوا يُلقون الحجارة الكبـار، فتتدحـرج إلى أسفل الجبل، فلا يقـوم لها شيء، فلما تـعب هذا القسم انحدروا، وصـعد القـسم الثاني، وكـانوا جلوسًا ينتظرونهم، وهم حلقة صلاح الدين الخاص، فقـاتلوا قتالاً شديدًا، وكان الزمان

---

(١) (٢) ابن الأثير (جـ ١٢، ص١٤-١٥).

حرّ شديدًا، فاشتد الكرب على الناس، وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويجرحهم، وكان (تقي الدين ابن أخيه) كـذلك، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا، ورجعوا[١].

فلما رآهم صلاح الدين عادوا تقـدم إليهم، وبيده جماق[٢] يردهم، وصاح في القـسم الثالث، وهم جلوس ينـتظرون نوبتهم، فـوثبوا مُلبـيين، وساعـدوا إخوانهم، ويزحفوا معهم، فجاء الفـرنج ما لا قبل لهم به، وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا، فقاموا أيضًا معهم، فحينئذٍ اشتد الأمر على الفرنج، وبلغت القول الحناجـر، وكانوا قد اشتـد تعبهم ونصبـهم، فظهر عجزهم عن الـقتال، وضعفهم عن حمال السلاح لشدة الحر والقتال، فخالطهم المسلمون، فعاد الفرنج يدخلون الحصن، فدخل المسلمـون معهم، وكان طائفة قليلة في الخـيام، شرقي الحصـن، فرأوا الفـرنج قد أهملوا ذلك الجـانب، لأنهم لا يرون فيـه مقـاتلاً، وليكثروا في الجهة التي فيها صـلاح الدين، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهـم مانع، فصـعدوا أيضًا إلى الحـصن من الجهـة الأخرى، فالتـقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة وقـهرًا، ودخل الفرنج القلعة التي في الحصن، وأحاط فيها المسلمون، وأرادوا نقبها.

وكان الفـرنج قد رفعـوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سـطح القلعة، وأرجلهم في القيود والخـشب والمنقوب، فلما سمعـوا تكبير المسلمين في نواحي القلعـة، كبـروا في سطح القلعـة، وظن الفـرنج أن المسلمين قـد صعـدوا على

---

(١) كان ابن الأثير ـ كمؤرخ ـ، كان شاهد عيان لهذه المعركة، لذلك حرصنا على الأخر بوصفه للمعركة حرفيًا وبنصه. «الكامل» (جـ ١٢، ص١٤-١٦).

(٢) شيء يشير به.

السطح، فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عنوة، ونهبوا ما فيها، وأسروا وسبوا ما فيها، وأخذوا صاحبها وأهله، وأمست خالية لا ديار بها، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت.

ونترك ابن الأثير يقص أو يصف موقفًا يدل على الأثر النفسي لقضية الجهاد والنصر في فكر المسلمين هذه الأيام، فيقول: ومن أعجب ما يُحكى من السلامة، أنني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا الحصن قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة، وهو يعدو في الجبل عرضًا، فألقين الحجارة عليه، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه، فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر، فسقط على وجهه من عثره، فاسترجع الناس، وجاء الحجر إليه، فما قرابه وهو منبطح على وجهه، لقيه حجرًا آخر ثابت في الأرض فوق الرجل، فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض، وجاز الرجل، ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر، لم ينله منه أذى ولا ضرر، وقام يعدوا حتى لحق بأصحابه، فكان سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان[1].

وأما صاحب قلعة برزية، فإنه أسر (هود) وامرأته وأولاده، ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم، واشتراهم، وجمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها، وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة (بيمند) صاحب أنطاكية، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه، وتصلحه كثيرًا من الأحوال التي تؤثر، فأطلق هؤلاء لأجلها[2].

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٢، ص١٦-١٧).

(٢) المصدر السابق (ص١٧).

فتح قلعة درب ساك

لَّمَا فتح صلاح الدين حصن برزية، رحل عنه من الغد، فأتى صبر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه حتى وافاه من تخل عنه من عسكره، ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك، فنزل عليها ثامن رجب ٥٨٤هـ، وهي من معاقل الداوية الحصينة، وقلاعهم التي يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد.

فلما نزل عليها نصب المنجانيق، وتابع الرمي بالحجارة، فهدمت من سورها شيئًا يسيرًا، فلم يبال فيه بذلك، فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها، فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها، وكشفوا الرجال عن سورها، وتقدم النقابون فنقبوا منها برجًا وعلقوه فقط، واتسع المكان الذي يريد المقاتلة أن يدخلوا منه، وعادوا يومهم ذلك، ثم باكروا الزحف من الغد.

وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهرو الجلد، وهم ينتظرون وصول جوابه، إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم، وإما بالتخلي عنهم ليقوم عذرهم في التسليم، فلما عجزه عن نصرتهم، وخافوا هجوم المسلمين عليها، وأخذهم بالسيف، وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم، وطلبوا الأمان، فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه بغير مال، ولا سلاح، ولا أثاث بيت، ولا دابة، ولا شيء مما بها، ثم أخرجهم منه وسيَّرهم إلى أنطاكية، وكان فتح هذا الحصن، وهو حصن درب ساك في التاسع عشر من رجب ٥٨٤هـ[1].

---

(١) المصدر السابق (ص١٨).

فتح قلعة بغراس

سار صلاح الدين من درب ساك إلى قلعة بغراس، وهي حصن حصين، وقلعة منيعة، وهي بالقرب من أنطاكية.

استشار صلاح الدين أصحابه فمنهم من نهى عن فتحها، وقال: هي حصن حصين، وقلعة منيعة، ومنهم من أشار بفتحها.

استخار صلاح الدين الله تعالى وسار إلى بغراس، وجعل أكثر عسكره مقابل أنطاكية، يغيرون على أعمالها، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها، وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها، ونصب المنجانيق، لم يؤثر فيها شيئًا لعلوها وارتفاعها، فغلب على الظنون تعذر فتحها، وتأخر مُلكها، وشقّ على المسلمين قلة الماء عندهم، إلا أن صلاح الدين نصب الحياض، وأمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم.

فبينما هو على هذه الحال إذا فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلمه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك، فأجابهم إلى ما طلبوا، فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، وأمر صلاح الدين بهدمها وتخريبها لقربها من أنطاكية، لكن المسلمين تضرروا بذلك، لأن (ابن ليون) صاحب الأرمن أعاد بناءها، فصار يغير منها على حلق، وعزم صلاح الدين على التوجه إلى أنطاكية، وخاف أميرها (البيمند) من الهزيمة، فأرسل يطلب الهدنة، وعرض إطلاق الأسرى المسلمين عنده، فمال أكثر الأمراء إلى القبول، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك، واصلحوا ثمانية أشهر أولها من أكتوبر ـ تشرين الأول ١١٨٨م، وآخرها آخر مايو (أيار)، وسيَّر رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه، ويطلق من عندك من الأسرى.

ويقول ابن الأثير[١]: وكان (البيمند) صاحب أنطاكية في هذا الوقت، أعظم الفرنج شأنًا، وأكثرهم ملكًا، لأن الفرنج كانوا قد سلموا إليه طرابلس بعد موت (القمص)، وجميع أعمالها مضافًا إلى ما كان له، لأن القمص لم يخلف ولدًا، فلمّا سُلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبًا عنه.

وأمَّا صلاح الدين فقد عاد إلى حلب ثالث شعبان ٥٨٤هـ، فدخلها وسار منها إلى دمشق، وفرق العساكر الشرقية، كـ (عماد الدين زنكي بن موردو) صاحب سنجار والخابور، وعسكر الموصل وغيرها، ثم رحل من حلب إلى دمشق، وجعل طريقه عبر قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره.

ويضيف ابن الأثير[٢]: صورة لحب صلاح الدين ورجاله لمدينة رسول الله ﷺ، وساكنها عليه الصلاة والسلام، فيقول: وكان مع صلاح الدين الأمير (عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسيني) وهو أمير المدينة، مدينة النبي ﷺ، كان قد حضر عنده، وشهد معه مشاهده، فتوجه، وكان صلاح الدين قد تبارك برؤيته، وقيمن بصحبته، وكان يكرمه كثيرًا، وينبسط معه، ويرجع إلى قوله في أعماله كلها، ودخل دمشق أول شهر رمضان ٥٨٤هـ، فأشير عليه بتفريق العساكر، فقال: إنَّ العمر قصير، والأجل غير مأمون، وقد بقى بيد الفرنج هذه الحصون: كوكب، وصفد، والكرك، وغيرها، ولابد من الفراغ منها، فإنها في وسط البلاد، ولا يؤمن شر أهلها، وإن اغفلناهم، ندمنا فيما بعد.

---

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص١٩).
(٢) المصدر السابق (ص٢٠).

فتح حصن الكرك

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرًا يحصروه - يحاصروه - فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم، وأكلوا داوبهم، وصبروا حتى لم يبق للصبر بحال حين أكلوا آخر حصان عندهم، فراسلوا الملك العادل، أخا صلاح الدين، وكان صلاح الدين قد جعل على قلعة الكرك، جمع من العساكر يحاصرها، ويكن مطلعًا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك، وبغراس، فواصلته رسل الفرنج من الكرك يعرضون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلي مقدم العسكر الذي يحاصرها، فتسلم القلعة منهم وأمنهم.

وتسلم أيضًا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيدة والسلع، وفرغ القلب واطمأن من تلك الناس، وأمنت قلوب من في ذلك السقع من البلاد، كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين، ومن شرهم مشفقين.

فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، وأُشير عليه بتفريق العساكر، وقال: لابد من الفراغ من صفد وكوكب وغيرهما، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان ٥٨٤هـ، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد، فحاصرها وقاتلها، ونصب عليها المجانيق، وأدام الرمي إليها ليلاً ونهارًا بالحجارة والسهام.

وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزدادهم أن تفني في المدة التي كانوا فيها محاصرين، فإن عسكر صلاح الدين كانوا يحاصرهم - فلما رأى - أهل القلعة - جد صلاح الدين في قتالهم، خافوا أن يقيم إلى أن يغني ما بقي معهم من

أقواتهم، وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم، أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت، فيأخذهم، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأمنهم وتسلمها منهم، فخرجوا عنها، وساروا إلى مدينة صور، وكفى الله شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية[1].

فتح حصن كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد، اجتمع من بمدينة صور من الفرنج، وقالوا: إن فتح المسلمين قلعة صفد لم تبق كوكب، ولم أنها معلقة بالكوكب، وحينئذٍ ينقطع طمعنا من هذه الطرق من البلاد.

فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرًّا من رجال، وسلاح وغير ذلك، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم، فساروا الليل متخفين، وأقاموا النهار مكمنين.

فاتفق أن قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدًا، فلقى رجلاً من تلك النجدة، فاستغر به بتلك الأرض، فضربه ليعلمه بحاله، وما الذي أقدمه إلى هناك، فأقر بالحال، ودله على أصحابه، فعاد الجندي المسلم إلى قايماز النجمي، وهو مقدم ذلك العسكر، فأعلمه الخبر، والفرنجي معه، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج، فكبسهم، فأخذهم، وتتبعهم في الشعاب والكهوف، فلم يفلت منهم أحد، فكان معهم مقدمان من فرسان الاستبارية، مُحملاً إلى صلاح الدين وهو على صغير، فأحضرهما ليقتلهما، وكانت عادته قتل الرادية والاستبارية لشدة

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (ص٢١-٢٢).

عداوتهم للمسلمين وشجاعهم، فلما أمر بـقتلهما قال له أحدهما: ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح[1].

وكان ـ رحمـه الله ـ كثير العفـو، يقبل الاعتذار والاسـتعطاف فيه، فيـعفو ويصفح، فلما سـمع كلامهمـا لم يقتلهما، وأمر بهـما فسُجنا، ولما فـتح صفد سارعهما إلى كوكب، ونازلهمـا وحاصرها، وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا، ويتهددهم بالقتل والسَّبي والنهب إن امتنعوا، فلم يسمعوا قوله، وأصروا على الامـتناع، فجدَّ في قتالهم، ونصب عـليهم المجانيق، وتابع رمي الأحجـار إليهم، وزحف مرة بعد مـرة، وكانت الأمطار كثـيرة، لا تنقطع ليلاً ولا نهارًا، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه، وطال مقامهم عليها.

وفي آخر الأمـر زحفوا إلـيها دفـعات متناوبة في يـوم واحد، ووصلوا إلى باشورة القلعـة، ومعهم النقـابون والرماة، يحمـونهم بالنشاب على قـوس اليد والجروح، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه مـن أعلى السور، فنقبوا الباشورة فسقطت، وتقـدموا إلى السور الأعلى، فلما رأى الفـرنج ذلك أذعنوا بالتسليم، وطلبـوا الأمان، فـأمَّنهم، وتسلم الحـصن منهم منتـصف ذي القعـدة ٥٨٤هـ، وسيَّرهم إلى صور، فوصلوا إليها.

واجـتمع بهـا من شـياطين الفـرنج، وشـجعـانهم كل صنديد، فـاشتـدت شـوكتـهم، وحمـيت جمـرتهم، وتابعوا الـرسل إلى من بالأندلس وصقليـة، وغيرهما من جزائر البحر، يستغيثون ويستنجدون، بالإمداد كل قليل يأتيهم.

ويقول ابن الأثيـر موجـهًا اللوم لصلاح الدين: وكـان ذلك بتفـريط صلاح

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٢، ص٢٢).

الدين في إطلاق كل من حصره، حتى عضَّ بنانه ندمًا وأسفًا، حيث لم ينفعه ذلك[1].

ولكن ابن الأثير نسى أن صلاح الدين رجل حرب، ولم يرد أن يحول فتوحاته العظيمة إلى سجون ومعتقلات هائلة.

نعود إلى فتوحات صلاح الدين، فنجد أنه قد اجتمع المسلمين فتح كوكب وصفد من حد أيلة (أيلات) إلى أقصى أعمال بيروت، ولا يفصل بينه غير مدينة صور، وجميع أعمال أنطاكية سوى القصيد، ولما ملك صلاح الدين صفد صار إلى البيت المقدس، فعيد فيه عيد الأضحى ٥٨٤هـ، ثم أتم ٥٨٤هـ في عكا[2].

لقد تمت هذه الفتوح بعد انتصار صلاح الدين، وتم تقليص الإمارات الصليبية في الشام إلى ثلاث مدن فقد مع بعض القلاع في فترة لا تزيد على ١٨ شهرًا، ولم يكن ذلك راجعًا إلى كون صلاح الدين قائدًا استراتيجيًا عظيمًا، وصاحب خطط حربية، ولكن إلى أنه كان يملك جميع صفات القائد العسكري الشجاع والنبيل في وقت واحد، شخصيته ومناقبه الخلفية هي التي مكنته من جمع القوى حوله، وتوجيهها إلى الهدف الذي أمن حتى الأعماق به، إن استدراج العدو، كما جرى في حطين، والحصار الشجاع للقلاع، والقتال ٢٤ ساعة كل يوم بدفعات متتالية، واغتنام الفرص المناسبة، كانت من الأمور التي يعرفهاالقادة قبله، ولكن ميزته الكبرى كانت في رعايته الدقيقة لمبادئه الخلفية، مما جعل اتباعه والأعداء على السواء يثقون به ثقة كاملة، كما يثق هو بنفسه، حتى بعهود أعدائه، يضاف إلى ذلك أنه كان لا يستبد برأيه، أو كان من بساطة

---

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص٢٣).

الطبع، بحيث يترك للآخرين حتى مجال لفترة، وكان يشاور أمرائه في كل موقف ليكونوا هم أصحاب القرار معه عند التنفيذ وكثيرًا ما كانوا يبايعونه على قراره، وبصورة خاصة على إصراره بعدم الجهاد، فقد كان مأخوذًا بعقيدته الدينية لدرجة تشبه التصوف، وهذا ما جعله يتحمل أمراضه وآلامه الجسدية الممضَّة دون أن يشعر بها، فثمت ما يشغله عنها، وصفاته الخلقية استطاعات أن تمسك قواته الخاصة دومًا ولعدة سنوات بجانبه، لكنها لم تستطع أن تتغلب على مصالح وأهواء الأمراء الذين ضمَّهم إليه، وتلزمهم بما ألزم نفسه به.

ولقد اعتمد صلاح الدين مبدأ الحرب الهجومية والتي نشأ عليها، وتمرس دومًا بها، ولم يعرف أبدًا الحرب الدفاعية والمقاومة إلا مرة واحدة في أول عمره في الإسكندرية، وهي النوبة التي جعلته يتردد كثيرًا في معاودة الذهاب إلى مصر.

صار الهجوم الحربي جزءًا من كيانه، ولذلك كان يحزن لتخاذل بعض أمرائه وطلبهم الراحة، لأنه هو بنفسه لا يعرفها ولا يقررها، وللدفاع أو للمقادمة أساليبها.

ويبدو أنه لم يكن يتقنها، لأنه ما كان بحاجة إليها، لذلك فشل حين فوجئ بها فيما بعد يوم نزلت به الحملة الصليبية الثالثة[1].

ولعل أخلاق الفارس والقائد التي تحلى بها هي التي تمكن من خلالها تحقيق الانتصار على تقليد عسكري كان متبعًا منذ قرون في المشرق العربي وفي المغرب، وهو تسريح الجنود بعد كل معركة أو مهمة، فقد استطاع وهو يحارب الفرنجة في المرحلة المقبلة، أن يمسك قواته الخاصة بجانبه تحارب ثلاث سنوات متتالية على

---

(١) «صلاح الدين» د. شاكر مصطفى (ص٢٧٨).

عكا دون راحة، وكان صراعه مزدوجًا ضد الفرنج، وضد هذا التقليد العسكري في وقت واحد، إلى أن انتصر هذا التقليد عليه في النهاية وأجبره على الهدنة، وكان ثمن هذا النصر نكسات وكوارث عسكرية مع الفرنجة وانتقادات مرة من قوَّاده، وتراخيا في القتال حتى رضخ لمقتضيات أرغمه، رغم شجاعته وقوة إيمانه[1].

نظرة ناقدة إلى الوراء

تعرض صلاح الدين للنقد من بعض المؤرخين، بل ومن أقربهم إليه، ممن عاصروه، ومنهم ابن الأثير وكان اللوم موجهًا لصلاح الدين بسبب تركه للفرنج يجتمعون في صور، إلى حد قول ابن الأثير[2]: وكان ذلك بتفريط من صلاح الدين في إطلاق كل من حاصره وأسره، حتى عضَّ بنان ندمًا وأسفًا، حيث لم ينفعه الندم.

وابن الأثير لم يفكر أبدًا في أمر استراتيجي جعل صلاح الدين يترك صور، فهو أي صلاح الدين لم يشأ أن يترك ظهره مكشوفًا غير محمي من القلاع الفرنجية حين نزلت بالسواحل الحملة الصليبية الثالثة، فلم أقدم على صور في البداية كان بالإمكان حصاره هو وجيوشه وتقطيع أوصال من الشرق والغرب والجنوب والشمال.

كيف يمكن له أن يأسر كل هذا العدد من الفرنج، وقوته البحرية متواضعة، فل يجد سفنًا تنقلهم إلى بلادهم، وقد كان صلاح الدين متمسكًا بعقيدته السنية التي ساهمت في تكوين شخصيته إذا كان يقول في بعض كتبه التي يرسلها للخليفة أن مقاصده الثلاثة هي: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «الكامل» (جـ ١٢، ص٢٣).

الله، والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله يعلم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش، ولا لغضب من نزق أو طيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي توسَّم أنها تلزم ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يسطر في الصحيفة[1].

والخلاصة أن صلاح الدين شخصية تعد خليط من شخصيات مميزة، فهو يجسد شخصية البطل، بمعناها الحقيقي، وشخصية النموذج والقدوة في الخلق القويم، والورع، والشجاعة الممزوجة بالرحمة.

فتح حصن ثقيف أرنون

انتهت ٥٨٤هـ، ودخلت ٥٨٥هـ، وفي ربيع الأول من هذه السنة، سار صلاح الدين إلى ثقيف أرنون ـ كان ذلك في الثالث من ربيع الأول ـ سار إلى بانياس، ومرة عيون لإحتلال قلعة ثقيف أرنون، التي أخذ صاحبها مهلة ثلاثة أشهر لإخلائها، وكان خلال ذلك كثير المراوغة مع السلطان، فراوغه مرة بعد مرة، حتى انتهت المهلة، فرماه بالسجن لامتناع حاميته عن التسليم، وقد تسلمه بعد سنة من ذلك بالحصار الدائم، وسار السلطان إلى صور، فرتب اليزك الحراس المراقبين حولها، وانتهى إلى منطقة عكا.



(١) رسالة أرسلها من حارم بعد فتحها، انظر «الروضتين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٢، ص٤٨).

الحملة الصليبية الثالثة

١ ـ أصوات الاستغاثة بأوروبا

ارتفعت أصوات الاستغاثة بأوروبا من الصليبيين لأوروبا كلها، وقد كانت هزيمة حطين وتوابعها ذات وقع كوقع الزلزال على رؤوسهم، فراحوا يصرخوا بأصوات عالية في رسائلهم إلى غرب أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها يصفون فيها أحوالهم التي ساءت في المشرق، وكانت صور هي رأي الجسر الباقي من مملكة بيت المقدس، فكانت أشد المدن استنجادًا، وكان تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين يهدد وحدة أوروبا كلها، ويهدد ملوكها وأمرائها وتجارها، بالإضافة إلى البابوية، فقد رأى الجميع في هزيمة حطين وتوابعها خيبة لآمالهم في التوسع، وفي التجارة، وفي السمعة الدينية، وكان أكثر ما آلمهم أن رئيس اساقفة صور (جوسيساس)، صار إلى البابا، فشرح له الموقف، وطلب النجدة والتدخل الفوري، ثم طاف أوروبا بصورة تمثل السيد المسيح مطروحًا، وأحد العرب يضربه بالعصا، ويسيل دمه، وقالوا للناس: هذا محمد نبي المسلمين، يضرب المسيح وقد جرحه وقتله، وسرت هذه الدعاية في جميع أرجاء بلاد الغرب.

وحتى لا نكون في جانب واحد من الصراع، فإننا نعطي لمن يكتب في الجانب الآخر من الصراع فرصة، كي يبين مشاعر الصليبيين وتفكيرهم، ففي كتابة الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)[1].

---

(١) الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) (جـ ١) وليم ستابز، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب (ص٢٥).

يقول وليم ستابز تحت عنوان «الرب يعاقب أهل الشام على خطاياهم»[1]:

في سنة ١١٨٧م من خلق العالم كان (إيربان الثالث) برأس الإبرشية الرسولية في روما، و(فردريك بربروسة)، يحكم ألمانيا، و(إسحق أنجيلوس) يتربع على عرش القسطنطينية، و(فيليب الثاني) ملكًا في فرنسا، وكان لـ (هنري الثاني) الحكم في إنجلترا، و(وليم الثاني) الحكم في صقلية.

حينذاك ارتفعت يد الرب ضد شعبه، إن حقت تسيمة هؤلاء بشعبة، أو كانوا جبربرين بهذا المعنى ذلك، لأن سلوكهم الكريه، وأسلوب حياتهم الشائق، وخطاياهم المزدولة، جعلتهم غرباء عن الرب، فقد عمت العادات الممقوتة الشرق، ولم يعد أي فرد في ناحية من النواحي إلا وقد جانبًا رداء الحشمة والوقار، ولم يتورع عن المجاهرة بالمعاصي وبكل قبيح مذموم، وإنه ليستغرق مني وقتًا طويلاً إن أردت أن أصف ما كانوا يرتكبونه من أعمال القتل والسرقة والزنا، وليس من خطتي في هذا الكتاب أن أصف الحوادث التي وقعت، كما أنني لست بصدد تأليف كتاب في الأخلاق، لكن يكفي أن أقول إن عدونا التقليدي القديم (يقصد المسلمين)، حين نشر الفساد في كل مكان، انقض على وجه الخصوص على بلاد الشام التي اقتبست الجهات الأخرى، منها: الدين، فأصبحت مثلاً ورمزًا للفسوق!!.

انظر إلى حديث الرجل، وقد انحاز للصليبيين، وصور المسلمين على أنهم كفار مفسدين، انظر كيف يبرر هزائم الصليبيين على يد صلاح الدين، وأبطال المسلمين.

يقول وليم ستابز: وقد رأى السيد المسيح أن البقعة التي كان مهبط رأسه

---

(١) يقصد أهل الشام المسيحية.

وموضع عشائه الأخير، قد انحطت إلى الدرك الأسفل وتمرغت في حضيض القذارة والنجاسة، إذن فقد جاء هؤلاء إلى بلاد المشرق للحج، ولكنهم اتجهوا للقذارة والنجاسة في بلاد غير بلادهم، أرادوا أن يستحلوها ويستحلوا أهلها.

ويتحامل وليم ستابز على الأحداث والنصوص والديانات، فيدعى قائلاً: ومن ثم رفض المسيح (أرثه)، وأباح لسيف غضبه (الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب) أن يستفحل أمره، فيستأصل معانديه الذين لم يكن لديهم اهتمام بالشرف، يمنعهم من ارتكاب الأفعال الإجرامية، فجعلته يختار الأرض الطاهرة، ليمارس فيها شعائر التجديف التي طبعت عليها الأمم، وظل ذلك فترة من الزمن![1].

كيف أرخ هذا الرجل لنسب صلاح الدين وأصله.

نتبين خبث هذا المؤرخ وعنصريته عندما أرخ للحملة الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، وكتب ترجمة عن صلاح الدين وأصله، فها هو يقول: ولابد لنا ونحن في محاولتنا تعريف الأجيال القادمة بهذا الرجل الذي أسرف في اضطهاد الملة المسيحية أن نسوق نبذة عن نسبه.

كان صلاح الدين من قوم يعرفون باتباع أمير المؤمنين، ولم يكن أبوه من نبعة عالية، كما لم يكونا من طغام الناس وعامتهم، ثم أنه هو نفسه لم يكن بالمجهول المولد، فقد كان أبوه يعرف بـ (أيوب)، أما هو فقد عرفه الناس بـ (يوسف)، وقد جرت عادة الأمم إطلاق الأسماء العبرية على أولادهم عند ختانهم أثر ولادتهم، وكان هذا عرفًا سائدًا بين الكثيرين من شعوب هذه الأمم، وجرت عليه العادة الإسلامية.

---

(١) «صلاح الدين وريتشارد» وليم ستابز (ص٢٥-٢٦).

أما الأمراء منهم، فكانوا يسمونهم بأسماء مستمدة من شرح محمد ﷺ، كي تذكرهم بأن يكونوا على الدوام من المدافعين في صدق عن الدين، وكان المألوف عند هذه الأمم أن يتضمن اسم الواحد منهم لفظ الدين، ولذلك سمي هو بصلاح الدين.

وترجع بداية ظهور شأن صلاح الدين وبروز قوته إلى (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي)، حيث أخذ يجمع مكسبه غير المشروع كان يفرضها على بنات الهوى في دمشق[١].

ثم راوده الأمل في أن تكون له مملكة خاصة به، حين تنبأ له عراف بأنه سوف يتولى حكم دمشق والقاهرة معًا، فقويت أطماعه، وعلى الرغم من أن سلطانه كان قاصرًا على بعض الأراضي، إلا أنه تطلع إلى تأسيس مملكة خاصة به، يتولى حكومتها مستقلاً من غير شريك ليشاطره الحكم، فلما وصل إلي سن بلغ فيها من القوة الجثمانية حدًا يؤهله للوصول إلى مرتبة الفروسية ذهب إلى (همفري) الثاني صاحب (تورين) أو (تبنين) الذي كان إذ ذاك أحد أمراء فلسطين البارزين، وتسلم منه نطاق الفروسية، جريًا على ما هو مألوف عند الفرنجة[٢].

ونترك وليم ستابز، ونعود إلى مجرى الأحداث للحملة الصليبية الثالثة، فقد أدرك من اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه مالم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضائل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي نقدوها، ولم يلبث (كونراد دي مونتفيرات) أن أرسل (جوسياس) وهو أحد أساقفة

---

(١) يقول الدكتور. حسن حبشي المترجم ردًا على هذا الافتراء: هذا مثال من الأفكار الخاطئة التي كانت سائدة عن كبار رجال المسلمين، وربما كانت من وضع الجهال الذين لم تكن ثقافتهم بالدرجة التي تؤهلهم لتبيين الحق من الباطل، ولم يكن فيهم أحد مثقف، بل كان يحكمهم الهوى الفاسد.

(٢) وليم ستابز «صلاح الدين وريتشارد» (ص٣٠).

صور أو رئيسهم، أرسله إلى غرب أوروبا فـي منتصف عام ٥٨٣هـ - أواخر صيف عام ١١٨٧م، ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها النجدة العاجلة.

لما وصل (جوسياس) إلى صقلية اجتمع على الفور مع ملكها (وليم الثاني)، فكان أول من استجاب للدعوة، بعد ما راعه مـا سمعه من (جوسياس) من أنباء الهزائم والكوارث التي حلَّت بالصليبيين في الشرق.

ولما كان في حالة حرب مع بيزنطة، فقد عقد صلحًا مع الإمبراطور البيزنطي (إسحق الثاني انجيلوس في شهر مـحرم عام ٥٨٤هـ - آذار عام ١١٨٨م، ليتفرغ للقضـية الصليبـية، وبادر بإرسال أسطول يحـمل بضع مئات من الفـرسان إلى طرابلس بقيـادة أمير البـحر الصقلي (مـرجريت البرنـديزي)، وقد نجح في منع صلاح الدين من فتح طربلس[1].

ولنترك مؤرخهم وليم سباتز يتحدث عن هذه الموقعة البسيطة، فيقول: الملك (وليم) يرسل (مـرجريت) على رأس خـمـسين غرابًا وخـمسـائة فارس لنجـدة الأرض الطاهرة!!.

تعليـق:

يا سبحان الله.. أكانت طاهرة بكم، نجسة بكم يا أهل الإسلام؟، إنه افتراء عنصري من هذا المؤرخ.

ويواصل هذا حديثـه، فيقـول: ما كان قط لمن يغـضب الرب بإنقاذهم، أن يهلكوا، فهو الذي إذا أراد شـيئًا فيقول له: كـن فيكون، وها هي النجدات التي طال انتظارها تصل، وكـان أولها النـجدة التي بعث بهـا ملك صقليـة (وليم) المعظم، وعلى رأسـها (كـونتان)، وتتـألف من خمـسين بطسة، فـمن ذا الذي يساوره الشك حـينذاك في أن هذا الأمر كان مـعجزة، فـقد استطاعت أنطاكـية

(١) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٥٠).

الصمود، ويرجع الفضل في ذلك الصمود إلى هذه النجدة، كما نجحت طربلس هي الأخرى في الدفاع عن نفسها، وقيضت النجاة لصور، فقرت القلوب في الصدور، وأطمأن بال سكان هذه المدن، وباتوا آمنين على أنفسهم، ولا يخافون مسغبة ولا جوعًا، ولا يخشون أن يهلكوا بالسيف يتحكم في رقابهم.

وكان الذي يتولى قيادة الأسطول هو (مرجريت)، وكان رجلاً جم النشاط، كبير الهمة بصورة واضحة، وقد أسرع بسفنه وبما تحت يده من الشواني، وتغلب على من صادفهم من القراصنة، ودمر سفنهم وأعطبها، فتحفن ذلك عن بسط الأمان ظله على الطريق، مما شجع غيره على الاقتداء، كما فرض سلطانه على كل ناحية في البحر، بما في ذلك الجزر النائية، وحالفه حسن الطالع، فلم يتعرض للأخطار من ناحية البحر، واكبه النصر في أكثر من موقعة، حتى لقب بحق بملك البحر، ونعته البعض بنبتون[1].

لقد اقترب ملاحوا الأسطول من طرابلس التي أصبحت قريبة منهم، حتى كانوا يرونها رأى العين إنها مدد أبصارهم، وشاهد السكان قلاع السفن تمخر عباب البحر وقد أصبحت دانية منهم.

وعلى الرغم من اقتراب رسل الخلاص والإسعاف إلا أن القوم كانوا لا يزالون واقعين تحت وطأة الخوف الذي يملك عليهم نفوسهم، وسيطر على جوانحهم، فبادروا إلى تسلق الأسوار وإعتلاء المتاريس، وإن لم يزالوا في حيرة لا يدرون هل كتب القدر عليهم الاستسلام؟ أم قد كتبت عليهم المقاومة؟، ذلك أنم لا يدرون من هم أصحاب هذه البوارج، ولكن ما لبثت الحيرة أن ذهبت

(١) «الحملة الصليبية الثالثة» (ريتشارد وصلاح الدين) (ص٥٠، جـ ١) ـ وليم ستابز، ترجمه د. حسن حبشي.

عنهم وعرفوا، حتى جرهم بالهتاف العالي في فرحة ردد الأفق صداها، وترددت في جميع الأجواء حتى أبصروا الرايات تحقق وعليها الصليب، وغيره من شعائر الدين المسيحي ورموزه، وكانت هذه الأعلام ترفرف على مؤخرة هذه السفن القادمة، كما ذخر الشاطئ بجموع الناس الهادرة الذين أبقوا زراقات بعضها في أثر بعض، يتسابقون في الترحيب بالأسطول، وفاضت نفوسهم بنشوة فرح عارمة يعجز اللسان عن وصفها.

وكان من رجال هذه النجدة - غير (مرجريت) - رجل من أذيع الرجال صيتًا، ومن أعلاهم قدرًا، وأجلهم مكانة، وهو (هنري دي دانزي)، الذي جاء بخبرة لهم في لحظة كان البلد فيها أحوج ما يكون إلى مثل هذه المساعدة، وكان الوقت أنسب ما يكون لقدومها[1].

نعود إلى رحلة الأثقيف (جوسياس) إلى الغرب، فقد انتقل من صقلية إلى روما، ترافقه بعثة صقلية ليشرح للبابا (وريان الثالث) حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام، فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفي كمدًا في ١٤ شعبان ٥٨٣هـ - ٢٠ تشرين الأول ١١٨٧م، على أن خليفته (جريجوري الثاني) بادر على الفور بالاتصال بملكي انجلترا وفرنسا وامبراطور ألمانيا، يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويبعثوا قواهم لمحاربة المسلمين[2].

وتوفي البابا (جريجوري الثاني) في ١٣ شوال - ١٧ كانون الأول، قبل أن يرى ثمرة جهوده، وجاء خليفته (كليمنت الثالث) ٥٨٣-٥٨٧هـ، ١١٨٧-١١٩١م، فأسرع بالاتصال بالامبراطور الألماني (فريدريك بربرسا)، وأقنعه

(١) المصدر السابق (ص٥١).
(٢) ابن الأثير (جـ ١٠، ص٥٠).

بالاشتراك في حملة صليبية تتجه إلى الشرق، حدث هذا في الوقت الي انتقل فيه (جوسياس) إلى الغرب لمقابلة ملكي فرنسا وانجلترا (فليب اغطس) و(هنري الثاني)، واجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا، وأقنعهما بتناس خلافاتهما التي كانت حادة، وشجعها على عقد الصلح والاشتراك في حملة صليبية، ومع ذلك فإنهما تباطأ في التنفيذ وتجددت الحرب بينهما، ثم توفي (هنري الثاني) في عام ٥٨٥هـ ـ ١١٨٩م، وخلفه ابنه (ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو) فعقد صلحًا مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق[١].

هذه صورة عامة أجملها مؤرخون من المشرق العربي، ولكن كيف كانت صورة الإعداد لحملة الثالثة من وجهة نظر الغرب والصليبيين وهذا ما ستعرفه من مايلز ستابلز مؤرخ الحملة الثالثة.

صورة الإعداد للحملة من بلاد الغرب:

يقول ستابلز[٢]: بينما كانت هذه الأحداث ـ يقصد انتصارات صلاح الدين ـ تجري في الساحة الفلسطينية أبحر رئيس أساقفة صور، واسمه (جوسيوس) على ظهر إحدى السفن، حاملاً نبأ هذه الطامة الكبرى التي نزلت بالعالم المسيحي، وهكذا فإن الجرح الذي أصاب هذا البلد الصغير أحزن كل الأقطار، وتسامع به الأمراء، وتبين لجميع المؤمنين أن ميراث المسيح قد أخذته الأمم، فاستعظم البعض الخبر، وانكروه، وعز عليهم أن يصدقوه، كما حرك نفوسهم ودفعهم لأخذ الثأر[٣].

---

(١) «تاريخ بيت المقدس» يعقوب الغيني، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشرق عمان (١٩٩٨م) (ص١٥٨).
(٢) «الحملة الثالثة» (صلاح الدين وريتشارد) ستابلز (ص٥٤).
(١) المصدر السابق.

ريتشارد كونت بواتو (قلب الأسد)
أول من حمل الصليب

كان (ريتشارد كونت بواتو قلب الأسد) صاحب القلب الكبير، أول من حمل الصليب ليثأر لهذا الجرح الدامي، فكان بذلك أسبق الجميع إلى العمل مما دفع كافة الناس إلى الاقتداء به، وكان والده (هنري) ملك الإنجليز قد بلغ من العمر أرزله، فرأى الابن أن الشيب قد تفشع في رأس أبيه، وأدرك الصعاب الكبيرة التي لابد أنها لاحقة به إن هو شارك في هذه الرحلة الشاقة، فعزم على منعه من هذا السفر والمساهمة فيه، فذهب إليه وحاول صرفه عما يعتزمه من الخروج وحمل الصليب، ولكن الرب قدر إصرار هذا الرجل الجدير بالثناء والإجلال، فاختاره قدوة دون سواه، ممن في مثل سنه، وعلى الرغم من أن الكونت (ريتشارد قلب الأسد) كان أول من حمل الصليب إلا أن خروجه للحج لم يتم إلا بعد أن صار ملكًا عقب وفاة أبيه.

بعد قليل من هذه الأحداث حمل الصليب في جيسور كل من (فيليب) ملك فرنسا، (وهنري) ملك انجلترا، واقتضى أثرهما ونهج نهجهما أمراء كثيرون، وعدد لا يحصى من رجال الدين والميليشمات المدينة، وتبعتهم حشود كثيفة، وسار الجميع خلفهم مقتفين خطاهم.

كانت الحماسة لهذا الحج الجديد شديدة، حتى لم يعد أحد هناك يسأل عن هذا الذي حمل الصليب، ولكن حل محل هذا السؤال سؤال غيره، يترد على جميع الألسنة هو: من ذا الذي لم يحمل الصليب حتى الآن، وأقبل الكثيرون يحملون الصوف والمغازل، ويبعثونها إلى من لم يشارك حتى الآن في هذا

الخروج الديني الحابي، قاصدين بذلك أنه أولى بالمتخلف والقاعد أن يقوم بما تقوم به النساء من الغزل والقعود في بيوتهن، وأحلت العرائس على أزواجهن، وراحت الأمهات ليغرين أبناءهن بالمشاركة في هذا الخروج وهن فرحات، ولم يكن يحزنهن سوى عجزهن عن أن يشاركن بأنفسهن بعولتهن الخروج بحجة عدم قدرتهن على ذلك لما عليه جنسهن من الضعف[1].

عمت أخبار هذه الرملة المباركة كل ناحية، كأنه الطوفان الغامر اجتاح كل موضع، حتى لقد غادر كثير من الرهبان أديرتهم، وانضموا إلى معسكر المحربين، وخلعوا قلانسهم، ولبسوا آلات الحرب، حتى أصبحوا ينعتون بنعت جديد هو أنهم فرسان المسيح!![2].

وراح رجال الكنيسة يدبجون الخطب البليغة الرائعة، لحث الناس على التخلي عما لديهم من الثياب للقيام بالحرب.

وأن يقتصدوا في رفاهيتهم التي يتقلبون في مطارفها ليكون لإخوانهم الحجاج نصيب مما ينعمون به، ومما لديهم.

وتم اتفاق عام، يلزم أو يلتزم به كافة الأمراء والأساقفة، بأن يؤدي كل قاعد أو متخلف عن المساهمة في الخروج بعشر ماله ومما ملكت يداه، حتى يُصرف منها لسد حاجات الحجاج الفقراء.

غير أن الجشع الكريه أغرى الكثيرين منهم على أن يتخذوا من هذا القرار ذريعة لاستنزاف أموال لا مبرر لها من الرعية.

---

(١) ستابلز (جـ ١، ص٥٦).

(٢) المصدر السابق.

وقد مات في الآونة الأخيرة (وليم) ملك صقلية، فكانت وفاته خسارة فادحة نزلت بالمؤمنين، لأنه كان قريبًا غاية القرب من الأرض الطاهرة، ولأنه سعى السعي الصادق لغوثها.

كل هذا الإعداد كان للحملة التي واجهها صلاح الدين وزجاله بشجاعة، ولنبدأ بـ (فريدريك بربوسا) إمبراطور ألمانيا الذي حمل الصليب، وأعلن تحذيره الصريح إلى صلاح الدين.

■ ■ ■

فريدريك بربروسا والطريق إلى دمشق

يقول ستابلز[1]: على أن فريدريك إمبراطور ألمانيا، لبس لباس الحجاج، وحمل شعيرة الحج المقدس، وكان صادق الظاهر والباطن، طيب السريرة فيما اعتزمه، وكانت مملكته تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى بحر الشمال، أما مجده فقد اسمر في التزايد والعلو، بفضل ما أحرزه من انتصارات باهرة أخذ بعضها يتوالى في أثر بعض، ولم تشبه شائبة تلحق به عارًا أو تحط من قدره، ولقد نبذ هذا الرجل ظهريًا جميع غوايات الدنيا، كما أن نشاطه ـ لاسيما ما كان منه في أخريات أيامه ـ أهله لماهر قمين به من الثناء وحسن الأحدوقة، وكان كبير السن، وكان له من الأولاد أقدر منه من الناحية الجسمانية على تحمل مشاق الحرب وأعبائها، ولكنه كان يراهم ليسوا مثله في القدرة على مراعاة المصالح المسيحية مراعاته هو لها، ولما كانوا قد اجازوا ماكرس هو نفسه من أجله، سواء

(١) «الحملة الثالثة» (جـ ١) (ريتشارد وصلاح الدين) ستابلز (ص٥٧).

كانوا معه أو نيابة عنه، فقد خلف ابنه الأكبر هنري وراءه ليصوف شؤون الحكم، ويدير أمور المملكة ويتـولاها برعايته أثناء غيـابه عنها، وأصطحب ولده أعلقب بدون سوابيا.

ولقد جرت عادة جلالته ألا يهاجم كائنًا من كان قبل أن يبعث إليه يعلمه أنه خارج لقتـاله، ومن ثم بعث جلالته الإمـبراطورية رسولاً من جهـته إلى صلاح الدين، وأعطاه خطابًا إليـه، ممهورًا بخـاتمة تضمن إليـه بالتفكير التـام على كل سيئاته التي اقترفها في حق المماليك المسيحية!!.

وأنذره أن لا مناص لجلالته من الخروج لقتاله ومـحاربته إن لم يستجب لهذا الأمر!! . . وكان الخطاب كالتالي:

رسالة فريدريك بربروسا ملك ألمانيا لصلاح الدين:

من فريدريك الذي هو برحـمة الرب إمبـراطور الرومان والغلب على الدوام بأمره، والقاهر الجبا لأعـداء الإمبراطورية إلى صلاح الدين رئيس المسلمين الذي سوف يفر من بيت المقدس فرار فرعون الشهير ذات مرة، لقد تسلمنا منذ حين ما يناسب عظمتنا الإمبراطورية ألا وهو رسالتكم المخلصـة التي بعثتم بها إلينا بشأن أمور خطيرة الشأن، والتي تجلب لك النفع العميم أن صدقت فيما جاء بها، وقد اعتبرناها لأن نتراسل مع عظمتكم عن طريق رسالة منا إليكم.

والآن وقد دنست الأرض الطاهرة التي فوض إلينا الرب الأزلي الحكم فيها، وجـعلنا حـفظة لأرض يـهـوذا والسـامـرة وفلسطين، مما يفـرض على مـكانتنا الإمبراطورية أن نوليها ما يستلزم منها رد الجرأة الوقحة، ورد التعدي الذي يجب اللوم، ومن أجل هذا، وحتى لا نكون بادئين بحرب، قـد نعد من أجلها ظالمين

فإننا نحدد فترة عام واحد يبدأ من أول نوفمبر لشن بعده الهجوم على أرض مصر وبلاد صوعن[١]، متخذين من الصليب هاديًا ومسترشدين لنا به ومستمدين منه القوة، وباسم يوسف الصديق، ولن نشنها حربًا إلا أن قصرتم في إعادة الأرض وإرجاع كل ما اغتصبتموه من أهله إلى أهله، وعوضتموهم عما يتكافأ وما اقترفتموه من أفعال جاوزت الحد، واستحققتم عليها اللعنة[٢].

ويواصل هذا الملك المتعجرف التهديد والوعيد والتطاول على صلاح الدين والمسلمين، بل إدعى أن كل البلاد تحت نفوذه، فيقول صلاح الدين في رسالته: وهل غاب عنك أو فات علمك أن ارمينيا، وغيرها من الأقطار التي لا يحصيها العد إنما هي خاضعة لنفوذنا؟.

إن هذا أمر معروف تمام المعرفة للملوك الذين ارتوت السيوف الرومانية من دمائهم، وسوف تنبؤك تجربتك الشخصية ما الذي تفعله نسورنا المنتصرة بعون الرب، وما سوف تفعله كتائب الأمم المختلفة، وما يصفر عنه الغضب التيوتوني حين تشهر السيوف، وما سوف تؤديه القوى التي لا تغلب، وهي الممتدة بعد منابع الراين، وما سيقوم به من الأستوريون الذين لم يعرفوا أبدًا الفرار، والفرانكيون، والرانكيون، الذين إذا ارتعبوا لأحد تربصوا له بالسيوف، والبولونيون الذين هم أشد فتكًا من الوحوش الضاربة، والاستوريون، والأليريون واللمبارديون، والتوسكانيون الذين خرجوا من مستنقعات أنكونا، وأساطيل البندقية، والبيازنة البحريين.

---

(١) ورد في المزامير (٣/١٨) تسمية أرض مصر بصوعن، في قوله: قدم آبائهم صنع أعجوبة في أرض مصر بلاد: صوعن.

(٢) «صلاح الدين وريتشارد» (ص٥٩).

فـفي هذا اليوم الموعـود الذي هو يوم الفـرحة الغـامـرة والسرور الشـامل والاستسلام للرب، سترى كيف اعتادت أيدينا حمل السيوف، وهي الأيدي التي طال اتهـامك إياها بأنها قـد ضعـفت، ودب فيـها الوهن، وإبلى كـرا السنين، وأنهك قواها[١].

ويدعى ستابلز الأمانة في تاريخه، ويـضمن كتابه رد صلاح الدين على هذه الرسالة دون حذف أو تـغيير على حد قـوله الذي جاء فيه: ونحـسب أنه ينبغي علينا أن يضمن كتابنا هذا الرد الـسلطان صلاح الدين على الإمبراطور، لأنه رد يوضح في جلاء مدى الكبرياء والثقة اللـتين، دفعت ذلك الطاغية إلى المقاومة - يقصد صلاح الدين بلفظ الطاغية!!.

ويواصل: كما يبين اللغة الساذجة التي كتب بها هذا الرد، وها نحن نوردوه دون أن نغير منه شيئًا، قال السلطان[٢]:

رسالة صلاح الدين لبربروسا:

إلى الصديـق والعزيز المبجـل فريدريك ملك ألمانيـا العظيم - انظر إلى بداية رسالة صلاح الدين، وما فيها من أدب التـخاطب، وقارن هذا الاستهلال ببداية

---

(١) المصدر السابق (ص٦٠).

(٢) يقول الدكتور. حسن حبشي المترجم لكتاب الحملة الصليبية الثالثة: أشارت المؤرخة (هيلين نيكسون) إلى ورود هذا الرد في بعض المصادر الغربية، ولكنها لم تؤكـد صحته، والرأي عندنا أن هذه المصادر لا تنهض دليلاً على صحتـه، فلم يورده العماد الأصفهاني . . . لازمًا لصـلاح الدين، ولاسيما وأن فيـه عبارات تشير إلى صلابة صلاح الـدين في مواجهة الـصليبيين، فهـل لنا أن تشكك في أقوال مؤرخينا كابن كـثير والعماد، والرجل ستابلز حرص على التـضمين ظنًا منه أن الرسالة تدين صلاح الدين وتؤكد وصفه بالطاغية. فيقول: وها نحن موردوه دون أن نغير منه شيئًا.
انظر: «ريتشارد وصلاح الدين» (ص٦٠).

رسالة بربروسًا لصلاح الدين، إذ يقول في عجرفة وكبرياء: من فريدريك إلى صلاح الدين الذي سوف يفر من بيت المقدس فرار فرعون الشهير ذات مرة، وعندما نواصل قراءة رسالة صلاح الدين نشعر بأنه كان رجلاً عظيمًا يحمل سماحة دينه، وأيمان حقيقي غير مزيف ولا متعجرف - تقول رسالة صلاح الدين: باسم الله العظيم، وبفضله الذي لا إله إلا هو، القوي الجبار، المنتصر الذي لا زوال له ولا نهاية لملكه، والذي نشكره شكرًا أبديًا، فهو الذي عمت أفضاله العالمين، ونسأله أن يسبغ طيبات رحمته على رسله، لاسيما هادينا ونبينا محمد ﷺ الذي بعثه هداية للناس إلى الدين الحق القويم، وإلى الصراط المستقيم، الذي سوف يظهره على كل دين.

والآن فإنا نلفت نظر الملك العزيز القوي، والصديق المحب ملك ألمانيا، أن رجلاً اسمه (هنري كونت رفينيز)، وفد إلى أمرائنا قائلاً أنه رسول منك إلينا، ويحمل رسالة نسبها إليك، فقرأناها واستمعنا إلى ما لديه مما أراد بلاغه إلينا، وإنا لمجيبون على هذه الرسالة، وها هو ذا ردنا عليها.

ترى . . ما الذي يعنينا من أمر من قبلوا الحضور معك لقتالنا فمن عددتهم وسميتهم، فقلت ملك كنرد كذا من هذ البلاد أو تلك، وعددت القوامس ورؤساء الأساقفة والمراكيز والفرسان، ولو أردنا نحن أن نلقى على سمعتك من في خدمتنا ومن يستجيبون لي، وإلى ما ألقيه إليهم هيهات أن تستطيع الإلمام بهم جميعًا، وإذا كنت أنت قدر رحت تعدد أسماء الأمم المسيحية، فلدينا من الشعوب الإسلامية من يريدون عنهم، وإذا كان هناك بحر بينك وبين النصارى الذين ذكرتهم، فليس، ثم بحر يفصل بيني وبين هؤلاء الشرقيين الذين يعجز المرء عن إحصائهم، كما أنه لا يوجد عائق يعوقهم عن الحضور إلينا إن نحن

طلبناهم، ولدينا من السلاطين المحاربين من نستطيع بهم حفظ أراضينا حتى ولو خلت من وسائل الدفاع، والذين استطعنا بواسطتهم أن نستولى على الأقطار، ونظهر على أعدائنا، ولدينا من الفلاحين الذين سوف يقاتلون قتالاً ضاريًا عنيفًا، إن نحن أمرناهم بقتال الشعوب التي تريد غزو أرضنا وحينذاك يتم استئصال شأفة هذه الشعوب.

فإن أنت حشدت جيشك ـ كما تقول رسالتك إلينا ـ وخرجت على رأس رجال لا نهاية لجموعهم حسبما جاء في وصف رسولك، فسوف نخرج إليك مستعينين بالله، وأن هذه السواحل كلها سوف تضيق عن جموعنا، وسوف تجتاز البحر، وتستولى على كل شبر في بلادك بقوة الله، لأنك إن جئت بكل قوتك، وستكون أنت هنا بكل من يأتمر بأمرك من الشعوب، ونعرف أن لن يبقى وراءك في بلادك أحد يكون قادرًا على الدفاع عنها أو حمايتها، أما نحن فحين يرزقنا الله النصر عليك، فلن يبقى لنا شيء نعمل سوى أن نكبل يديك في سهولة ـ بإذن الله ومشيئته ـ.

لقد جاءت القوات المسيحية لمحاربتنا متحدة مرتين، كانت إحداهما في بابليون ودمياط والأخرى بالإسكندرية، وكان ذلك أبان وجود أرض القدس في أيدي مسيحية، فحاربتمونا، وبلاد الشام في أيدكم وفي قلاعها يعمل مستقلاً عن سواه في حصنه الخاص به، وتعرفون ما كان من ارتداد المسيحيين في كلتا المرتين، وما تمخضت عنه هجماتهم التي شنوها علينا.

أما الآن فقد رجع قوم إلى بلادهم وأضاف لنا الرب أقاليم أخرى، وضم إلى أملاكنا بلاد من هنا وهناك، فغدت في يدنا مصر وملحقاتها، والشام، وأراضي القدس الساحلية، وأرض الجزيرة وحصونها، وبلاد الهند وما يتبعها،

وأصبح هذا كله بأمره تعالى موكولاً إلينا، وحكمه منوط بنا، وأن لنا الطاعة في أعناق جميع بلاد الشرقيين ثان نحن أمرنا ملوكهم، وهم أعظم الملوك شأنًا، لم يتأخر أحد منهم عن تلبية دعائنا، ولو طلبنا من خليفة بغداد حفظه الله القدوم إلينا، لقام من فوق كرسي خلافته العالي وخف لمساعدة جنابنا.

ولقد استولينا بعون الله وقوته على القدس وبلادها، ولم يبق في يد النصارى سوى ثلاث مدن، هي: صور، وطرابلس، وأنطاكية، وسوف نستولى عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ في القريب.

فإن أنت آثرت الحرب وأرادها الله استولينا على جميع البلاد المسيحية بإذنه تعالى، وسنأتي بإذنه تعالى لمقابلتكم كما جاء في خطابكم، وإن أنت أردت مسالمتنا فسوف ترسل إلى قادة البلاد الثلاثة التي أشرت إليها، وتأمرهم أن يسلمونا إياها بلا نقاش، وأعدنا إليكم الصليب الطاهر، وأطلقنا سراح جميع من في أسرنا من المسيحيين الموجودين في كافة أرجاء بلادنا، وعدنا وإياكم في سلام تام، ورضينا أن يكون لكم قسيس واحد في القبر المقدس، ورددنا عليكم الأديرة التي كانت موجودة أيام الكفر، وأحسنًا لأصحابها، وسمحنا للحجاج أن يقدموا آمنين في ظلنا.

فإن كانت الرسالة التي حملها إلينا المدعو (هنري) رسالة الملك حقًا، فهذا ردنا عليها، هدانا الله تعالى إلى ما فيه الرشد.

كتبت هذه الرسالة في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة من هجرة رسولنا محمد ﷺ والشكر لله الواحد الأحد، وصلى الله على نبينا محمد وآله، وحفظ الله الملك المفطم المنصور موحد أهل الحق، رافع راية الدين، محدد الدنيا

والدين، سلطان المسلمين والوثنيين، خادم الحرمين الشريفين، وبيت القدس الشريف، والد المنصور يوسف بن يعقوب محي دولة أمير المؤمنين[١].

فريدريك بربروسا يتوجه إلى الشرق

كان الإمبراطور الألماني (فريدريك بربروسًا) الأسرع إلى التحرك، على الرغم من كبر سنه، فغادر أوروبا الغربية في شهر ربيع الآخر عام ٥٨٥هـ - شهر أيار عام ١١٨٩م، متوجهًا إلى الشرق، واصطحب معه ثاني أبنائه، فردريك أمير سوابيا.

وفي ذلك يتحدث المؤرخ يتابلز، فيقول: نظر الإمبراطور العظيم بعين الازدراء إلى ما تضمنه كتاب الطاغية المتجدد الذي لا إيمان له، وغضب الغضب الجدير بأمير مثله، وكانت كل شعرة فيه وكل عاطفة به تتحرق للحرب التي تبعه فيها عظماء الإمبراطورية، فتجمعت حشودهم بأجمعها في مينز، استجابة للنداء الإمبراطوري، وتعاهدوا على القيام برحلة الحج المقدسة هذه مرددين ما جاء في داود: «من قبل الرب كان هذا»، وقول يوحنا: «الريح تهب حين تشاء، وتسمع أنت صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا أين تذهب».

واستعد الأمراء الكبار للحرب، وأخذوا لها أهميتها، ولم يكونوا مدفوعين في ذلك وراء مجد زائف، ولا سعيًا من أجل المال، ولا استجابة لتوسلات البعض إليهم، بل كان الدافع الوحيد لهم، هو رغبتهم في المكافأة الأبدية من قبل الرب، ومن أجل الرب، ولقد شاءت الحكمة الإلهية أن ينادوا بحرية، وأن يكون عطاؤهم من تلقاء أنفسهم، فكانوا خير رفاق، وأقدموا من كل حدب وصوب تدفعهم مشيئة الروح القدسي.

---

(١) «الحملة الصليبية الثالثة» (جـ ١، ص٦٣).

وما من أحد تسنى له أن يشهد مثل هذا الجمع الحاشد من شتى الشعوب، وهذه الكثرة الهائلة من الأمراء، وكلهم تحت قيادة قائد واحد، وأيقن يقينًا باتًا، أن مجد الإمبراطورية القديم لم يدرج في الأكفان، فقد كان في جيش المسيح هذا كثير من الأساقفة والقوامس، إلى جانب العديد من الأمراء.

واقتضت الحكمة وسداد الرأي أن يصدر قرارًا ألا يشارك في هذه الرحلة من ليس عنده من وسائل العيش ما يسد حاجته، ويكفيه لسفر عام كامل، وجهزت أعداد كبيرة من العربات للمسافرين الذين يشكون علة من العلل، حتى لا يكون العجزة مدعاة لتأخير الأصحاء عن المسير، وحتى لا تهلك في الطريق جموع المرضى، وغير القادرين على الزحف.

وتساءل الناس عما إذا كانت هذه الحشود الوافرة من المحاربين تسافر برًا أم بحرًا، وأجمعوا على أنه مهما كثرت أعداد سفن الأسطول، فهيهات أن تكفي هذه السفن على كثرتها على أن تنقل هذه الآلاف المؤلفة من المحاربين على متنها، لكن لما كان الإمبراطور شديد اللهفة وكبير الحرص، على أن يخرج مشروعه إلى خير الوجود، فقد بادر بالسفر هو ومن معه إلى المجر، فقد كان آخر من أقسم يمين الحج[1].

العبور إلى المجر

جاء ملك المجريين ويدعى (بيلا)، ووجهه طافح بالبشر ليكون في استقبال القيصر، وكان (بيلا) رجلاً حبته الطبيعة بمحاسن جمة، فهو طويل القامة، ذو طلعة قد نسمت فيها سمات النبل، وتوحي بالشرف الأثيل.

---

(١) ستابلز (ص٦٥).

واقتدى كثيرون من أهل مملكته بملكهم وساروا على نهجه الطيب، وردت نفوسهم حين أبصروا الجيش الطاهر، لو انضموا إليه[١].

نعود إلى المشهد في المشرق العربي الإسلامي، فقد أثار زحف الجيش الألماني الهلع في نفوس المسلمين، فبادر صلاح الدين إلى إعلان الدعوة للجهاد، وطلب المساعدة من أمراء سنجار والموصل وإربيل، كما أرسل القاضي ابن شداد إلى بغداد لطلب المساعدة من الخليفة العباسي (الناصر لدين الله)، وقد بلغ الرعب في صفوف المسلمين، بفعل اقتراب الجيش الألماني من بلاد الشام، فاخلوا حصن بجراس في شمال الإسكندونة[٢].

وتحدث المؤرخون المسلمون عن الجموع الألمانية بعبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام، أمام ضغط الألمان، من ذلك قول ابن الأثير: ولما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام[٣].

وقال أبو الفداء: بلغ المسلمين وصول الإيمان، وكانت قد سارت من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون بذلك، وأيسوا من الشام بالكلية[٤].

ولكن هل وصل الألمان حقًا، وهل جاء فردريك بربروسا إلى الشرق؟، ذلك ما سنعرفه من ستابلز، وهو يتتبع مسير فردريك وجيوشه.

يقول ستابلز بعد أن بين صورة الاستقبال الرائع من المجر وملكها لبربروسًا وجيوشه، يقول: ما إن عبر الإمبراطور الدانوب - نهر - حتى بلغ أقصى ممرات بلغاريا الجبلية، وإذ ذاك انطلق البلغاريون والبشناق والهون والآلان من مكامنهم، وكروا مهاجمين رجال الرب.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «الكامل في التاريخ» (جـ ١٠).
(٣) «الكامل» (جـ ١٠، ص٨٣).
(٤) «المختصر في إخبار البشر» (جـ ٢، ص١٦٤) لأبي الفداء.

لقد تحولت هذه الشعوب إلى عصابات تقطع الطرق على المارين بسبب ما كانت عليه بلادهم من الوعورة والجدب.

وقد غادر الإمبراطور بلغاريا، ودخل مقدونيا، وهي أرض يصعب اجتيازها ويشق عبورها لكثرة ما بها من الجبال الشاهقة الارتفاع، الشديدة الانحدار، ولكثرة أشجار الشوك التي تسد الطرق وتعوق السير، لا سيما في الممرات الضيقة المكتوبة، بالإضافة إلى ما حبتها به الطبيعة من استحكامات تشرف على هذه المسالك.

ولقد بعث الخسيس (اسحق أنجيلوس) إمبراطور القسطنطينية إلى تلك الشعوب يحثها على القيام بكل ما من شأنه إقامة العراقيل في وجه (فريدريك بربروسة) وعسكره، للقضاء عليه وعلى جيشه الإمبراطوري في أثناء زحفه، فإن لم يتسن لهم على إيقافه، فلا أقل من عرقلة تقدم الجيش الزاحف.

لكن على الرغم من ذلك فقد كتب لفرساننا النجاح في التغلب على عصابات قطع الطرق، وكان لفرساننا الغلبة أيضًا والنجاح في اختراق تلك النواحي، واجتازوها بصعوبة، فلما مروا لهم (فيليبوليس)، وكانت هذه المدينة قد سميت باسمها الحالي نسبة إلى الإمبراطور الروماني (فيليب)، إذا كان أول من تنصر من أباطرة الرومان، فلما سمع اليونان أن اللاتين قادمون فروا على وجوههم من المدينة، وقد تولاهم الفزع، واستبد بهم الفزع الذي لم يكن له داع.

وعلى الرغم من أن هذه الشعوب لم تستطع أن تحول بين جيشنا وبين متابعة زحفه إلى الأماكن المشار إليها إلا أنها لم تقصر في بذل غاية جهدها في هذا السبيل، ففر جميع سكان تلك النواحي إلى الجبال حاملين معهم كل ما استطاعوا الانتفاع به، فلما جاء الألمان وجدوا أمامهم بيوتًا خاوية على عروشها، خالية من كل ما يمكن الانتفاع به.

كـان الإمبـراطور (فريدريك) قـد بعث إلى القـسطنطينيـة من قبل أسـقف (منستر) وبصحبته طائفة من الأمراء للتفاوض حول السلام، إلا أن طاغية اليونان الظالم الجبار (اسحق كومنين)، زج بهم الحبس غـير مكترث بما يتمتع به السفراء من حصانة ينزلها الجميع منزلة الإحترام التي يرعاها العرف والشرف.

لكن هذا الإمبراطور شجب كل ذلك علنًا، ثم مـالبث أن عاد فأطلق سراح هؤلاء السـفـراء، ولم يكن في إطلاقـه سراحـهم صـادرًا عن مراعـاة للقـانون والتقاليد، بل يسـبب الفزع الذي تسرب إلى نفسه مخافة أن يقـوم رجالنا بتدمير المدينة الملوكـية، أن هو ظل سـائرًا في غروه، ولم يبـادر في إرضائهم، ومـحو الإهانة التي ألحقها بهم.

كان يؤيد هذه الحركة من جانب رجـالنا في تسوية المدينة بالأرض، ودكها دكاً أشيع، وربما كان ذلـك حقًا لا حرية فيـه، أن حرمة البلد قد انتـهكت حين سمع للمسلمين بتشـييد مسجد لهـم في بعض نواحيها، وإن كان (اسحق) مـدفوعًا في ترخيصه للمسلمين بذلك إلى الإتفاقية التي كانت قد برحها مع الترك من قبل.

فريدريك من اليونان إلى عبور فسفور

يقول ستابلز: زحف إمبـراطور اليونان العظيم شطر (أدريانوبوليس) ليقضي بها فصل الشتـاء، فلما دخل في الثاني والعشرين من نوفـمبر ١١٨٩م، وجدها خالية قد هجـرها سكانها، فنصب هناك معسكراته، وآثر ألا يتحـرك حتى يأخذ الجو في التحسن.

ولقد تخوف ولده (دوق سوابيا) أن يذهب الظن بالناس من هذا السكون من جانب الجيش الألماني وعدم الحـركة، فذهبا يسيء إليهم، فيعـدونه عدم إكترات

من جانب (فـريدريك)، أو قد يعتبـرون السكون وعدم الحركة جـبنًا من جانب الدوق، ومن ثم رأى الحـاجة ملحـة في الجيش إلى القـيام بتدريبـات ومناورات خلال عطلته الشـتوية، وذلك بالقيام بغارة على أحد القـلاع، واختاره واحدة لا تبعد كثيـرًا عن المدينة، وشرع في الهجوم عليها، وكان اليـونان قد احتشدوا في هذه القلعة واتخذوها قـاعدة يشنون منها غاراتهم على اللاتين، اعتـمادًا على ما تتمتع به هذه القلعة من الحصانة، ولكن سرعـان ما لحقهم العار، إذا ما لبثوا أن اضطروا إلى موادعة (الدوق) حين قـام بالهجوم عليهم مما أسفر عن وقـوع كثير من رجالهم أسـرى في يده، فلما سـمع الأمير البـيزنطي بما جرى من الهـجوم والأسـر، خاف المزيد من الـضرر، فـبادر إلـى إرسال سـفـراء من ناحيـة إلى الإمبراطور يعدونه نيـابة عن مولاهم بتسليمه الرهائن سببًا إلى إقرار السلم بين الطرفين، كما يعدونه بفتح الأسواق أمام الجيـش يشتري منها ما يشاء أن يشتريه من الزاد: مطعومًا ومشروبًا، ثم زاد على ذلك فـقرر السماح للسفن بأن تحملهم عبر البوسفور.

ولما كان الإمبراطور يؤثر عدم التلكؤ أو الإبطاء في البدء في السير، فقد قبل عروض الطاغية رغم معارضة رجاله الذين كرهوا منه أن يوادع إمبراطور بيزنطة، وترتب على ذلك أن قام قـبل عيد الفصح، فعـبر البسفور الضـيق المعروف عند العامة باسم مضيق (سان جـورج)، وعلى الرغم من ضيقه إلا أنه كان رائعًا كل الروعة لمـروره إلى جوار مدينـة القسطنطينيـة العظمى وشطره الناحيـة شطرين، أحدها في آسيا، والآخر في أوروبا[1].

ويتحدث ستابلز عن سلطان قونية، فيـقول: كان سلطان قونية رجلاً ماكرًا،

---

(١) ستابلز «صلاح الدين وشارل» (ص١٧، جـ ١).

متعطشًا لدماء النصارى ميالاً لفتكها، فاخفى ما يضمره من الشر لهم في جناياه، وتظاهر بالمودة وهو كاذب فيما ادعى، ولم يكن ذلك منه إلا حيلة احتالها للإيقاع بهم حين تبدو منهم غرة فيأخذهم على حين فجأة ويقضي عليهم فتدور عليهم الدوائر، وكان قد سبق أن أرسل إلى فردريك، وقت أن كان لا يزال في اليونان رسلاً يحثه على المجيء ويتهم الإغريق وأيدهم بالخيانة، ويصمهم بالخيانة والخديعة، ويعدهم من جانبه أن يكون نعم المخلص الأمين للمسيحين، وأن يضع ما يملك رهن إشارتهم ويكن تعبه كله في خدمتهم، وييسر لكل رجل من جيش (فريدريك) دخول الأسواق ويسهل عليهم المسير عبر أراضيه.

وجازت الأكذوبة على القيصر ظنًا منه أن هذا الشعب صادق في كلامه مثله، فأمر رجاله بما لا يشينهم، وأنذرهم بالويل والثبور، إن هم أقدموا أو أقدم واحد منهم عند دخوله البلاد التركية على النهب أو السلب، وفرض عليهم جميعًا مراعاة السلام الذي تم الإتفاق عليه مع السلطان، وترتب على ذلك أن وجب رجالنا عند دخلوهم البلاد كميات ضخمة من بلاد المعيشة، التي وفرها لهم السلطان من تلقاء نفسه، فتركوها كما هي دون أن تمتد إليها يد أحدهم.

ولكن وأسفاه للتقدير الخاطئ، فقد كانوا يجهلون ما أعده لهم السلطان (السلجوتي) من مجاعة فيها الهلاك والمضرة لمن تقدر له الحياة بعدئذ، كما أعد كثيرًا من الكمائن التي نصبها لهم، ولا عجب فهو الغادر الخائن الذي لم يعد رجالنا يثقون بأي كلمة يقولها، ومن ثم أخذوا حذرهم ورتبوا صفوفهم وساروا وهم في كامل سلاحهم وآلاتهم الحربية، وقد كان عددهم ثلاثة آلاف فارس، وثمانين ألفًا من المشاة، إلى جانب من معهم من الأساقفة والقمامسة[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٧٣).

في هذه الأثناء، وفي حوالي إبريل أول مايو من سنة ١١٩٠م - جمادى الأولى عام ٥٨٦هـ، وصل صلاح الدين من إمبراطور القسطنطينية: أن ملك الألمان وصل في أواخر مارس آذار في عدد هائل من الرجال والخيل، بقصد العبور إلى بلاد الإسلام، وأنه في ٣٠٠ ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع، وكتب إليه مقدم الأرمن وهو في قلعة على الفرات يبدى تنصحًا وإشفاقًا، ويصف هذه الحملة الألمانية ما يُرعب، وانتشر الخبر، وشمل المسلمين في الشام خاصة هلع عظيم، فأرسل صلاح الدين العيون والجواسيس إلى الأناضول، وأرسل في الوقت نفسه إلى ديوان العزيز - دار الخلافة - مع القاضي (ضياء الدين الشهزوري) يبلغها الخبر.

أما ستابلز فقد تحدث عن المصاعب التي واجهت العسكر المسيحيون في تركيا، فهم يعلنون شدة وطأة الكمائن عليهم، وهجوم سلطان قونية.

يقول ستابلز: لم يظهر الترك من جانبهم شيئًا تشم فيه الكراهية نحو رجالنا حتى حاصر رجالنا في بلادهم، وظلوا ملتزمين هذا الجانب من المسألة بضعة ايام، وكان هذا بتدبير وحيلة من السلطان الذي كان يرمي ظاهريًا، وفي بادئ الأمر إلى تيسير الأمر عليهم، وذلك بدخولهم من غير أن يصادفوا أية عقبة تكون موضع تذمر وشكوى حتى إذا صاروا في الداخل واجهوا نقصًا في الطعام ومشقة في الزحف، فيكون الهجوم عليهم إذ ذاك يسيرًا، ولا يجد مهاجم صعوبة ولا تعبًا في الإنقضاض عليهم.

لقد أقام هذا الخائن العراقيل في وجوههم عبر الممرات الجبلية، والأحجار والغابات والأنهار، التي كان لابد لهم من السير فيها، واختراقها وخوضها، كما أنه لم يف بالشروط التي كان حريصًا على الإتفاق عليها، فقد راح يمطرهم

بوابل هطال من السهـام، ويرميهم بالأحـجار كلما مروا في ناحـية من النواحي التي كان عليـهم السير منها، وإلى جـانب فإنهم لم يقفـوا على أثر للسوق التي أخبرهم أنهم موفرها لهم، فلم تصحبهم السلامة في عبور أراضيهم.

كان هؤلاء القوم لا يقاتلون فـي الأماكن المفتوحة، ويتخوفـون الاشتباك في مثل تلك الساحات مكتفين برمي خصومهم بالقذائف التي راحوا يصبونها عليهم صبًا لا إنقطـاع له، ثم عمدوا إلى مهاجـمة طرفي الجيش، فتـراهم تارة يرمون المؤخرة، وتارة يرمون المقـدمة، فإذا حدث أن انقسم الجيش في الممـرات الضيقة لطبيعة الأرض، هاجموا هذا القسم وذاك.

وظل العدو سـتة أسابيع سويًا لا يـكف عن رمي رجالنا الذي اضطروا أزاء ذلك، لملازمة سلاحهم ليلاً ونهارًا.

ومما زاد الطين بلة، ما بلوا به من نقص في الطعـام، وندرة الماء حتى أنهم كانوا يرون النعمة كل النعمة أن تنفق جيادهم في المعركة، فيقبلون على إلتهام لحومها.

ثم جـاء يوم هو من الأيام - هو يوم الثالث من مـايو) أصبح الذهـاب أمرًا عسيرًا كل العسـر، صعبًا كل الصعوبة، إذا كان عليهم اجتـياز الصخور الشديدة الإنحدار، واختـراق طرق بالغة الضيق، ففي ذلك اليـوم خرج القسم الأول من الجيش، الـذي كان بقيـادة ابن الإمبـراطور، فلما بلغ هـذه الناحية إذا بـالترك، يطلعون عليه فـجأة من كمين كانوا قد نصبـوه، ولم يدر به رجالنا، وكروا على مؤخرتنا كرة عنيفة، وراحوا يهاجمون رجالنا بالرماح، ويعلمون السيف فيهم من قريب، وهم واثقون من النصر، فلما بلغ خبر هذا الحادث المفجع سمع (الدوق) عاد لتوه إلى الطريق الذي جاء فيه منذ قـليل، ولم يكترث بما صادفه من صعاب فتغلب عليها، لكن أعماه الغضب عن رؤية الخطر الجاثم على مقربة منه، والذي

يهدده بالكارثة تحيق به، وراحت الجياد تتواثب وتتقافز عجزًا منها عن المسير، أما هو فقد انطلق على وجهه هنا وهـناك، حتى أفضى به الإنطلاق إلى موضع صار فيه بعيدًا عن حراسه، وذلك بحثًا عن أبيه، وراح يناديه، فلا يجيبه سوى صدى صوته، وبينما هو في هذا الموقف إذ بحجر يصيب خوذته، ثم يهشم أسنانه.

وعلى الرغم مما عاناه الألمان من كـثرة الغارات الشرسة، ومـا كابدوه منها، إلا أنهم بلغوا في النهاية مدينة قونية، التي احتمى السلطان الخائن وراء حصونها المنيعـة، فما كـان منهم وقد وصلوها، إلا نصبـوا خيامـهم على مسافـة ليست بالبعيدة عنها، دون أن يمر ببالهم مـا يخفيه لهم لغد من الأخطار التي تهددهم، وكان الإحتفال بعيد العنصرة قد أوشك على الإنتهاء[1].

مهاجمة قطب الدين سلطان قونية ـ فريدريك بربروسا ـ



هاجم الجيش التـركي بقيادة (قطب ملك شاه) ابن السلطان جـيش (فريدريك بربروسا)، يقول ستابلز عن هذا اليوم: كان (قطب الدين ملك شاه) ابن السلطان، هو الذي حشد هذه الجموع الزخرة ـ ثلاث مائة ألف شخص ـ، وزودوها بالسلاح مستهدفًا من وراء ذلك أن يسعد حماه صلاح الدين في جني ثمار النصر.

أما السلطان التركي فقد اعتلى في هذه اللحظة قمة البرج في الناحية، وراح يرقب ما سـوف تسفر عنه الأمـور، وينتهي إليـه الحال، وكان وهو في مـجلسه هذا، يطالع السـاحة المجـاورة التي توشك أن تشهـد المعركـة، وكله أمل في أن يتحقق له ما صوره له خياله وكبريائه[2].

---

(١) تابلز (ص٧٦).

(٢) المصدر السابق (ص٧٧).

وقد هزم في النهاية جيش (قطب الدين) بعد معركة عنيفة، واستطاع جيش (فردريك) أن يدخل قونية بعد معارك طاحنة، وخسائر كبيرة.

انهيار حملة فريدريك بربروسا وغرقه:

لقد حدث أن انهال جيش بربروسا نظرًا للمصاعب الجمة، والمشقة التي لاقاها في رحلة القدوم، وقد أخذت الأوبئة هذا الجيش الجرار، وفتكت به فتكًا ذريعًا قبل أن يصل إلى حدود إمارة أنطاكية، وكان حزم الإمبراطور (بربروسا)، هو الذي يمسك هذا الجيش ويجمعه.

ولكن حدث ما قلب الأوضاع رأسًا على عقب، ذلك أن (فريدريك بربروسا) غرق في نهر كاليكانوس، وقد ذكرت المصادر أن جيشه كان يعبر نهرًا قوي التيار على معبر واحد، وتدافع عليه وازدحم، فأراد الإمبراطور العبور من مكان إلى آخر، فدلوه على مخاضة سريعة الجريان فخاضها، ولكنه كان عجوزًا مسنًا، فوقع به حصانه في الماء واصطدم رأسه بالشجرة على المجرى، فجرح جرحًا بليغًا ما لبث أن لفظ بسببه أنفاسه، وإذا بالجيش كله يضطرب ويتفرق، ويختل نظامه، فبعضه عاد إلى ألمانيا، وبعضه تاه في دروب الجبال، وبعد هذا التمزق والوباء، لم يبق منه سوى القليل، الذي جمعه الإمبراطور المعروف بـ (فريدريك) سواب، فعاد بالفلول التي جمعها حتى وصل إلى أنطاكية، فيما كان الشاروون صيدًا هنيًا لأمراء المسلمين في الشمال، وعلى الدروب وللأسر وأسواق النخاسة، وبقدر الرعب الذي أخذ الناس فيهم كانت الجرأة عليهم والاستهانة بجماعاتهم المتضررة، لدرجة أن أحد المؤرخين يصفهم بأنهم «ركاب الحمير وحملة العصا»[1].

---

(١) «مفرج الكروب» لابن واصل.

وقد ذاب هذا الجيش الضخم ذوبان الثلوج، وطمع الأمير الأرمني بأخذ أموال الملك لمرض ابنه وضعفه، فلما جاء أنطاكية، كان يحمل جيفة أبيه في جرة نبيذ ليدفن في القدس، وضاق به أميرًا أنطاكية بعد أن رفض أن يعاونه على مهاجمة حلب، ولو أنه طمع بدوره أن يموت الابن المريض عنده، فيأخذ ماله، ولكن (فريدريك) فضل المسير إلى عكا، وتعرضوا في الطريق الساحلي لمختلف الهجمات والإهانات، فلم يصل معه سوى ألف، ولم يستطع ابن الإمبراطور أن يفعل شيئًا للفرنج، وقدر ركوب البحر إلى بلاده، ولكن لعنت القدر لحقت به، فغرقت بهم المراكب في الطريق، وانتهت ملحمة الصليبيين الألمانية بأبشع الشؤم، في حين تنفست البلاد الإسلامية كلها الصعداء[1].

وقد وصل منهم إلى عكا ألف مقاتل في أوائل رمضان ٥٨٦هـ - أوائل تشرين الأول ١١٩٠م، وكانت المدينة آنذاك تتعرض لحصار صليبي شديد، فشارك الألمان في هذا الحصار، وفي الوقت نفسه زال خطر الحملة الألمانية.

الصليبيون وحصار عكا



كان قد مرَّ على فتح صلاح الدين لعكا عامين أو يزيد، عندما تجمع الصليبيون وساروا إلى عكا للاستيلاء عليها على وجه السرعة بعد فشل حملة صلاح الدين على صور.

أفرج صلاح الدين عن (جاي لوزينان) أحد زعماء الصليبيين بعد أن تعهد له بألا يشهر في وجهه سيفًا أبدًا ويكون غلامه ومملوكه طليقًا أبدًا[2].

---

(١) «الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني.

(٢) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٥٥-١٥٦).

ولكنه خالف هذا العهد، فجمع جماعة من الفرسان والمتطوعين البيازنة، فسار بهم إلى صور - في بادئ الأمر - آملاً في أن يتولى الزعامة على القوات الصليبية في حربها ضد المسلمين وخطط لاستعادة المدن المفقودة، وبذلك تحول الصليبيون من الدفاع إلى الهجوم.

ونعود عن قصة الإفراج عن (جاي لوزينان)، فقد استفاد صلاح الدين ولو نظريًا من إطلاق (جاي لوزينان)، وذلك بسبب اشتداد النزاع بين صفوف الصليبيين، وبخاصة بين (جاي لوزينان) و(كونداددي منتفيرات)، لكنها لم تصل إلى حد الصدام، وذلك أن الموقف في صدر لم يلبث أن تأزم عند وصول الأول في أوائل شهر رجب ٥٨٥هـ - منتصف شهر أيار ١١٨٩م، بعد أن أغلق الثاني أبواب المدينة، ورفض أن يسمح له بدخلوها، بحجة أنه خسر مملكته في حطين في أثناء أثره لأنه تركها دون حكومة، وكادت تضيع لولا تدخله هو، وعلى أي حال، فإنه يحكم صور نيابة عن الملوك الصليبيين القادمين لإنقاذ المملكة، الذين عليهم أن يقرروا أيهما ينبغي أن يعهد إليه بأمر الحكومة[1].

كان صلاح الدين في هذه الأثناء يحاصر قلعة ثقيف أرنون، وعندما جاءته الأخبار بزحف (جاي لوزينان) نحو عكا، ظن في بادئ الأمر أن في الخبر خدعة لحملة على فك الحصار، ولم يتحقق من الأمر إلا بعد فوات الأوان، عندما اقترب الصليبيون من عكا، وأحكموا السيطرة عليها، عندئذ ترك قسمًا من جيشه يحاصر القلعة، وتقدم بالقسم الآخر باتجاه الصليبيين، وأراد أن يهاجمهم أثناء زحفهم من صور إلى عكا عند رأس الناقورة، لكن مجلس حربه لم يوافق إذا

---

(١) المصدر السابق.

أثار أمراؤه أنه من الأفضل أن يتركوهم حتى يبلغوا عكا، عندئذٍ يقعون بين فكي الكماشة، الجيش الإسلامي من الخارج وحامية المدينة من الداخل(١).

عسكر الصليبيون من التلال القريبة من عكا، خندقًا حول معسكرهم، كما أقاموا سورًا ترابيًّا وراء الخندق، فحشروا أنفسهم بينه وين أسوار المدينة، وانحصر اتصالهم بالعالم الخارجي عن طريق البحر فقط.

وكان صلاح الدين قد استدعى بعض القوات من منطقة الجليل، ولكنه لم يصل إلى الخروبة التي تبعد ستة عشر كيلوا مترًا إلى الجنوب الشرقي من عكا إلا في ١٤ رجب ـ ٢٩ آب، بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مراكزهم واحكموا الحصار على المدينة، فنزل على تل كيسان إلى الشرق من عكا، وعلى مروجها، وامتدت ميمنته إلى تل العياضية، وميسرته إلى النهر الجاري، في حين أنزل الأحمال في صفورية، فأحاط بذلك بالصليبيين المحيطين بعكا، فكان هناك حصار على حصار(٢).

وقام (جاي لوزينان) بأول محاولة لإقتحام المدينة، بعد ثلاثة أيام من وصوله، لكنه فشل، فتريث بعدئذٍ بانتظار قدوم الإمدادات من الغرب الأوروبي التي بدأت طلائعها تصل في شهر أيلول، وكُتب لهذه البقعة أن تشهد إقبالاً شديدًا يعد من أعظم ما دار في تاريخ القرون الوسطى، ومن أروعها وأشدها إثارة في تاريخ الشرق والغرب، تكررت خلالها الصدمات بين الطرفين، حتى كادت تتحول إلى عمل يومي، واتخذت طابع حرب الخنادق(٣).

---

(١) «الجيش الايوبي في عهد صلاحالدين» محسن محمد (ص٤٣٧)، ط: الرسالة ببيروت.
(٢) «الكامل» لابن الأثير (جـ ١٠، ص٧١).
(٣) «الجيش الأيوبي» محسن أحمد (ص٤٣٧).

واشتركت في القتال الفرقة القادمـة من مصر وبلاد الشام، لاسيما الأسطول المصري الذي اشتبك مع السفن الصليبيـة الراسية في البحـر، والتي كانت تمون الصليبيين بالمؤن والمقاتلين، واستطـاعت السفن الإسلامية، أن تزود المدينة بالمؤن والذخائر، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل موقف الصليبيين قويًا لتفوقهم البحري والعـدوى لذلك، طلب صلاح الـدين المساعـدة من حكام المسلمين في الشـرق والغـرب، فكتب إلى أمراء الجـزيرة والموصل، الذي لبـوا نداء المساعـدة، على الرغم مما كان بينهم وبينه من فتور، مما يدل على وعي إسلامي للخطر الصليبي، كمـا قدم إليـه (تقي الدين) ابن أخيـه، و(مظفر الدين) صاحـب حران والرها، وكان على اتصـال دائم مع الخليفـة العباسي (المسـتضيء بأمر الله)، غـير أنه لم يحصل منه على مساعدة فعالة رغم العلاقات الطيبة بينهما[1].

وأرسل سفـارة إلى الموحدين في المضـرب بطلب المساعـدة من (أبي يوسف يعـقوب بن عـبـد المؤمن)، وطلب منه أن يقـوم الأسطول المغـربي بقطع طريق الإمدادات البحرية عن السفن الأوروبية التي تقوم بإمدادات الصليبيين في عكا بما يحـتاجـون إليـه، وأبدى الموحدون عطفـهم، غـير أنهم لم يـبذلوا مـساعـدة إيجابية[2].

أضحى الجيش الأيوبي بعد وصول الإمدادات مـن الضخامة ما يكفي لفرض الحصار على الصليبيين، وظل الجيشان الأيوبي والصليبي يواجهان بعضهما طيلة فصل الشتاء، دون أن يحسم أي منهما على تصفية الموقف لصالحه، ونشأت بين أفرادهما روابط حيث تبادل القادة عبارات التحية والمودة.

---

(١) الأصفهاني العماد (ص٣٦٥).

(٢) «الروضتين» لأبي شامة (جـ ٤، ص١٩٠-٢٠٥).

وقـد أثبت حصـار عكا أن هناك توازنًا بين قـوتي الفريقين، إذ لم يسـتطع الصليبـيون اقتحام المدينة، واسـتطاع المسلمون في داخلها الصـمود، وكذلك لم يسـتطع صلاح الدين إزاحـتهم، فـتشـبث كل طرف بموقـفه في انتظار وصـول الإمدادات التي تكفل له القـيام بالهجـوم، ويبدو أن الصليبـيين كانوا واثقين من النصر، فلم يخـشوا أن تطوقهم قوات صـلاح الدين على الرغم مما اتخذوه من احتياطات تحول دون اقتراب هذه القوات منهم بسهولة[١].

ولعل الذي ساعـدهم على الصمـود افتتاح خط تمـوينهم، عبر المدن التـجارية الإيطالية: بيزا، جنوه، والبندقية، أمَّنت وصول البضائع الضرورية إليهم.

ومن ناحية أخرى كان (جاي لوزينان) يتوقع وصول إمدادات صليبية أخرى من أوروبا الغربية، فـي الوقت الذي وصل فيه (دوق سوبيا)، علـى رأس ما تبقى من القوة الألمـانية، حيـث شارك في القتـال، وعلى الرغم من ذلك، فـإن شتـاء عام ٥٨٦-٥٨٧هـ - ١١٩٠-١١٩١م، كـان ثقيـلاً على الصليـبيين ليس بسـبب الذي ترتبت على فشل الجيش الألماني فحسب، بل لتفشي المجاعة في معسكرهم أيضًا.

ويتـحدث ستـابلز عن هذه المجـاعة، فـيقول: يقـول الناس إن الحـاجة أم الجريمـة، وأن الرب خلف كل شيء لخدمـة الخلق، وجعل كل ذلك في مـتناول أيدينا ليكون عونًا لنا.

قـد يقـتل الناس بعـضـهم بعـضًـا، ولكنـهم لا يمسـون دواب النقل، بل يستبقونها، أما الآن فقد صاروا يذبحون جـياد الحرب الغالية، ويلتهمون لحومها في نهم وشراهة، وقد يقـبلون على أكلها حتى قبل أن تسلخ، كمـا أن فضلات الذبائح صارت بعشر سكنات، وكان الناس إذا ما سمعوا بذبح جواد تسابقوا إلى

---

(١) «الجيش الأيوبي» محسن محمد (ص٤٤٥).

حيث ذبح، ويمضون إلى هناك، إما للشراء أو السرقة، كما راحت جموع الجوى تتزاحم وتتدفق إلى حيث تكون الحيوانات النافقة، وينكبون عليها كالصقور تحط على الجيف، وصار ثمن الجواد مقتولاً أغلى من ثمنه حيًا.

كانت المجاعة الفظيعة تزداد فحشًا، وتتفاقم سوءًا يومًا بعد يوم، بسبب انعدام ضروريات الحياة، وعمد كل من عنده شيء يمكن إلتهامه إلى المبالغة في إخفائه، وكتمان جنده، أو أغلق عليه بالقفل والمفتاح ليستهلكه بنفسه، حتى لا يغتصبه منه أحد، لأنه لم تكن هناك وفرة تسد غائلة الجوعى الآخرين، وترتب على ذلك أن قل المعروض للبيع قلة ملحوظة، وما من أحد عنده شيئ إلا أخفاه، وضن به، فلا يعرفه سواه، فهو لا يدع أحدًا يشاطره إياه، وأصبح الفقراء في كل ناحية قد بين لا شيء عندهم أبدًا.

لقد انهارت معنويات بعض رجالنا أمام فتك المجاعة الذريع بهم، فراحواينشدون خلاص أنفسهم، ولكنهم جلبوا اللعنة على أرواحهم، ذلك أنهم بعد أن داهمتهم هذه المحنة الكبرى، ودخلوا هذه التجربة المريرة، فردا على وجوههم، وذهبوا إلى الترك ولم يتوقفوا عن أي شيء، حتي لقد ارتد بعضهم عن دينهم طلبًا لحياتهم الفانية، وإن كانوا بذلك ماتوا ميتة أبدية حكموا فيها على أنفسهم بالموت كفارًا وملعونين[1].

لم يستغل صلاح الدين هذا الوضع السيء الذي بات فيه الصليبيون، ويبدو أن سبب ذلك ظهور التعب والإرهاق على عساكره، فصرف بعضهم لينالوا قسطًا من الراحة على أن يعودوا بعد إنقضاء فصل الشتاء، وتحول بعض أمرائه إلى تجار، استغلوا فرصة حصول المجاعة داخل المعسكر الصليبي، فحملوا الطعام

---

(١) «صلاح الدين وريتشارد» (الحملة الثالثة) (جـ ١، ص١٧٢).

والغلال إليهم بأسعار مرتفعة على أنه حدث في شهر صفر عام ٥٨٧هـ ـ شهر آذار عام ١١٩١م، حين اشتد اليأس من الحصول على المؤن، أن رست تجاه الساحل سفينة محملة بالقمح، واستطاعت أن تفرغ حمولها إلى البر، ولما تحسن الطقس، تلتها سفن أخرى، واستقبلت هذه السفن بحفاوة بالغة، لأنها حملت مع المواد الغذائية أنباء تؤكد بأن ملكي فرنسا وانكلترا أضحيا في المياه الشرقية.

ريتشارد وفيليب في المشرق

يتحدث وليم ستابلز عن الملكين (ريتشارد قلب الأسد) و(فيليب) قبل أن ننظر في مراجع عربية مؤرخوها مسلمون عرب: ما كاد الناس يفرغون بعيد الفصح، حتى جاء (فيليب) ملك فرنسا، وتلاه (ريتشارد) ملك الإنجليز، ولكي نمدك بالبيان الوافي في مسير رحليتهما، فالأجدى أن نرجع إلى الوراء، ونبدأ قصتنا بسفر الإثنين، ومغادرة كل واحد منهما بلده، متتبعين توالي الأحداث في جريانها حتى نصل إلى عكا[1].

لقد انتشر في شتى أرجاء الدنيا أخبار الأحداث التي سأشرع الآن في سردها، حيث ترامى إلى سمع الناس ـ حيث كانوا ـ خبر سقوط مدن البقاع الطاهرة في أيدي الكفار، وعلموا أن المقدسات الطاهرة أصبحت موضع المهانة وفي مواطىء الأقدام، وكان وقع هذه الأنباء أليمًا كل الألم على نفس البابا (جريجوري)، فلم يتوان عن إعلان تحذيراته مما أحدث هزة عنيفة في الممالك والإمبراطوريات، فقام فريق كبير من الناس من مختلف الجنسيات، لاسيما الفرنسية والإنجليز، مصرحين بمشاعرهم الصادقة التي أخرجوها إلى حيز التنفيذ،

---

(١) «الحملة الصليبية الثالثة ـ صلاح الدين وريتشارد» (جـ ١) مايلز ستايلز، ترجمة د. حسن حبشي (ص١٨١).

فحملوا الصليب وهبوا سراعًا لنجدة الأرض الطاهرة بكل ما أتوا من قوة وعزم، ووعد البابا بماله من الصلاحيات التي وهبها له الرب أن يدعو لمحو سيئات من يبادرون في الحال للقيام بهذا العمل.

كان (ريتشارد كونت بواتو) أول من حمل الصليب، وشاركته في مثل هذا العمل أعداد غفيرة من الناس، وإن لم يشرعوا بعد في رحلتهم بسبب ما شبَّ من نزاع بين (فيليب) ملك فرنسا، و(هنري) ملك انجلترا والد الكونت (ريتشارد قلب الأسد)، فقد كان بين الملكين ثأر أسود قديم لا يهدأ أواره، ولا ينطفي سعيره، مما أسفر عن غارات كل منهما على الآخر جريًا على ما كانت عليه العادة منذ أيام أحلافها: أعني الفرنسيين والنرمنديين، لقد بذلت محاولات جمة وجهود كثيرة قام بها أحد رؤساء الأساقفة من القدس واسمه (حوشيوس)، وانتهت هذه المحاولات إلى تحديد يوم معين لاجتماع الملكين بين (حسبور) و(ترى) لعقد أوامر السلم بينهما الأسقف (جوسيوس) يحقق الصلح بين (ريتشارد) و(فيليب) عن (جسيوس) كبير الأساقفة اجتماعًا كبيرًا لتحقيق الصلح بين الفرنسي (ريتشارد قلب الأسد)، و(فيليب) ملك انجلترا، وقد نص الصلح الذي خصص لتسهيل مهمة الحملة الصليبية الثالثة بقيادة (فيليب) و(ريتشارد)، بعد فشل حملة (بربروسًا) الألماني، وتم الإتفاق على ما يلي:

١ - أن يحمل كل من الملكين الصليب ويغادر بلدة جهة الشرق.

٢ - ألا يتخلف أحدهما عن الآخر في الخروج، حتى لا تحدث أحدهما نفسه فيغير على مملكة الآخر أثناء وجود هذا الآخر في طريقه إلى الحج[1].

---

(١) «الحملة الصليبية الثالثة» (جـ ١، ص١٨٤).

ويقول ستابلز: وانتهى الأمر أخيرًا بعد اختلاف كبير على الموافقة على هذا الاقتراح، وباركه رئيس الأساقفة المشار إليه، وتبادل الملكين قبلة السلام، وحينذاك حمل كل من الملكين الصليب، كما حملته أعداد غفيرة من كلا الجانبين.

توفى الملك (هنري) ملك انجلترا، وتوج ابنه ملكًا على انجلترا، وقد رسمه كبير الأساقفة (بلدوين الثالث) ملكًا في حفل رائع بهي، وأقيمت في القصر الملكي لمدة ثلاثة أيام احتفالات مهيبة ضخمة[١].

وفي ١١٩٠م التقى الملكان (ريتشارد) و(فيليب)، لمناقشة الترتيبات اللازمة للرحلة، وبينما هما في مفاوضاتهما هذه إذا بوافد يفد عليهمايحمل إليهما نبأ وفاة (أيزابيل) ملكة فرنسا، فكان وقع هذا النبأ أليمًا على ملك فرنسا، فاضطرب وأوشك على العودة والرجوع عن رحلة حجه التي كان يستعد للقيام بها، ثم زاد الطين بلة ما جاء به من خبر، فاجع ينعي (وليم) ملك أبوليا أيضًا، فانزعج الناس، وتطيروا، واستبدبهم الجزع مما قد ينكشف عنه الغد من السوء لهم، فأمسكوا عن الاستمرار في المشروع الذي بين أيديهم والذي هم مزمعون على القيام به، وتراخت عزيمتهم، وانطفأت حماستهم[٢].

كل ذلك يبين مدى ما كان عليه الملكان من خلاف، بل وإن الحماسة يمكن أن تنطفئ في لحظة بسيطة، ولسبب عارض.

وفي صيف ١١٩٠م ـ رجب ٥٨٦هـ، أبحر الملكان واحد من سيلينا، والآخر من جنوا ـ وهما على الخلاف، على رأس جيوشهما إلى المشرق، لكنهما

---

(١) المصدر السابق (ص١٨٧).
(٢) المصدر السابق (١٩٠).

قضيا الشتاء في صقلية ـ سبتمبر ١١٩٠م حتى مارس آذار ١١٩١م، واصطبغت هذه الحملة الثالثة إذن بما حمله بربروسا الألماني بالصبغة الفردية دون تعاون بين القوى، ووقع خلاف بين جند الطرفين في صقلية جعل الملك الفرنسي ينطلق بمفرده إلى ساحل الشام في أسطول صغير لا يتعدى ستة مراكب حربية، وكأنه في نزهة صيد حاملاً معه بازًا، ووصل صور في ٢٠ أبريل ١٩٩١م ـ ربيع الثاني ٥٨٧هـ، ورحب به (كونرادي منتفرات)، ثم صحبه إلى الجيش الفرنجي المحاصر لعكا، وكان لوصول (فيليب) رد فعل عنيف لدى الفرنج والمسلمين، ففيما ابتهج الصليبيون وفرحوا بوصوله، إذا بالمسلمين يحسبون ألف حساب لتدخله، وكان عظيمًا عندهم، ومن ملوكهم الكبار، وعلى الرغم من أن القوة التي أتى بها لا تتفق مع سمعته الضخمة، فقد كانت أعداد كثيرة وجماعات من بلاده ومن غيرها قد سبقته في الإنضمام إلى الفرنج في صور وأمام عكا.

ولم يشأ فيليب أن ينتظر وصول ريتشارد، فبدأ بمهاجمة عكا على الفور، وقاموا بعمل آلات الحصار والأبراج المتحركة، ويقذف المدينة قذفًا متواصلاً ليل نهار، وردموا الخندق بجثث الأموات وجيف الخنازير والدواب التي نفقت[1].

ريتشارد على الطريق

أما (ريتشارد) الملقب بقلب الأسد، فاضطر إلى أن يحارب ملك صقلية، بسبب مشاكل خاصة وعائلية، ثم حملت الرياح أسطوله إلى قبرص، وكان حاكمها (إسحاق الثاني)، قد استقل بها عن البيزنطيين والفرنج، فاستقبله بالعداء لميله إلى المسلمين ضد أوروبا، فنزل بها وطلب نجدة من فرنج الساحل ليحارب

---

(١) «الروضتين» لأبي شامة المقدسي (جـ ٢، ص١٨٤).

القبارصة، فأنجده الملك (جي) ببعض القوى، وحين طلب (إسحاق) الصلح، غدر (ريتشارد) به، واستولى على الجزيرة، وأعلن نفسه ملكًا لها.

ومنذ ذلك أدرك الإنجليز والفرنج أهمية الموقع الإستراتيجي لهذه الجزيرة بين القارات الثلاثة، فكانت جسرًا من الحملات الصليبية، وقاعدة ومركزًا للصليبيين في الإعتداء على سواحل مصر والشام، وكانت مركزًا لأيول الحملات الصليبية بعد طرد الصليبيين من الشام.

سار (ريتشارد) بأسطول كبير يبلغ خمسًا وعشرين سفينة، كأنها القلاع إلى صور، فلم تسمح له حاميتها بدخولها حسب تعليمات (دي مونتفرات)، لذلك لم يجد بدًا من الإتجاه إلى ساحل عكا، وزاد ذلك في حرج الموقف الإسلامي جدًا، سواء منه موقف المحاصرين ضمن المدينة أو صلاح الدين الذي يطوق الفرنج من الخارج في ٦ يونيو ـ خريران ١١٩١م.

قضى المسلمون أمام عكا عامين، وخلال هذه الفترة كما ذكرنا دارت معارك مستمرة لم تنقطع، بعد أن كانوا قد قضوا سنة وبعض السنة ما بين حطين وفتح القدس، ثم فتح شمال الشام من أول مارس (آذار) ١١٨٧، حتى يونيو ١١٩١م ـ محرم ٥٨٣هـ- جمادى الأولى ٥٨٧هـ، تخللها راحة الجند في شتاء ١١٨٧- ١١٨٨م ـ ٥٨٣هـ-٥٨٤هـ.

ولعلنا لو تحدثنا عن سر بطولة صلاح الدين، نجدها في أنه استطاع كسر التقليد العسكري السائد منذ قرون، وإبقاء جيش حوله دائم الحركة والحرب، لمجرد الولاء الشخصي له ومحبته، وفي أنه استطاع بالقدوة والشجاعة والإخلاص للمبدأ والجهاد أن يرفع سوية التسلح الخلقي لدى هذا الجيش إلى درجة كانت الجيوش المسلمة في المشرق قد نسيتها منذ زمن طويل.

ولم يكن ثمة توازن فيما بين قواه الثابتة أثناء هذه السنوات، والتي كانت تتموج في أعدادها حسب أهواء الأمراء المشاركين معه، وبين الفرنج الذين جاءتهم في هذه الفترة نفسها بجانب قواهم الفرنجية خمس نجدات ضخمة انضمت إليهم، وفيها كتل القوى من قارة كاملة:

١- نجدة (كونراد مونتفرات) أولاً، التي أنقذت صور، وحملت مقاومتها.

٢- نجدة الكوندهري (الكونت الكبير هاري).

٣- نجدة الملك الفرنسي (فيليب أوغسطس).

٤- نجدة الملك الإنجليزي (ريتشارد قلب الأسد).

٥- نجدة الداغرك التي أوجدت وهي في الطريق إلى المشرق، دولة البرتغال.

يضاف إليها المجموعات المتفرقة من المتطوعين ومن النسوة المتطوعات الذين كانوا يقدمون على دفات كبيرة وصغيرة متوالية خلال السنوات الأربع، كما يُضاف إلى ذلك أساطيل: أماكفى، والبندقية، وبيزا، وجنوا، والمدن الإيطالية، ويُضاف أخيرًا السدة البابوية المحركة في روما، ولم يكن هناك نسبة بين قوتها في أوروبا وقوة الخلافة العباسية في بغداد، من ناحية النفوذ الديني.

يقول ابن الأثير: وكان عند الفرنج من الباعث الديني النفساني ما هذا حده، فخرجوا على الصعب والذلول برًا وبحرًا، من كل فج عميق، ولولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين[1].

---

(١) ابن الأثير (جـ ١٢، ص٣٣).

ويستكمل ابن الأثير وصف هذه المعارك وأحداثها، لأنه حضر بعض من حصار عكا، يقول ابن الأثير: فهذا كان سبب خروجهم، فلما اجتمعوا بصور تموج بعضهم في بعض ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر، والعدد والرجال من بلادهم، فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها، فأرادوا قصد صيدا ـ وكان ما ذكرناه ـ، فعادوا واتفقوا على قصد عكا، ومحاصرتها ومصابرتها، فساروا إليها بفارسهم وراجلهم، وقضهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر، والضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدة لهم، إنجاءهم ما لا قبل لهم به، ركبوا فيها وعادوا، وكان رحيلهم ثامن رجب، ونزولهم على عكا في منتصفه، ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم، ويأخذون المنفرد منهم، ولما رحلوا جاء الجند إلى صلاح الدين برحيلهم، فصار حتى قاربهم، ثم جمع أمراءه واستشارهم: هل يكون المسير محاذاة الفرنج، ومقاتلهم وهم سائرون، أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟، فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم، فإن الطريق وعر وضيق، ولن تهيأ لنا ما نريده منهم، والرأي أننا نسير في الطريق المعاكس، ونجتمع عليهم عند عكا، فنفرقهم ونغرقهم.

فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال: إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم، ولا نيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا.

فخالفوه، فتبعهم، وساروا على طريق كفركنًا، فسبقهم الفرنج، وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم، ويناوشونهم القتال، ويتخطفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم، فلو أن

العساكر اتبعت صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا، لكن بلغ غرضه وصدهم عنها، لكن إذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه[١].

ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر، ومن الجانب الآخر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فنزل صلاح الدين عليهم، وضرب خيمته على تل كيسان، وامتدت ميمنته إلى تل العياضية، وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأثقال بصفورية، وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر، وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه تقي الدين ابن أخيه، وأتاه مظفر الدين بن زين الدين، وهو صاحب حران والرها.

وكانت الإمدادات تأتي المسلمين في البر، وتأتي الفرنج في البحر، وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة، ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور، ومنها ما هو دون ذلك، وأنا أذكر الأيام الكبار لئلا يطول ذلك، ولأن ماعداها كان قتالاً يسيرًا من بعضهم مع بعض، فلا حاجة إلى ذكره[٢].

ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم، ولا إلى عكا، حتى انسلخ شهر رجب، ثم قاتلهم مستهل شعبان، فلم ينل منهم ما يريد، وبات الناس على تعبئة، فلما كان الغد باكرهم بالقتال بحدة وحديدة، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بُكرة إلى الظهر، وصبر الفريقان صبرًا حار له من رآه.

فلما كان وقت الظهر حمل عليهم (تقي الدين) حملة منكرة من الميمنة كل من يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم يركب بعضهم بعضًا، لا يلوي أخ على

---

(١) المصدر السابق (ص٣٤).

(٢) ابن الأثير في «الكامل» (ص٣٤-٣٥).

أخ، والتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم، واجتمعوا بهم واحتموا بهم، وأخلوا نصف البلد، وملك (تقي الدين) مكانهم، والتصف بالبلد، وصار ما أخلوه بيده، ودخل المسلمون البلد، وخرجوا منه، وانفصلت الطرق، وزال الحصر على من فيه، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال، وما زاد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه، فإن للصدمة الأولى روعة، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة، وتركوا القتال، وقالوا: بناكرهم غدًا، ونقطع دابرهم وكان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء (حسام الدين أبو الهيجاء السمين)، وهو من أكابر أمراء عسكره، وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل، وقُتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة[1].

الوقعة الكبرى على عكا



ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد، وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاذ وسعهم في استئصالهم، فتقدموا علي تعبئتهم، فرأوا الفرنجة حذرين محتاطين، قد قدموا على ما فرطوا فيه بالأمس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألح المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدم الفرنج إليهم، ولم فارقوا مرابضهم، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم.

ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الصليبيين يخرجون من الناحية الأخرى إلى الإحتطاب وغيره من أشغالهم، فكمنوا لهم في معاطف ونواحيه في السادس عشر من شعبان ٥٨٥هـ، فلما خرج جمع من الصليبيين على عادتهم

---

(١) المصدر السابق (ص٣٥).

حملت عليهم العرب، فقتلوهم عن آخرهم، وغنموا ما كان معهم، وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين، فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع[1].

كان صلاح الدين يراقب الموقف وتطوراته من مراكز قيادته في شفرهم، ثم عند الخروبة ثم العياضية، وتلقى إمدادات جديدة من الجزيرة، وقد ظل المسلمون إلى العشرين من شعبان، كل يوم يغارون القتال مع الفرنج ويراوحونه، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثم أن الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: إن عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا، فكيف يكون إذا حضرت، والرأى أننا نلقي المسلمين غدا، لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر، والإمراء إليهم.

وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبًا عنه، بعضها مقابل أنطاكية ليردوا عارية (بيمند) صاحبها عن أعمال حلب، وبعضها عن حمص مقابل طرابلس، لتحفظ ذلك الثغر أيضًا، وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما، والذي بقى من عسكرمصر كانوا لم يصلوا، وكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين.

وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال، ومنهم من هو، في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته في زيارة صديق، وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه، إلى غير ذلك.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٦).



هجوم الفرنج على المسلمين

يقول ابن الأثير[١]: فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر، يدبون على وجه الأرض، قد مـلأوها طولاً وعرضًا، وطلبوا ميـمنة المسلمين، وعليها (تقي الدين عمر) ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين، حذر هو وأصحابه، فتقدموا إليـه، فلما قربوا منه تأخر عنهم، فلما رأى صلاح الدين الحال، وهو في قلب الجيش، أمد تقي الدين برجـال من عنده، لمساعدته، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب، فلما رأى الفرنجة قلة الرجال في القلب، وأن كثيرًا منهم قد سـار نحو الميمنة مددًا لهم، عطفوا على القلب، فحملـوا رجل واحد، فاندفعت العـساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بـعضهم، فاسـتشهـد جماعـة منهم: كالأميـر (مجلي بن مروان) و(الظهـير) أخي الفقـيه (عـيسى)، وكـان والي بيت المقـدس قد جـمع بين الشـجاعـة والعلم والدين، والحاجب خليل الهكاري وغيره من الشجـعان الصابرين في مواطن الحرب، ولم يبق بين أيديهم من يردَّهم، فقصدوا التل الذي عليه خـيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، ونهـبوا وقـتلوا عند خيـمة صلاح الدين جـماعـة، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فقتلوا من لقوه[٢].

نظر الفرنج وراءهم، فروأوا أمـدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعـوا خوفًا أن ينقطعـوا عن أصحابهم، وكـان سبب انقطاعـهم أن الميمنة وقـفت مقـابلتهم،

---

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص٣٧).

(٢) المصدر السابق بتصرف (ص٣٨).

فاجتاح بعضهم أن يقف مقابلها، وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الإتصال بأصحابهم، وعادوا إلى طرف الخندق، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفوهم وهم راجعون، فقاتلوهم، وثاربهم غلمان العسكر.

وكان صلاح الدين يناديهم، ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال، فانضم إليه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم، وهم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى، وفي جملة من أسر مقدم الدواية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه، فلما ظفر به الآن قتله.

وكانت عدة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر، نحو عشرة آلاف قتيل[1] فأمر بهم، فألقوا في النهر الذي يشرب منه الفرنج، وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج، فإن الرجالة لم يلحقوهم، وكان في جملة الأسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل، فلما أسرت وألقى عنهن السلاح عُرفن أنهن نساء.

وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية، ومنهم من جاز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق، ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنجة مبلغًا عظيمًا، على أن الباقين بذلوا جهدهم، وجدوا في القتال، وصمموا على الدخول مع الفرنج إلى معسكرهم لعلهم يفزعون منهم، فجاءهم الصريخ بأن رجالهم وأموالهم قد نهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم، أو باش العسكر وغلمانه، فنهبوه وأتوا عليه، وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال

---

(١) ابن الأثير (جـ ١٢، ص٣٩).

والزحف، فرأى إشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، وهم يسعون في جمعها وتحصيلها، فأمر بالنداء بإحضار ما أُخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش، والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك، فرد الجميع على أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، فسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقين.

جافت الأرض من نتن ريح الجثث وفسد الهواء، وإنحراف فراج صلاح الدين نفسه، وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده، فأشار الأمراء بالإنتقال عن الموضع بسبب ضيقه، وأنه لو تفرق الفرنج كان ذلك أسهل للنيل منهم بدل تكاتفهم، ثم إن فراجك منحرف والألم شديد، ولو وقع أرجاف لهلك الناس، والرأي على كل تقدير في البعد عنهم، ووافقهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه، فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان، وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والإحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله[1].

فلما رحل أمن الفرنج وانبسطوا في الأرض، وعادوا فحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البر، ومراكبهم أيضًا من البحر تحصرها، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه، وكان اليزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون، إنما هم مهتمون بعمل الخندق والسور، فحينئذٍ ظهر خطأ رأى المشيرين بالرحيل، وكان اليزك يبلغون صلاح الدين بما يجري وهو مشغول بالمرض، لا يقدر على النهوض للحرب، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعهم لمنعهم من الخندق، فقال: إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئًا، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجو من الخير، وتأخر الأمر إلى أن عوفي[2]، فتمكن الفرنج مما أرادوا.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩).

(٢) المصدر السابق (جـ ١٢، ص٤١).

أسباب تعثر صلاح الدين في عكا:

الواقع أن الهجمات التي شنها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تفلح، وكانت عكا قد ضعفت ضعفًا شديدًا، واشتد الخناق على المسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءًا من سورها، وتخلخل جزء آخر، وأنهك التعب والسهر أهل البلد، لقلة عددهم، وكثرة أعمالهم، وفي ٢٧ جمادى الآخرة ـ ٢ تموز، أرسلت الحامية رسالة جاء فيها: إنا قد بلغ منا من العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئًا تطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا[١].

كان هذا الخبر من أشد ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزنًا كبيرًا لصالح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل: (سيف الدين علي بن أحمد الهكاري) المعروف بالمشطوب، و(بهاء الدين قراقوش)[٢].

• وقد تعثر صلاح الدين بعكا لعدة أسباب، من أهمها:

١ ـ لقد اعتاد صلاح الدين على الحرب الهجومية، وكانت معركة عكا دفاعية من الناحية العسكرية.

٢ ـ كان صلاح الدين يقود جنوده وهم بداخل عكا، وهو خارجها، كما تسبب عدم وجوده في معنويات الجنود وسرعة القرار.

٣ ـ أن الحرب حَوْل عكا تحولت إلى حرب خنادق، وليس إلى ميدان معركة

---

(١) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص٢٥١).

(٢) المصدر السابق.

مفتوح فيه الكر والفر، وهذا ما اعتاد عليه جيش صلاح الدين، ولم يعتد أو يتمرس بحرب الخنادق الثابتة مكانها.

٤ ـ أن حصار عكا وهذه الحرب طالت سنتين، وجيش صلاح الدين ككل جيوش المشرق الأخرى، لم يعتد الحرب الطويلة، ولكن الحرب في معركة محددة، أما المطاولة في حرب مستمرة فقد دفعت الجيش الإسلامي والصليبي إلى الملل، ويذكرون أن بعض الجنود من الطرفين تصادقوا، وقد برز طفل مسلم لآخر فرنجي عند الخنادق، فصرعه المسلم وأخذه أسيرًا فاقتداه أصحابه.

وقد كانت لهذه العوامل أثرها الواضح في معركة عكا، وفي نتيجتها السيئة، وفي منتصف شوال وصلت العساكر المصرية، يقول ابن الأثير: في منتصف شوال، وصلت العساكر المصرية، ومقدمها الملك العادل (سيف الدين أبو بكر بن أيوب)، فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه، واشتدت ظهورهم، وأحضر معهم من آلات الحصار، من الدوق والطارقيات والنشاب والأقواس، شيئًا كثيرًا، ومعهم في الرجالة الجمع الغفير، وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية رجالاً كثيرًا، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل.

ووصل بعده الأسطول المصري، ومقدمه الأمير (لؤلؤ)، وكان شهمًا شجاعًا مقدامًا، جندًا بالبحر والقتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على بُسطة كبيرة للفرنج، فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة، فأدخلها عكا، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول المصري وقوي جنانهم، ووقع صلاح الدين بغتة على بطسة للفرنج، فأدخلها عكا وفيها أموال كثيرة.

عودة صلاح الدين لمقاتلة الصليبيين
(وقعة الفرنج واليزك)

في صفر ٥٨٦هـ ـ مارس ١١٩٠م، سمع الفرنج بخروج صلاح الدين للصيد، ورأوا اليزك قليلاً والأرض مرحلة، فخرجوا من خندقهم عصرًا، فقامت معركة قتل فيها بين الفريقين جماعة كثيرة، ولما عاد صلاح الدين وكان الشتاء قد ذهب، وجاءته عساكر الشام من دمشق وحمص وحماة، فتقدم بها إلى عكا، فقاتل الفرنج ليشغلهم عن عكا، وهم يقاتلون على الجانبين لا يسأمون.

وعمَّر الفرنج بعد ذلك ثلاثة أبراج من الخشب، طول كل برج في السماء ستون ذراعًا، وعملوا كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة، وقد جمعوا أخشابها من الجزائر (أوروبا)، فإن مثل هذه الأبراج لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغشُّوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها وقدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا في العشرين من ربيع الأول، فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه، فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها، فأشرف على البلد أن يُملك عنوة وقهرًا، فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانًا سبح في البحر، فأعلمهم ماهم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وقاتلوا الفرنج قتالاً عظيمًا دائمًا من جميع جهاتهم، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا، إلا أن الأمر قد خف عمن في البلد، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر، وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلاً ونهارًا، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا عجز من فيه عن دفع الأبراج، فإنهم لم يتركوا

حيلة إلا وعملوها، ولم يغن ذلك عنهم شيئًا، وتابعوا رمي النفط الطيار فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده.

ذلك أن رجلاً من أصل دمشق كان مولعًا بجميع الات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، وكان مولعًا بذلك، وحضر عند الأمير (قراقوش) وهو متولى الأمور بعكا، وطلب أن يأمر بإلقاء ما يعطيه من الدواء من المجانيق ليحرق الأبراج، واستهان (قراقوش) بالعرض، ولكن من حضره قالوا: لعل الله يجعل الفرج على يديه، فصنع عدة قدور، وطلب إلقاءها، وفيها خليط من المواد لا تحرق، فكان الفرنج يصيحون ويرقصون لفشلها وهي تغسل بدن البرج، ثم أعطى في القدر الأخير نارًا تحترق، فما إن وصل البرج حتى التهب كله، واحرقت من فيه بطبقاته الخمس، وأعجلتهم عن الهرب، وكان خيرًا من السلاح والدروع بكثير، فهرب من في البرج الثاني والثالث، واستبشر المسلمون، فليس فيهم أحد إلا وله من البلد قريب أو صديق، وجيء بالرجل بعد ذلك إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة والإقطاع الكثير، فلم يقبل منه الأموال ولا الاقطاع، وقال: إنما عملته لله تعالى، ولا أُريد إلا الجزاء منه[1].

ويضيف ابن الأثير قائلاً، والذي يشبه اليوميات المدونة في زمانها ومكانها، فيقول: وسُيِّرت الكتب إلى البلاد بالبشائر، وأرسل يطلب العساكر الشرقية، فأول من أتاه (عماد الدين زنكي بن مورود بن زنكي) وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة، ثم أتاه (علاء الدين)، ولد (عز الدين مسعود بن مورود بن زنكي) سيره أبوه، مقدمًا على عسكره، وهو صاحب الموصل، ثم وصل (زين الدين يوسف) صاحب إربل، وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الفرنج بعسكره، وينضم إليه

---

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص٤٧).

غيرهم، ويقاتلونهم، ثم ينزلون، ووصل الأسطول من مصر، فلما سمع الفرنج بقربة منهم جهزوا إلى طريقة أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها، وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول، ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الطرفين برًا وبحرًا، وكان يومًا مشهودًا لم يؤرخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبًا بما فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالمًا[1].

نجدة الكندهري:

وفي هذه السنة ٥٨٦هـ - ١١٩٠م في العشرين من جمادى الآخرة، خرج عسكر الفرنج في عدد لا يحصى، وقصدوا عسكر مصر، ومقدمهم الملك العادل، واقتتلوا ودخل الفرنج خيامه، فتوجه المصريون إلى خنادقهم وقطعوا المدد عنهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، يزيد ضحاياها على عشرة آلاف[2].

وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر، فشاركوا في النيل منهم، ولم يشارك في القتال أحد من الحلقة الخاصة مع صلاح الدين، ولا من الميسرة، وفيما كان لصلاح الدين مباكرتهم، وهم في هذا الهلع، وصله من حلب كتاب يخبر بموت ملك الألمان وبما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن القتال، وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم الخبر أزدادوا وهنًا وخوفًا، فلما كان بعد يومين أتتهم الأمداد من البحر مع (كند كونت) كبير من الكنود البحرية، يُقال

(١) المصدر السابق (ص٤٧).
(٢) «الكامل» (جـ ١٢، ص٥١).

له: (الكندهري) ابن أخي ملك الفرنسيين لأبيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه، ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء، فجنَّد الأجناد وبذل الأموال، فعادت نفوسهم فقريت واطمأنت، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضًا، فتماسكوا وحفظوا مكانهم، وأظهروا أنهم سيخرجون للقتال، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة في ٢٧ جمادى الأولى، ليتسع المجال، وكانت المنزلة قد انتنت بريح القتلى.

ثم أن (الكندهري) نصب منجنيقًا ودبابات وعربات، فخرج من بعكا، فأخذوها، وقتل عددًا من الفرنج، وأراد أن ينصب منجنيقًا فلم يتمكن، لأن المسلمين بعكا كانوا يحولونه بينه وبين عمل ستائر لرماة المنجانيق، فعمل تلاً من التراب على مبعدة من البلد، وكانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج، ويستترون به ويقربونه، فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجانيق، نصبوا وراءه منجنيقين، وصار التل سترًا لهم، وكانت الميرة قد قلَّت بعكا، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمر بإرسال الأقوات واللحوم، وغير ذلك في المراكب إلى عكا، فتأخر إنفاذها، فسير إلى نائبه في بيروت، فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه، وتنكر بها من بها بملابس الفرنج، ورفعوا الصلبان، ولما وصلوا عكا لم يشك الفرنج أنها لهم، فلم يتعرضوا لها، فلما وصلت ميناء عكا فرح بها المسلمون، وانتعشوا وتبلغوا بما فيها حتى وصلت ميرة الإسكندرية[١].

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر نحو ألف مقاتل، فأخذت بنواحي الإسكندرية، ووصل الفرنج كتاب من البابا، بأن يعمدوا، لأنه أمر جميع الفرنج بالخروج برًا وبحرًا لنجدتهم، ولما تتابعت الأمداد إلى الفرنج،

---

(١) «الكامل في التاريخ» (جـ ١٢، ص٥٣).

وجند لهم (الكندهري) جمعًا كثيرًا بالأموال التي وصلت معه، عزموا على مناخرة المسلمين، فتركوا على عكا من يحصرها، وخرجوا ١١ شوال في عدو كالرمل كثرة، وكالنار جمرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك، نقل أثقال المسلمين بعيدًا عن عكا، وكانت فرق عساكره التي أرسلها لحماية الشام من الألمان قد عادت، فلقي الفرنج بجميع عسكره، لكن أصابه مغص يعتاده فألزمه، وشاهد الفرنج كثرة المسلمين، فارتاعوا وأمطرهم الشاليشة بالسهام التي سترت الشمس، فتحولوا وتوقفوا ثم عادوا في اليوم التالي إلى خنادقهم، والشاليشة في أكنافهم، فكانوا يخفون مشلاهم، فلولا ذلك الألم الذي حصل بصلاح الدين لكانت هي الفيصل، وإنما لله أمر هو بالغه، فلما بلغ الفرنج خندقهم، ولم يكن له بعدها ظهور منه، عادوا المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقًا كثيرًا[1].

واشتد الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير (أسامة) مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام وغيره، ومنهم (سيف الدين علي بن أحمد) المعروف بالمشطوب، كان يحمل من صيدا أيضًا إليهم، وكذلك من عسقلان وغيرها، ولولا ذلك لهلكوا جوعًا خصوصًا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر[2].

ولما هجم الشتاء، وعصفت الريح، خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم، لأنها لم تكن بالميناء، فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكا، في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل والسآمة، وكان بها الأمير (حسام الدين أبو الهيجاء السمين)، مقدمًا على جندها، فأمر

---

(١) المصدر السابق (ص٥٤).

(٢) «الكامل» (جـ ١٢، ص٥٤-٥٥).

صلاح الدين بإقامة الدل وإنفاذه إليها، وإخراج من بها، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانتقل إلى جانب البحر، ونزلت تحت جبل صيفًا، وجمع المراكب والشواني، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيَّرهم إليها، وأخرج عوضهم ودخل إليها عشرون أميرًا، وكان بها ستون أميرًا، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة للذين خرجوا، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم[1].

وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تقتتوهم بأنواع شتى، تارة بإقامة معرفة، أو تارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه، وإهمال النواب، فانحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتي بكتاب[2].

كان هذا في أول ٥٨٧هـ، وكان جماعة قد اشاروا بإبقاء الحامية وتزويدها بالنفقات الزائدة والذخائر والأقوات، ويأمرهم بالمقام، لأنهم مجرِّبون، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل مما يحملهم على العجز.

وكان صاحب إربل قد حضر عنده، ثم توفى ٨ رمضان، فاختار أخوه الإنصراف دون إذن، وصلاح الدين مريض، وأعاده (تقي الدين عمر) من جنوب حوران، ولكنه بعد ذلك انصرف بعد قليل.

وفي مارس ١١٩١م، وصل لإمداد الفرنج ملك فرنسا (فيليب أغسطس) ٢ ربيع الأول، وكان صلاح الدين يركب كل يوم للقتال، وأرسل إلى الأمير مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وشحنها بالمقاتلة ليمنع خروج الفرنج من عكا، فسير إليه في البحر فصادمت خمس مراكب

---

(١) (٢) المصدر السابق (ص٥٥).

مملوءة بالرجال من أصحاب ملك انكلترا قد سيَّرهم بين يديه، وتأخر في قبرص ليملكها، فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوا ما فيها من المتاع والرجال، وكتب أيضًا صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا، وأما الفرنج الذين على عكا، فإنهم لازموا قتال من بها، ونصبوا عليها جند ومجانيق رابع جمادى الأولى[1].

فلما رأى صلاح الدين ذلك، تحول من حوران، ونزل عليهم لئلاً يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعودة عنهم، فقرب منهم، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم، فيخف القتال عمن بالبلد، ثم وصل ملك انجلترا ثالث عشر جمادى الأولى، وكان قد استولى وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعًا، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج، فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج، فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كبارًا مملوءة رجالاً وأموالاً، فعظم به شر الفرنج، واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا، وجلدًا وصبرًا وبُلي المسلمين بالداهية التي لا مثل لها[2].

ولما علم صلاح الدين بذلك جهز بطسة كبيرة مملوءة بالرجال والأقوات والعدة، وسيِّرت من بيروت وفيها ٧٠٠ مقاتل، فلقيها ملك انكلترا مصادفة، فقاتلها وصبر من فيها، فلما أيسوا نزل مقدمها (يعقوب الجبلي)، ويعرف بغلام ابن شقتين، فخرقها خرقًا واسعًا وغرق بمن فيها وما فيها لئلاً يأخذها الفرنج، وكانت عكا محتاجة لما ذكرناه من سبب نقصهم، وكانت محتاجة دبابات

---

(١) «الكامل في التاريخ» (جـ ٢، ص٩٤).

(٢) المصدر السابق (ص٦٥).

وزحفوا بها، فأحرق المسلمون بعضها وأخـذوا بعضها، ثم عملوا كباشًا وزحفوا بها، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد.

فلما رأى الفرنج كل ذلك لا ينفع عملوا تلاً من التـراب مستطيلاً، ومازالوا يقـربونه إلى البلد، يقاتلون من ورائـه، لاينالهم من البلد أذى حتى صـار ا لتل على نصف غلوة، فكانوا يسـتظلون به، ولـم يكن للمسلمين معـه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فـعظمت المصيبة، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعـرفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع.

وفي يوم الجمـعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ ـ ٢٣ تمـوز ١١٩١م، استولى الفرنج على مدينة عكا، وكان أول وهن دخل على الحامية.

فـشل المشطوب وعدة من الأمـراء في بذلهم تسليـم البلد بالأمان، فـرفض ملك فرنسا، فعادوا متخازلين.

ويقـول ابن خلدون في تاريخـه عن هذا اليـوم[1]: ولما جـهد المـسلمين بعكا الحصـار خرج الأمير (سـيف الدين علي ابن أحمد الهكاري المشطوب) من أكـبر أمرائها إلى ملك فرنسا يستـأمنه لأهل عكا، فلم يجبه، وضعفت نفوس أهل البلد لذلك ووهنوا، ثم هرب من الأمراء (عـز الدين أرسل الأسدي)، و(ابن عز الدين حاولي)، و(سنقر الأرجاني) في جماعة، ولحقوا بالعساكر، فازداد أهل عكا هما، وبعث الإفرنج إلى صـلاح الدين في تسليمها فـأجاب على أن يؤمنوا أهل البلد، ويطلق لهم مـن أسـراهم بعـدد أهل البلد، ويعطيـهم الـصليب الذي أخـذه من القدس، فلم يرضـوا بما فعل إلى المسلمين بعكا أن يـخرجوا بجـمعهم، ويتـركوا البلد، ويسيروا مع البحر، ويحملوا على العدو حمله مستميتين، ويجيء المسلمون

(١) «تاريخ ابن خلدون» ط: الأفكار الدولية (ص١٤٢٤-١٤٢٥)

من وراء العدو فعساهم يخلصون بذلك، فلما أصبحوا زحف الإفرنج إلى البلد ورفع المسلمون أعلامهم، وأرسل المشطوب من البلد إلى الإفرنج، فصالحهم على الأمان على أن يعطيهم مائتي ألف دينار، ويطلق لهم خمسمائة أسير، ويعيد لهم الصليب ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر ألف دينار، فأجابوا إلي ذلك وضربوا المدة للمال والأسرى شهرين، وسلموا لهم البلد، فلما ملكوها غدروا بهم، وحبسوهم رهنًا بزعمهم في المال والأسرى والصليب[١].

ويقول أبو شامة المقدسي[٢]: وكان المشطوب قد رأى أن الهجمة لم تفد، فخرج إلى مونتفرات المركيس، وقرر معه تسليم البلد، وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم، وبذلك هم على ذلك مئتي ألف دينار، وخمسمائة أسير، وإعادة صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينار للمركيز (دي منتفرات) صاحب صور - كما ذكرنا -، ومالوا إلى ذلك - كما ذكرنا - وحلفوا عليه، وأن تكون مدة تحصيل المال والأسرى شهرين، وسمع صلاح الدين بذلك، فأنكره إنكارًا عظيمًا، وعظم عليه الأمر، وما أحسن المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر عن البلد[٣].

فسلم إليه البلد ودخلوه سلمًا، فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين، وعلى أموالهم، فحبسوهم بحجة إنتظار ما وعدوا به، وأرسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب.

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (ص١٤٢٤).

(٢) في كتابه «الروضتين» (جـ ٢، ص١٨٨)، وانظر: «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٦٣).

(٣) المصدران السابقان.

يقول ابن خلدون[١]: ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال، لكثرة إنفاقه في المصالح، فشرع في جميع المال، حتى اجتمع مائة ألف دينار، وبعث نائبًا يستخلفهم على أن يضمن الغداوية من الخلف والضمان، خوفًا من غدر أصحابه، وقال ملوكهم: إذا سلمتم المال والأسرى والصليب، تعطونا رهنًا في بقية المال، ونطلق أصحابكم، وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن، ويحلفوا فامتنعوا أيضًا، وقالوا: ترسلون المائة ألف دينار والأسرى والصليب، فنطلق من نراه، ونبقى الباقي إلى مجيء بقية المال، فتبين المسلمون غدرهم، وأنهم يطلقون من لا يعبأ به، ويمسكون الأمراء والأعيان، حتى يغادرونهم، فلم يجبهم صلاح الدين إلى شيء.

ولما كان آخر رجب ركب الإفرنج إلى ظاهر البلد في احتفال، وركب المسلمون فشدوا عليهم وكشفوهم عن مواقعهم، فإذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفين، قد استلحوا ضعفاءهم، وتمسكوا بالأعيان للمفاداه، فسقط في يد صلاح الدين وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح[٢].

ما طال الصليبيون في تنفيذ إتفاقهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال والأسرى، ولما طالبهم بتنفيذ الخاص بهم، وهو خروج المسلمين من المدينة سالمين[٣]، رفضوا، عندها أدرك عزمهم على الغدر، ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى، فما كان من ريتشارد إلا أن أجرى مذبحة بشعة داخل عكا، حين أمر بقتل ثلاثة آلاف أسير مسلم، وبكى صلاح الدين

(١) «تاريخ ابن خلدون» ط: الأفكار الدولية (ص١٤٢٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص٢٥٣).

متأثرًا، ولم يسمح لأحد بالإنتقام منهم ردًا على ما ارتكبه الملك الإنجليزي، إلا أنه أمر برد الأسرى الصليبيين الذين جلبهم من دمشق لأجراء التبادل[1].

وحدث في هذه الأثناء أن غادر (فيليب أغسطس) عكا إلى صور في ٧ رجب ـ ٣١ تموز، نظر لإعتلال صحته، ثم أبحر من صور إلى برنديزي بعد ثلاثة أيام، وإذا ارتحل الملك الفرنسي أضحى الملك الإنكليزي (ريتشارد قلب الأسد) قائدًا للجيش، وتولى مباشرة القتال مع صلاح الدين[2].

أسباب سقوط عكا في أيدي الصليبيين:

- **لعل من اهم أسباب سقوط عكا هو ما يلي:**

١ ـ تلاحق وصول القوات الصليبية من غربي أوروبا، أعطى قوة للمحاصرين، وحسم الموقف لصالحهم على الرغم من كثرة قتلاهم.

٢ ـ استعمال أسلحة متنوعة ومختلفة في الهجوم والدفاع.

٣ ـ إقدام السفن الصليبية على منع السفن الإسلامية التي تحمل المؤن والعتاد للمحاصرين من الدخول إلى المدينة، أو الإقتراب من أسوارها.

٤ ـ إصابة المسلمين بوهن وتعب، نتيجة الحصار البري والبحري.

٥ ـ فشى التذمر بين المسلمين نتيجة الحصار، وتطور إلى نقد ومعارضة.

٦ ـ كشف حصار عكا والصراع مع الصليبيين أهمية المال في إدارة صلاح الدين، وأنه كان نقطة ضعف في إدارته، فلم يدخر المال ليوم الحاجة، أو سرعان ما وجد نفسه بحاجة شديدة إلى المال لسد نفقات الحرب[3].

---

(١) المصدر السابق، انظر الأصفهاني (ص٥٢٦).

(٢) ابن شداد (ص٢٦٠).

(٣) «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين» محسن محمد حسين، ط: الرسالة (ص٤٦٧).

٧- أضعف سقوط عكا وضع المسلمين القتالي، على الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، بحيث ركنوا بعد ذلك إلى الدفاع، والذي من مظاهره تخريب بعض المدن والقلاع لكي لا تقع في يد العدو، ومن ثم يتخذها قواعد إنطلاق لضرب المسلمين[1].

٨- وإذا كان صلاح الدين قد فشل في حصار صور، وكان ذلك بداية التراجع الإسلامي، لذلك فإن هزيمة المدنيين المسلمون في عكا هي الأخرى، خطوة على طريق التراجع.

٩- كان للأنتصار الصليبي أثر النفسي على جيش المسلمين وصلاح الدين نفسه، مما أفقده الكثير.

معركة أرسون

أراد (ريتشارد قلب الأسد) أن يسترد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين من عكا إلى عسقلان، قبل أن يتوجه إلى الداخل لاسترداد بيت المقدس.

غادر (ريتشارد) عكا يوم الخميس الموافق ٢٩ من رجب ٥٨٧هـ - ٢٢ آب ١١٩١م، على رأس الجيش الصليبي متخذًا الطريق الساحلي حيث يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي، لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عانى الصليبيون من شدة الحر، وقلة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم[2].

---

(١) «تاريخ بيت المقدس» يعقوب العنتري - ترجمة سعيد البيشاوي (ص١٦٥)، ط: الشروق عمان ١٩٩٨م.

(٢) انظر: «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص١٧٩).

وقد قسم المؤرخ ابن شداد والذي كان يصاحب صلاح الدين في كل خطوة مرافقة الجيش الإسلامي والصليبي، وهي مرافقة عرائية بالطبع، قسمها إلى ١١ منزلة ما بين عكا وعسقلان، حسب انتقال صلاح الدين من منزلة إلى أخرى، وما من منزلة إلا وذكر فيها ما وقع من مجالس التشاور ومن الهجمات على الفرنج، ومن الأسرى وكبار القتلى من الطرفين، كأنما كان يكتب مذكراته، وسجل كل تعبئة للجند على الطريق، وكل حدث، وذكر من تكتيك الفرنج أنهم قسموا أنفسهم إلى ثلاثة محاور:

الأول - كان مع الملك (جفري) وجماعة الساحلية في المقدمة.

والثاني - الإنتكار ومعه الفرنسية في الوسط.

والثالث - أولاد الست أصحاب طبرية، وطائفة كبرى من الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم يسيراً أيضًا في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة[1].

وكان النشاب ينزل عليهم كالمطرف فلا يجيبون عليه، ولا يتأثرون به، بسبب الزرديات، ويرمون خيول المسلمين وخيالتهم، فكان قسم الرجالة عن الطرفين والخيالة في الوسط، فمتى تعب المقاتلة، وأخذتهم الجراح من جانب المسلمين حل محلهم القسم المستريح الذي يمشي على جانب البحر[2].

والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام، وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرك (ريتشارد قلب الأسد) نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الإتصال بينه وين بيت المقدس، ومصر التي تمده بالقوة الضاربة.

---

(١) ابن شداد (٢٨٠).

(٢) ابن شداد (ص ١٨٠-١٨٦).

وفي طريق زحف الفرنج، يقول ابن الأثير[١]: وأرسل الأفضل إلى أبيه صلاح الدين يستمده، ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبه حرب، وإنما كانوا على عزم المسير لا غير، فبطل المدد، وعاد ملك الإنكتار إلى ساقة الفرنج، فحماها وجمعهم، وساروا حتى أتوا حيفا، فنزلوا بها، ونزل المسلمون بقيمون ـ قرية بالقرب منهم ـ، وأحضروا الفرنج من عكا عوض من قتل منهم، وأسر ذلك اليوم، وعوض ما هلك من الخيل، ثم ساروا إلى قيسارية، والمسلمون يسايرونهم، ويتخطفون منهم من قدروا عليه، فيقتلونه، لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتلة، بمن قتلوا ممن كان بعكا.

فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون، وقاتلوهم أشد قتال، فنالوا منهم نيلاً كثيرًا، ونزل الفرنج بها، وبات المسلمون قريبًا منهم، فما نزلوا خرج من الفرنج جماعة، فأبعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليزك، فقتلوا منهم وأسروا، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف[٢].

وفي هذه المسافة حاول صلاح الدين استدراج الصليبين إلى الداخل حتى ينحرفوا على خط سيرهم بمحاذاة الساحل، فيفقدوا ميزة دعم الأسطول إلا أن (ريتشارد قلب الأسد)، الذي اتصف بالبراعة القتالية، لم يقع في فخ صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية، مفوتًا فرصة طالما كان صلاح الدين توّاقًا إليها.

---

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص٦٩).
(٢) المصدر السابق (جـ ١٢، ص٦٩).

وكما ذكرنا فإن الصليبيون استولوا على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خرَّبها المسلمون، ولم يستفيدوا منها بزار أو مال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف، وتحركوا باتجاه غابتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان السهل من الإتساع مايكفي لنشوب اشتباك[1].

وقرر صلاح الدين، الذي سبق العدد إلى الغابة، أن يصطدم به في هذا المكان، فعبأ قواته استعدادًا للمواجهة، وحين علم (ريتشارد قلب الأسد) بخطته، تصرف على محورين:

الأول - أرسل يطلب نجدة صليبية من عكا.

الثاني - حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية.

ونرى في ذلك تغييرًا استراتيجية (ريتشارد) العسكرية، ولكن الراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض، وأناب عنه أخاه العادل الذي اجتمع بـ (ريتشارد قلب الأسد) في ١٢ شعبان - ١٥ أيلول، لكن المفاوضات تعثرت بسبب تصلب ريتشارد قلب الأسد في موقفه، إذ أصر على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس، فبادر العادل على الفور، إلى قطع المفاوضات، ولم يبق أمام الطرفين سوى القتال[2].

ووصلت في هذه الأثناء نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين، فتعبأ القتال، وتجهز الطرفان.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن شداد (ص٢٧٣-٢٧٥).

وفي ضحى يوم السبت الموافق ١٤ شعبان ـ ٧ أيلول، بدأت المعركة، أحاط الفرسان المسلمون في بدايتها بالصليبيين، وأوشكوا أن يقضوا عليهم.

ويقول ابن الأثير في الكامل: وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ـ أرسوف ـ ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق، فلما وصل الفرنج إليهم حمل عليهم المسلمون حملة منكرة وألحقوهم بالبحر، ودخله بعضهم ففقد منهم كثير[١].

لكن (ريتشارد قلب الأسد) ثبت في القتال، وأعاد تنظيم صفوف قواته بسرعة، فما تزال المعركة لصالحه، ولم تلبث صفوف المسلمين أن تداعت، فتفرقوا أولاذوا بالفرار، وحاول صلاح الدين في هذا الموقف الحرج أن يمنع رجاله من الفرار، واستطاع أن يجمع حوله بعض الرجال، وهو ينوي شن هجوم مضاد، لكن المحاولة فشلت، ولم يحل المساء حتى أضحى للجيش الصليبي النصر، وأستأنف سيره نحو الجنوب[٢].

انتهت معركة أرسوف، ونتج عنها حزنًا شديدًا حمله صلاح الدين في صدره بحيث لم يقبل مواساة قاضي عسكره، ومؤرخه ابن شداد، وذلك بسبب مقتل بعض أمرائه، وكثير من جنده، وقد عبر ابن شداد عن ذلك فقال عن شعور صلاح الدين بأنه كان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس من جريح الجسد وجريح القلب.

وتعد معركة أرسوف أو معركة مكشوفة جرت بين المسلمين والصليبيين بعد معركة حطين، وأول هزيمة قاسية حقت بالمسلمين بعد سقوط عكا، ولم يستثمر

(١) «الكامل» (جـ ١٢، ص٧٠).
(٢) المصدر نفسه (ص٧٠).

الصليبيون هذا النصر عندما توقفوا عن مطاردة المسلمين، ربما لأن انتصارهم لم يكن حاسمًا، وظنوا أن دخول المسلمين إلى الغابة هو مكيدة دبروها لاستدراجهم قبل أن يكروا عليهم، إلا أن هذا الانتصار غير الحاسم أعطاهم ثقة كبيرة يكروا عليهم، إلا أن هذا الإنتصار غير الحاسم أعطاهم ثقة كبيرة بأنفسهم، ودفعًا معنويًا بعد الهزائم المتوالية التي تعرضوا لها، وبخاصة أن خسائرهم كانت ضئيلة بالمقارنة مع خسائر المسلمين، وبلغت شهرة (ريتشارد قلب الأسد) بها، لكن الملك الإنجليزي لم يحول خط سيره الساحلي ليهاجم بيت المقدس مدركًا في الوقت نفسه أن جيش صلاح الدين، على الرغم من أنه تعرض للهزيمة، إلا أنه لم يتحطم، وظل قويًا يسبب القلق والخوف للصليبيين.

وقد تبين من أحداث معركة أرسوف أن المد الإسلامي الذي قاده صلاح الدين، والذي استمر في صالح المسلمين في بلاد الشام منذ عام ٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م، بدأ يتحول بعد معركة أرسوف ولمدة سنتين لصالح الصليبيين[١].

وقد أصيبت هيبة صلاح الدين في مقتل عندما ظهر جيشه أمام عكا، غير قادر على حسم المعركة، وتعرض لهزيمة كبيرة عند أرسوف، وكان الرجل كلما تقدم به العمر، فقد شيئًا من نشاطه، وفقد ولاء بعض رجاله، وفقد السيطرة على البقية الباقية.

وقد فكر في أن يركز جهوده في عملية الدفاع عن عسقلان، بعد معركة أرسوف، ذلك لأنه خشى أن يتحرك (ريتشارد قلب الأسد) إليها، ويتخذها قاعدة ليقطع عليه طريق عودته، بل إتصاله بمصر.

---

(١) «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين» محسن محمد حسين (ص٤٧٥).

تخريب صلاح الدين عسقلان

يقول ابن خلدون في تاريخه[١]: وسار الإفرنج إلى يافا، فوجدوها خالية، وملوكوها، وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة إلى الرملة، وجمع مخافة وأثقاله، واعتزم على مسابقة الإفرنج إلى عسقلان، فمنعه أصحابه، وقالوا: نخشى أن يزاحمنا الإفرنج عليها، ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا، ويملكونها آخر ويقووا بما فيها من الذخائر والأسلحة، فنذبهم إلى المسير إليها، وحمايتها من الإفرنج، فلجوا في الإمتناع عن ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة الإفرنج، ووصل إلى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان، وألقيت حجارتها في البحر، وبقى أثرها وهلك من الأموال والذخائر ما لا يحصى ولا يعد، فلما بلغ الإفرنج ذلك، أقاموا بيافا[٢].

وبعث (المركيش) إلى ملك إنجلترا حيث لم يتاجر صلاح الدين على عسقلان ثاني رمضان إلى الرملة.

وقد ذكر ابن شداد أن صلاح الدين أسرع إلى تخريب عسقلان وسط بكاء الناس أسفًا وغمًّا لخرابها.

ولم يحاول ريتشارد قلب الأسد استثمار انتصاره في أرسوف ـ كما ذكرنا ـ وخاصة بعد أن توضحت له صورة الوضع العسكري، كما لم يباغت المسلمين أثناء إنهماكهم بتدمير عسقلان، ليستولى على المدينة بالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يشأ المغامرة بتحويل خط سيره إلى الداخل لمهاجمة القدس (بيت المقدس)، وهي

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» ط: الأفكار الدولية المجلد الواحد (ص١٤٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٤٢٥).

المدينة التي كانت تعاني في ذلك الوقت من الإهمال وعدم العناية، وضعف وسائل الدفاع عنها.

واختار (ريتشارد) أن يثبت أقدامه في المدن الساحلية، ليحمي مؤخرة جيشه، فأعاد بناء يافا، وأضاع من الوقت في تلك العملية زهاء شهرين أعاد خلالها صلاح الدين تنظيم صفوف قواته، واستعد لجولة أخرى معه.

وأقام صلاح الدين في المناطق القريبة من بيت المقدس حتى يكون قريبًا من العدو ومن المدينة معًا، فإذا حاول العدو مهاجمتها منعه، وأرسل أخاه العادل لتفقد أحوالها[١].

وعقد في ٦ شوال عام ٥٨٧هـ - ٢٨ من تشرين الأول عام ١١٩١م، اجتماعًا مع أركان حربه لتحديد الخطوة التالية، وتقرر البقاء في أماكن تمركز الجيش، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم[٢].

لكنه قام بتحصين بيت المقدس عندماعلم بنية العدو لمهاجمتها، في تلك الفترة كان (تقي الدين عمر) ابن أخي صلاح الدين في الجزيرة قد مات، وتولى ابنه ناصر الدين محمد بعده، فطلب من صلاح الدين إقراره على بلاد أبيه مع إقطاعاته في الشام، ولم ير صلاح الدين مصلحة في تسليم البلاد إلى صبر مرفض، وتمرد الفتى، فأرسل إليه ابنه الأفضل ثم أخاه العادل، وكتب إلى الأمراء هناك بإنقاذ العساكر، وخاف الفتى المتمرد، وتوسط العادل لإصلاح أمره مع صلاح الدين، فأعطاه إقطاع أبيه في الشام، وأخذ صلاح الدين منه الجزيرة: حران، الرها، سميساط، حافي، ميامارفين، وأعطاها للعادل، وطلب إليه أن

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٧).
(٢) ابن شداد (ص٢٩٤).

يعيـد الذي كان وصل حلب، وتسلم الـعادل البلاد، وعـاد بابن (تقي الدين)، ولحقت بهم العساكر الشرقية من الموصل، وسنجار، وديار بكر، وغيرها، ورأى الفرنج ذلك، فعلموا أن لا طاقة لهم بهذه الأجناد إن فارقوا البحر، فرجعوا وفي عزمهم محاصرة بيروت، فلحق بهم صلاح الدين إلى مرج عيون، ولما علم أنهم استقروا في عكا، حاصر يافا وملكها بالسيف عنوة ونهبًا، وقتلوا الفرنجة وأسروا الكثير، وكـان بها معظم ما فقـده من الإمدادات التي جاءت من مصر، ونهـبها الفرنج، ووقف بعض مماليك صـلاح الدين علي أبواب المدينة يأخذون من الجند منهوباتهم وعصيت القلعـة، فلما كادت تسقط خرج بعض حاميتـها مع القسيس الكبير يستمهلون إلى الصبـاح التالي ليسلموها، وكان ذلك خدعة منهم، لأنهم كان ينتظرون نجـدة من عكا وصلتهم، وأدركهم ملك الإنجليز، فـأخرج المسلمين من يافا وبرز وحده إلى خارج المدينة وحمل عليـهم، فلم يتقدم إليه أحد ووقف بين الصفين، وتناول طعامه.

وحين طلب صـلاح الدين من جنده الـهجـوم، قـال له أحـد القـادة: قل للممـاليكك الذين أخذوا أمس الغنـيمة وضـربوا الناس بالحماقـات أن يتقـدموا فيقاتلوا، إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم.

فغضب صـلاح الدين وعاد، فاقتلع خـيمته وانسـحب بالجيش إلى يازور، وليس في الأمراء أحد يجرؤ على مخاطبته بكلمة.

يقـول ابن شداد: أنه حين نزل في خـيـمة صـغيـرة جاءه من الشـام بعض الفاكهة، فقال لابن شداد: قل للأمراء أن يأتوا فـيأكلوا، فأتوا خائفين مترقبين، فلم يلم أحدًا منهم، وتبسط معهم، وخـرجوا من عنده فرحين، ثم أمر بالرحيل إلى رملة.

المفاوضات الطويلة قبل صلح الرملة

كان من نتيجة ملازمة ابن شداد لصلاح الدين، أن سجل تفاصيل هذه المفاوضات مع الفرنج التي استمر خمسة عشر شهرًا من ٢٣ جمادى الأولى ٥٨٧هـ حتى ٢٠ شعبان ٥٨٨هـ، واقتضت ٤٢ وفدًا، وجلسة مفاوضات تنقطع مرة وتتصل مرة أخرى، ولعل من المهم أن نذكر أن البادئ في طلبها دومًا ملك الإنجليز.

ولو نظرنا لواقع الأمر لوجدنا أن صلاح الدين لم يستثمر الظروف التي أتيحت له لتحرير يافا، وامتازت المفاوضات مع حامية القلعة بطابع الشد والجذب والتسويف والإعتماد على الوقت، ولو تتبعنا ابن شداد لوجدنا ما يلي: كان أول انطباع لـ (ريتشارد) عن صلاح الدين ما حدثه به الفرنجة عنه، فقالوا: إنه لأي صلاح الدين شيطان رجيم وملاك رحيم في وقت واحد، فأراد (ريتشارد) أن يراه، وفي خلال أول معركة بينهما بعد عشرة أيام من وصوله عكا طلب أن يراه، وأرسل رسولاً يطلب الإجتماع بالسلطان[1]، فأجاب صلاح الدين على الفور: الملوك لا يجتمعون إلا على قاعدة، ولابد من ترجمان، كانت عكا لم تسقط بعد.

انقطع رسول (ريتشارد) ثم عاد وتحدث في أواخر جمادى الأولى مع الملك العادل يطلب الإجتماع معه في المرج وحدهما في صفي العسكريين مع ترجمان، وأذن صلاح الدين، لكن الإجتماع لم يتم، ثم جاء الرسول يقول باسم الملك: لا تظن أني تأخرت لما شاع من إنكار الفرنج للإجتماع، فأنا أحكم ولا يُحكم عليَّ، ولكني مرضت، وعادة الملوك أن يتهادوا، وعندي ما يصلح السلطان، فإن أذن أرسلته.

---

(١) «سيرة ابن شداد» (ص١٦٣).

وقال العـادل: بشرط، قـبول المجـاراة على الهدية، فطلب بعـض الدجاج لإطعام بعض الجوارح التي هزلت، ويريد إهدائهـا للسلطان، وأدرك العادل أنها لطعام الملك، فأحضر له منهـا، وقبل أن يغادر الرسول قال: ما الذي أردتم منًّا، إذا كان لكم حـديث نسمع، فأجابوه: نحن مـا طلبناكم، وأنتم طلبتمـونا، فإن كان لكم حديث فهاتوه.

وبعد ستة أيام، خرج رسول آخر مغـربي أسير مسلم هدية للسلطان، فقبله وأطلقـه، وكـان غرضـهم من تكرار إرسـال الرسل تعـرف قـوة النفس لدينا، وغرضنا بقبولها تعرُّف ما عندهم[1].

وحين قوى زحف الفرنج بشدة على البلد، وخشيت الحامية سقوطها، خرج إليهم القـائد (سيف الدين المشطوب)، يطلب تسلم عكا بالأمـان، فرفض ملك الفرنسيين ذلـك، فأغلظ له المشطوب بالكلام، وقال: ما نسلم البلد حـتى نقتل بأجمعنا، ولا يقتل واحد منها حتى يقتل خمسين من كباركم[2].

مقدمات صلح الرملة:

ومن قراءتنا لمذكرات ابن شـداد اليومية، نجد أن صـلاح الدين بالإضافة إلى عدم استثـماره للوقت، والشد والجذب، والتسوين في المـفاوضات، نجد الرجل وكأنه لميكن يعـرف ما يريد، ومن ثمَّ نلمس الفـرق الواضح بين الجيش الأيوبي المتضعضع والمتخاذل، وبين إندفاعـه العارم في أعقاب معركة حطين، إلا أن هذا العمل العسكري الفاشل ـ معركـة أرسوف ـ كان يبين بوضوح التراجع التنازلي الذي صار سمـة عمليات صلاح الدين منذ إخفـاقه في صور[3]، ومع ذلك فإن

---

(١) ابن شداد (ص١٦٥-١٦٦). (٢) المصدر السابق (ص١٦٥).
(٣) «الجيش الأيوبي» محسن محمد حسين (ص٤٩٢).

(ريتشارد قلب الأسد) جدد عرض الصلح، لأنه هو الآخر كان يواجه مشاكله على الجانب الآخر، فقد بدأت صحته تعتل، ومات ملك فرنسا، وعُرف أنه يرغب في السفر إلى أوروبا، كل هذه الأحداث تجعلنا نتابع مذكرات ابن شداد اليومية في مراحل منها، فيقول: وفيما كان صلاح الدين يهيئ هجومًا على المحاصرين لعكا، ويتخاذل أمراؤه بحجة أنها مخاطرة بالإسلام كله، ولا مصلحة في ذلك، وصل ثلاثة رسل من الملك الإنكليزي يطلبون له ثلجًا وفاكهة، وذكروا أن مقدم الاستبارية يخرج في الغد ويتحدث معه في معنى الصلح، ودخلوا سوق العسكر يتفرجون ثم عادوا[1].

وبعد يومين في ١٠ جمادى الآخرة خرج ثلاثة رسل، واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا ساعة زمنية وعادوا إلى أصحابهم، وفيما كان الفرنج في اليوم الثاني يستعدون للحرب خرج زهاء أربعين نفسًا واستدعوا جماعة من المماليك، وطلبوا منهم العدل الزبداني، فحضر العدل وجرى مبادئ حديث في معنى حديث في معنى إطلاق العسكر الذين بعكا، واشتطوا فيما طلبوا في مقابل ذلك اشتطاطًا عظيمًا وتصرم النهار، ولم ينفصل حال[2].

ثم اشتد الحال على حامية عكا، وضعف البلد وكثرت ثغر سوره، وجاهد المقيمون فيه، واشتد ثبات الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانًا حتى يطلق الجميع الأسرى الذين في يد المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وبذل لهم تسليم بما فيه دون من فيه، فلم يفعلوا، وبذل لهم

(١) ابن شداد (ص١٦٩).

(٢) المصدر السابق.

في مقابل كل واحد في البلد واحد من أسراهم مقابلة فلم يفعلوا، وبذل لهم في ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا، واشتد عتوهم، واستفحل أمرهم[1].

وفي ١٧ جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر، وعجزوا عن الحفظ والدفع أو عين الهلاك، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من ا لعدد والأسلحة والمراكب، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم، وجميع ما فيه ومئتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ومئة أسير معيَّنين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة الخاصة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيز (مونتفرات)، الذي كان واسطة المفاوضة عشرة آلاف دينار، لأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك.

ولما وقف السلطان على كتبهم أنكر ذلك إنكارًا عظيمًا، وعظم عليه هذا الأمر وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها ـ وهي عادته الدائمة ـ، وعرَّفهم ذلك، واضطربت به آراؤه وتقسم فكره وتشوش حاله، وعزم أن يكتب في تلك الليلة مع العوَّام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو في مثل هذا الحال، في وسط المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر، وصلبانه، وشعاره على أسوار البلد ظهر الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين، وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة.

---

(١) ابن شداد (ص ١٧٠).

ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظ من ذلك على قدر إيمانه[١].

ومَثلتُ بخدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلي والوالة الخيري، وذكرته الفكر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد.

وفي سحر تلك الليلة خرج من الفرنج ثلاثة نفر معهم الحاجب موشي صاحب (بهاء الدين قراقوش)، مستنجدين ما وقع عليه من عقد الصلح من المال والأسرى، وساروا إلى دمشق في ٢١ جمادى الآخرة، يبصرون الأسرى، وانفذ السلطان رسولاً إلى الفرنج يسأل منهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما استقرت عليه الهدنة[٢].

وجرت وقعة أخيرة أمام عكا بين صلاح الدين والفرنج كثر فيها القتال، وانكسر فيها العدو وانهزمت خيالته وأسلمت الرجالة، وجرح منهم خلق عظيم حتى انسحبوا إلى خنادقهم، وفي ذلك اليوم عاد الفرنج الذين أرسلوا إلى دمشق ومعهم من مميزي أسراهم أربعة نصر، ووصل منهم في العشية أيضًا رسل إلى السلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين في عكا، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين.

حتى كان يوم ٩ رجب ٥٨٧هـ، إذ خرج فيه (حسان الدين بن باريك) المهداني ومعه اثنان من أصحاب الإنكتار فأخبره أن الملك (فرنسيس) إلى صور، وذكروا شيئًا عن تحرير أمر الأسرى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت، وهي في العسكر أم حمل إلى بغداد، فأحضر الصليب

(١) المصدر السابق (ص١٧٠-١٧١).
(٢) المصدر السابق (ص١٧٢).

وشـاهدوه، ورموا نفـوسـهم في الأرض ومرغـوا وجـهوهم على التـراب، وخضعوا خـضوعًا عظيمًا لم ير مثله، وذكـروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون مـا وقع عليه القـرار يُدفع في تروم أي أقسـاط ثلاثة، كل ترم شهر، ثم أرسل السلطان إلى (الفرنسيس) رسـولاً سار إلى صور بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة، وعاد (ابن باريك) ورفيقاه إلى الإنكتار.

ولم تزل الرسل تتواتر في تحـرير القاعدة وتنجيزها حـتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسـارى والمال المختص بذلك الترم، وهو الصليب، ومئة ألف دينار وستمئـة أسير، وأنقذوا ثقاتهم، وشاهدوا الجمـيع ما عدا الأسرى المعنيين من جانبهم، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكلمونهم حتى يحـصلوا، ولم يزالوا يطاولون، ويقضـون الزمان حـتى انقضى الـترم الأول فكان انقضاؤه في ١٨ رجب.

ثم انفذوا في ذلك اليـوم يطلبون ذلك، فقال السلطان: إمـا أن تنفذوا إلينا أصحـابنا وتتسلـموا الذي عُيِّن لكـم في هذا الترم ونعطيكم رهائن على الـباقي يصل إليكم في ترمكـم الباقـية، وإمـا أن تعطونا رهائن على مـا نسلمـه إليكم وتقنوعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنَّهم إن تسلمـوا المال والصليب والأسـرى وأصحـابنا عندهم لا يؤمن غـدرهم، ويكون وهن الإسلام بذلك عظيمًا لا يكاد ينجبر[1].

ولما رأوه امتنع أخرجوا خيـامهم إلى ظاهر خنادقهم ٢١ رجب، وكان الذي برز ملك الإنكتـار ومعـه خلق عظيم من الخـيالة والرجـالة والتركـييل، وغـدر بأسارى المسلمين، وكـان قد صالحهم وتسلم البلد منهم، وأظهـر ما كان أبطن،

---

(١) ابن شداد (ص١٧٣).

وفعل ما كـان يريد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على مـا أخبر به عنه أهل ملتـه فيـما بعـد، وركب هو وجمـيع عسـكر الفرنج حـتى توسطوا المرج، ثم احضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم، في الحبال، وأوثقوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرًا طعنًا وضـربًا بالسيوف، واليزك الإسلامي يشـاهدهم ولا يعلم ما يصنعون لبعده عنهم، وأنفذ اليزك خبر التـجمع إلى السلطان، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وجرت بين الطرفين معـركة عظيمة دامت إلى الليل، وأصبح المسلمـون يكشفون الحال، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصـارعهم وعرفوا ما عرفوه منهم، وغشى السلطان صلاح الدين بذلك حزن عظيم، وكآبة عظيـمة، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفًا مقدمًا أو قويًا أيِّـدًا للعمل في عمائرهم، وذكر لقتلهم، أسباب أنهم قتلوهم في مقـابل من قتل منهم، وقيل: أن الإنكتار كان عـزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه[1].

وانقطع بذلك أمر هدنة عكا، وعادت الحرب، فقد الفرنج وأشعلوا النيران، في مستهل شـعبان، كعادتهم عند الرحيل، واتجهـوا جنوبًا في ثلاث فرق: فرقة بجانب البحر، وواحدة في الوسط للفرسان، والثالثة من جانب المسلمين، وساير المسلمون تحركهم، وكانت موقعة قيسارية، ثم موقعة أرسوف وما جرى بها.

قبل هذه المعركة طلب العدو في ١١ شـعبان ٥٨٧هـ، مقدم اليزك، وأرادوا منه الإجتماع بالملك العـادل ليتحدثوا معه، وكان حـاصل حديثهم: إننا قد طال بيننا القتال وأنه قتل من الجانبين الأبطال، وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم، وكل يرجع إلى مكانه.

---

(١) المصدر السابق (١٧٥-١٧٦).

وكتب العادل إلى السلطان رقعة بذلك، فأجابه: إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث فلعلهم يقدمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منًّا، واجتمع ملك الإنكتار بالعادل ذلك اليوم، وكان الترجمان بينهما (ابن الهنفري)، ولقد رأيته يوم الصلح وهو من فرنج الساحل، شاب حسن حليق على شعارهم[١].

وأذن السلطان للملك العادل لقمائهم، واجتمعا بنجوة من أصحابها، وشرع الإنكتار في ذكر الصلح، فقال العادل: أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان، فقال الإنكتار: القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفون إلى بلادكم، فأخشن له الجواب، وجوت منافرة اقتضت أن رحلوا بعد إنفصالهما، وانقطع الاتصال بعد ذلك لتعود الحرب من جديد، وتكون موقعه أرسوف الخاسرة.

وفيما كان صِلاح الدين يخرب عسقلان وأخوه يراقب الفرنج على يافا، وصل منه كتاب يخبر السلطان أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وأنه خرج إليه (ابن الهنفري)، وتحدث معه في هذا المعنى وأنه طلب جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما رأى في نفوس الناس من الضجر والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليهم يسمح له في الحديث بذلك، وفوضه إلى رأيه[٢]، ولكن المفاوضات انقطعت بعد ذلك عشرين يومًا.

خلال ذلك الوقت ـ كان صلاح الدين في الرملة ـ وصل رسول من (المركيز منتفرات) ـ الذي هرب إلى صور من كيد ملك الإنجليز ـ يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يُعطي صيدًا، وبيروت على أن يجاهر بالعداوة، ويقصد عكا،

---

(١) ابن شداد (ص١٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص١٨٧).

ويأخذها هنا منهم، واشترط أن يبذل له السلطان اليـمين على ذلك ابتداء، فسير إليه العدل النجيب، وحـمل الإجابة إلى ملتمسه بقصـد فصله عن الفرنج، فإنه كان خبيثـا ملعونًا، وكان قد استشعر منهم أخـذ بلده، وهي صور منه، فانحاز عنهم، واستـعصم بهـا وهي منيعة، فـقبل هذا القـول منه لهذا السـبب، وسار النجيب مع رسوله ١٢ رمضان، واشتـرط عليه أن يبدأ بمحاصرة القوم في عكا، وأخذها وإطلاق من بها ومن بصور من الأسرى وعند ذلك يسلم إليه الموضعان.

وفي عشـية ذلك اليـوم خرج رسول الإنـكتار إلى الملك العـادل في تحريك سلسلة الحديـث في الصلح، وترددت الرسل بين العادل والإنكتـار يذكرون عن السلطان أنَّه قد سلم أمر الصلح إلى العادل، وخـرج من الفرنج عشرة أنفس إلى اليزك، فـأخبروه بأخبـار طيبة، كتب بهـا السلطان ١٧ رمضان منهـا موت ملك فرنسان، ومنها عودة ملك انكلترا إلى عكا، ثم عرف أنه مريض، وأن أهل عكا ضعفوا وقلت الميرة عنهم[1].

وفي ٢٦ رمـضـان طلب الإنكتـار رسـولاً من عند العـادل، فـأنفـذ إيهم الصنيـعة، وهو كـاتبه وكـان شابًا حـسنًا، فوصل إلى ملك الإنجليـز، وهو في ياروز، ومعه جميع كثير قد انبثوا في تلك الأرض، فسيَّره معه وحدَّثه في معنى الصلح، وقال: لا أرجع عن كلام تحـدثت به مع أخي وصديقي ـ يعني العادل ـ وذكر له كـلامًا كتـبه العادل في رقـعة أنفذها السلطان، وفـيها بأنـه يسلم عليه ويقول: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وضـربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقـد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتـين وقد أخذ هذا الأمر حـقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبـلاد، والقدس فمتى عدنا نتنازل

(١) المصدر السابق (ص١٩٣).

عنه، ولولم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار لها عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم.

قرأ صلاح الدين الرسالة واستدعى أرباب المشورة، وشاورهم في الأمر، وكيف يجيب على هذه الرسالة، والذي رآه السلطان في جوابه عليها أنه قال: القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن نتنازل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وإما البلاد فهي أيضًا لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئًا لضعف من كان من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائمًا، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغلة وننتفع به، وأما الصليب فملاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها، وسار الجواب مع الواصل منه[1].

وهنا دخل ملك الإنجليز في مشروع خبيث فيه مكر ودهاء، كان بالنسبة إليه بوصفه من بلاد الغرب وغريبًا عن المشرق الإسلامي أمرًا مألوفًا في حل النزاعات، فقد جاء رسوله يذكر أن الملك الإنكليزي اقترح ووافق على أن يتزوج العادل بأخت الملك - التي صحبها أخوها من صقلية بعد أن ترملت -، وذكر العادل أنه قد استقرت القاعدة على أن يتزوج منها، وأن يكون مستقر ملكها بالقدس، وينزل لها أخوها عن بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، ويعطي السلطان إلى العادل جميع ما في يده من الساحل ويجعله ملك الساحل مضافًا إلى ما في يده من

---

(١) ابن شداد (ص١٩٤).

البلاد والإقطاع، ويسلم صليب الصلبوت، وتكون القرايا (القرى) للدواية والحصون لهما، وأسرانا يفك أسراهم، وكذلك أسارهم، ويرحل ملك الإنكتار طالبًا بلاده في البحر.

وجرت مفاوضات طويلة حول هذا الحل الإنجليزي إلى أن قبل به العادل، فاستدعى ابن شداد مع أميرين من الأمراء، لحمل المشروع إلى صلاح الدين، فإن وافق شهدوا عليه بذلك وتمّ الصلح.

وفي ذلك يقول ابن شداد: وتلوت عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى إضافة بهذه القاعدة معتقدًا أن الملك الإنجليزي لا يوافق على ذلك أصلاً، وأن هذا هزء منه ومكر، وكرر الرضا ثلاث مرات، وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به، فعدنا إلى الملك العادل وعرفناه بما تم.

كان ذلك ٢٩ رمضان، وفي ٢ شوال، سار رسول من جانب السلطان والملك العادل إلى مخيم العدو، فأنفذ إليه الملك أن أخته حين عرفت الأمر تسخطت وغضبت بسببه، وأنكرت ذلك إنكارًا عظيمًا، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك، وقال الملك: إن كان العادل يتنصّر، فأنا أتمم ذلك[١].

ولا يخفى على أحد أن الملك الإنجليزي الماكر، ما كان ليقترح مثل هذا الإقتراح، دون علم أخته وهي معه، وكان في ذهنه سلفًا أن ينسق هذا الأمر إذا قبل، بأن يطلب تنصر العادل، وهو يعرف أن ذلك مستحيل لأنه يخرجه بذلك عن إمكان حكم القدس ويحل دمه كمرتد، ولكنه أراد الاستهزاء بالمسلمين، وإظهار ترفعهم عن مستواهم وتفوقهم عليهم بالتمسك بالعقيدة عليهم، وانتهى الأمر عند ذلك، وترك باب الكلام مفتوحًا في حين أعلم العادل أخاه بذلك،

(١) ابن شداد (ص١٩٧).

وخرج الفرنج من يافا بجيوشهم إلى عسقلان، ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى وصل صاحب صيدا مرسلاً من صاحب صور، وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث مترددة، حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونصرتهم، ويصيدون معنا عليهم، ووقعت أثناء ذلك واقعة الكمين(١).

وخلال ذلك طلب الملك الإنجليزي الإجتماع بالعادل على مائدة طعام، فحمل العادل معه من الأطعمة والتجملات والتحف ماجرت العادة بحمله من ملك إلى ملك، وهو إذا تجمل لا يغلب، وتفاصلا عن تواد ومطايبة، ومحبة أكيدة، وطلب الملك من العادل أن يلتمس من السلطان الإجتماع به، ولما وصلت الرسالة إلى صلاح الدين بذلك وشاور بها جماعته، فما منهم وقع له ما وقع للسلطان(٢).

وقد أجاب السلطان بقوله: إن الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك، فإذا انتظم أمر حسن الإجتماع، والإجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مهم، ولابد من ترجمان نثق به وأثق له، فليكن هذا الترجمان رسولاً حتى يستقر أمر، وتستتب قاعدة، وعند ذلك يكون الإجتماع، قال الرسول: ولما سمع الأنكتار ذلك استعظم الجواب، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرضه، إلا بالدخول تحت المراضي السلطانية(٣).

وفي التاسع عشر من شوال اجتمع صلاح الدين إلى صاحب صيدا مع جماعته، وكان حديثه حين خلابه أن يصالح السلطان المركيز (مونتفرات) الذي

---

(١) المصدر السابق (ص١٩٩).

(٢) ابن شداد (ص٢٠٠).

(٣) ابن شداد (ص٢٠١).

انضم إليه جماعة من أكابر الفرنج، ومنهم صاحب صيدا، وبدا له السلطان الموافقة على شروط تصديها الإيقاع بينهم وأن يحجب بعضهم، ووعد بأن يرد عليه الجواب فيما بعد.

وفي عشية اليوم نفسه وصل رسول الأنكتار (ريتشارد) وهو ابن (الهنفري) وفي صحبته شيخ كبير منهم .. فأحضره السلطان وكانت رسالته: أن الملك يقول: «إنني أُحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكمًا بيني وبينه، ولابد أن تكون لنا علاقة بالقدس، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه ولا عليَّ لوم من الفرنجية ..».

فأجابه في الحال بوعد جميل .. وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى، وكان منفصلاً عن حديث الصلح، فقالوا: إن كان الصلح فعلى الجميع، وإن لم يكن فلا يكون من حديث الأسارى شيء، وكان قصده أن يفسخ قاعدة الصلح، فإنه التفت إليَّ بعد انفصالهم وقال لي: متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه ولكنه غُلِبَ على الصلح»[1].

وبعد يومين اجتمع السلطان مع امرائه لمشاورتهم وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيز، وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهدهم بالعداوة، وذكر ما التمسه من تقرير قاعدة الصلح، وهو أن يكون من القرى الساحلية كلها مناصفة، ويكون لهم أقسام في بِيَع القدس وكنائسه، وكان الأنكتار (ريتشارد) قد خيَّرنا بين هذين القسمين، فشرح ذلك واستنبط رأي

---

(١) ابن شداد (ص٢٠٢، ص٢٠٣).

الأمراء، وفي ترجيح أحد الجانـبين، فرأوا أنه كان الصلح فليكن مع الملك، فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطـونهم بعيدة وغير مأمونة الغائلة، وانفضَّ الناس وبقى الحديث متردداً في الصلح، والرسل تتواصل في تقرير قواعده.

وكان آخر رسـائل الملك أن النصارى أنكروا عليه تزويج أختـه دون مشاورة البابا، وأن يسيِّر رسولاً إليه يعود في ثلاثة أشهر، فإن أذِنَ وإلا فإنه يزوج العادل ابن اخته ولا يحتاج الإذن . .[1].

وهنا يعلل الملك (ريتشارد) بأن الثيب تحتاج إذن البـابا، والبكر يزوجهـا أهلها، هذا وسوت الحرب قائم والقتال ضربه لاذب، وصاحب صيدا كان يركب مع العادل أحـيانًا ويشـرف على القتـال، وهم كلما رأوه تحركـوا لطلب الصلح خوفًـا من أن ينضاف المركـيز إلى المسلمين. واستـشار صـلاح الدين أمراءه في رسالة الملك الجديدة، وأحضر الرسول وكـان ابن الهنفري يترجم بينه وبين البحر ، واستقر الرأي على أن ينفذ معهم رسولين؛ من جانبه واحد ومن جانب العادل الآخر؛ لأن الحديث يتعلق به، وكان الجـواب: إن كان عقد فيكون على الأُخت لأنه سبق الحديث فيها ونحن لا نرجع عمَّا قلناه، وإن لم يتهيأ فلا حاجة بنا إلى ذلك . .[2].

وقـد رغب صـلاح الدين من ذلك إحـراج الملك الإنكليـزي وإثارة البـابا عليـه؛ لأنَّه قدَّر أنه لا يمـكن أن يرضى ويأذن، وكان ذلك جـوابًا على تغُّـدر الملك وطلبه تنصُّر العـادل المستحيل . . وانفصل الحال على ذلـك دون نتيجة، وتوقَّفت المفاوضة.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن شداد (ص٢٠٤).

عاد السلطان إلى القدس بعد أن حل الشتاء وكثر المطر والوحل، وأعطى العساكر دستورًا، وعاد العدو إلى يافا، وذهب الملك إلى عكا، وعقد السلطان مشورة اتفق الرأي فيها على أن يمضي العادل يجتمع بعساكر الغور وصفد وكوكب وتلك النواحي، فإن فوتح في الصلح يقول: إن الحديث قد جرى بيننا مرارًا وما أسفر عن مصلحة، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث، وأنا لا أجتمع بك إلا أن أرى ما يقارب فصل الحال.

وقدر السلطان مع العادل أنه ما يمكن فصل الحال عليه فصله، وإلا طاوله وماطله إلي أن تصل العساكر من الأطراف، والتمس العادل تذكرة في معنى فصل الحال، فكتب له تذكرة ذكرت فيها المناصفات، وذكر أمر بيروت أنه إن أصر على طلبها اشترط خرابها ولا تعمر وكذلك القابون، وإن التمسوا عمارة و(غرأجيب)، ويعطى صليب الصلبوت، ويكون لكنيسة القيامة قسيس، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح، وكان الحامل على ذلك ما أخذه الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان. فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب الدستور منه..»[1].

وانقضت بعد ذلك أربعة أشهر دون مفاوضة، وقد سار في آخرها العادل من القدس إلى بليسان (٤ ربيع الأول ٥٥٨هـ)، ثم وصل كتابه يُخبر أنه لقيه ابن (الهنفري) مع الحاجب (أبي بكر) رسولاً من الأنكتار (ريتشارد) يقول: «قد وافقنا على مقاسمة البلاد وأن كل من بيده شيء فهو له، فإن كان ما بأيدينا زائدًا أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر مغلقًا ذلك، والقدس لنا ولكم قبة الصخرة!.

---

(١) المصدر السابق (٥٠٢).

فأوقف السلطان الأمراء على الخطاب، وفاستصوب ذلك الأمير (أبو الهيجاء السمين)، ورأى الأمراء أنَّ من قال هذا المقال يوافق على ما مضى عليه الملك العادل وهو مصلحة، وسار الجواب بذلك إلى الملك العادل، ثم وصل الحاجب أبو بكر يخبر أن الأنكتار سار إلى يافا من عكا، وإن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الأنكتار مفاوضات كثيرة حاصلها نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة لنا، وأن لا يكون في البلد منهم مقدم مذكور وأن يكون قري القدس وباطنه مناصفة[1].

وجاء الخبر بعد ذلك أن الأنكتار أغار على الداروم ونهب الغنم والمواشي، فعظم ذلك على السلطان، وسيَّر جماعة فلم يلحقوا بها، ولكن غلامًا لصاحب صيدا اسمه (يوسف) وصل من جانب المركيز يلتمس الصلح مع المسلمين، فاشترط السلطان شروطًا منها: أن يقاتل جنسه ويباينهم، ومنهم أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية بعد الصلح بانفراده تكون له، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك من الأموال، ومنها أن يطلق لنا كل أسير من مملكته، ومنها أنه إن فوَّض إليه الأنكتار أمر البلاد لأمر يجري بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الأنكتار ماعدا عسقلان وما بعدها، فإنه لا يدخل في الصلح، فتكون الساحليات له، وما في أيدينا لنا، وما في الوسط يكون مناصفة، وسار رسوله على القاعدة[2].

ـ وفي ٦ ربيع الآخر، وصل يوسف من جانب المركيز بصور يجدد حديث الصلح، ويقول: «قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية، وفي هذه الأيام سار الفرنسيسة في البحر، وإن تأخر بطل الحديث في الصلح مع المركيز بالكلية،

---

(١) ابن شداد (ص٢٠٦).

(٢) ابن شداد (ص٢٠٦).

فرأى السلطان الصلح مع المركيـز مصلحة لاشتغال قلبه من جـانب الشرق بتمرد ابن (تقي الدين) عليـه وخوفه من أن يـتصل ببكتمـر فيـحدث بذلك مـا يشغل الخاطر عن الجهـاد، فأجاب إلى ما يلتمس المركـيز، وكتب مع صاحبه مـواصفة على نعت ما تقدم . . وسار العدل في جواب (يوسف) الرسول (٩ ربيع الآخر) لكن بعد أسبوع وصل من العدل كتاب بأن المركيز قتل في (١٣ربيع الآخر) وذكر القاتلان: «أن الأنكتار وضعنا عليه»[١].

وأعقب ذلك احتلال الأنكتار للداروم مسـتغلين إعطاء صلاح الدين دستورًا لعسكره، ثم نزلوا على (مجدل يابا) الحصن الحصين من الجنوب، فسير السلطان في طلب العساكر، فلما وصلت أرسلهـا وهو بالقدس لمرضه. فلما أحس العدو بدنوا المسلمين انكفـأ إلى عسقـلان التي كان بينهـا، ولم يلبس أن سمع بحـشد الفرنج فـرسانهم ورجـالهم للهجـوم على القدس، ثم أتـى جيشـهم ونزل على النطرون، ثم في بيت نوبه، وبعد عدةٍ وقائع محدودة مع العسكر الإسلامي أخذ الفـرنج قافلة ضـخمة كـانت قادمـة من مصـر، ووصل السلطان الخـبر صـباح (١١جمادى الآخرة)، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشًا منه لباطنه، وأخـذتُ ـ كما يقـول ابن شداد ـ في تسكينه وتسليـته وهو لا يكاد يقبل التسلية . . »[٢].

وإذا انسحب الأنكتـار عن القدس وعاد إلى الرملة، فقد خـافهم السلطان على مصر لما حصلوا عليه من الجمـال والظهر، وكان الأنكتار قد ذكر مثل هذا الحديث مرارًا[٣].

ـ وحين فرغ بال السلطان برحـيل العدو استحضـر رسول الكندهري الذي

---

(١) المصدر السابق (ص٢٠٨).
(٢) المصدر السابق (ص٢١٤).
(٣) ابن شداد (ص٢١٨).

وصله لسماع رسالته، فقال: إن الأنكتار قد أعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي، فأعد على بلادي كي أصالحك وأكون أحد أولادك، فغضب السلطان لذلك غضبًا عظيمًا بحيث أن كاد يبطش به، فأقيم من يديه، فسأل أن يمثل حتى يقول كلمة أخرى، فأذن له في ذلك، فقال: يقول أن البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها، فانتهره وأقامه، ولما كان يوم ٢٣ من جمادى الآخرة استحضر الرسول وكان جوابه: «يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيز».

ـ ثم وصل بعد ذلك الحاجي (يوسف) صاحب المشطوب من الفرنج، وذكر أن الأنكتار أحضره وأحضر الكندهري، وأخلى المجلس وقال له: «تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا يغتر بتأخري عن منزلي، فالكبش يتأخر لينطح، وأحضر مع الحاجي شخصين يسمعان الكلام من (المشطوب)، وكان ظاهر الكلام في معنى إطلاق (بهاء الدين قراقوش) وباطنه في معنى الصلح، وأخبر الحاجي أنهم رحلوا من الرملة قاصدين يافا، وأنهم على غاية من الضعف والعجز عن قصد مكان، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة فحضر، وكان الجواب: «إن الكندهري قد أعطى عكا ونحن نصالحه على ماله ويتركنا والأنكتار في بقية البلاد . .»[1].

ـ وبعد قرابة ثلاثة أشهر في (٢٦جمادى الآخرة) عاد رسول الفرنج بصحبة

---

(١) المصدر السابق (ص٢١٨- ص٢١٩).

الحاجي (يوسف)، وقد حمل رسالة يؤديها بحضور صاحبه، وهي أن الملك الأنكتار يقول: إنه راغب مودَّتك وصداقتك، وأنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرضي، ولا يظن ذلك فيك، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنجة كلَّهم، وهذا ابن أختي الكندهري ملَّكته هذه الديار، وسلَّمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا.

ويقول: إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبَّلتها وقبلتها..».

سمع السلطان الرسالة وجميع أرباب المشورة لديه، وسألهم كيف يكون جوابها، فما منهم إلا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون، واستقر أنه يكون الجواب: «إذا دخلت هذا المدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، ابن أختك يكون عند السلطان كبعض أولاده، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة (القيامة) وبقية البلاد نفسها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بين أيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خرابًا لا لنا ولا لكم، فإن أردتم قرأها تكون لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان»، وانفصل الرسول طيب النفس[1].

وفي اليوم التالي وصل خبر بأن الفرنج راحلون إلى القدس، وأن البابا وصل

(١) المصدر السابق (ص٢١٩).

القسطنطينية في زحف لا يعلم عدده إلا الله، وأن قطب الدين سلطان السلاجقة يستقدمه ليسلمه بلاده لأنه عجز عن حفظها، فلم يكترث السلطان لذلك كله[1].

ـ وعاد رسول الفرنج ثالثًا (٢٩ جمادى الآخرة) مع الحاجي صاحب المشطور وهو (جفري رسول) الملك، وقال: «إن الملك شكر أنعام السلطان وأن الذي يطلبه أن يكون للفرنج قلعة القدس عشرون نفرًا ومن يسكن البلد من الفرنج لا يتعرض له، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم. وقال الرسول من عنده مناصحة: «قد نزلوا عن القدس ماعدا الزيارة، وإنما يقولون ذلك تصنعًا، وأنهم راغبون في الصلح، وأن الأنكتار لابد له من الرواح إلى بلده، وكان معه في هذه بازان هدية للسلطان الذي استحضر الأمراء على هذه الحال: إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول: وليس على الزوار شيء يوخذ منهم؟ فعلم من هذا القول الموافقة.

وأما البلاد، فعسقلان وما وراءها لابد من خرابه، فقال الرسول: قد خسر الملك على سورها مالاً جزيلاً، فسأل (المشطوب) أن يجعل فرارعها وقراها له مقابل خسارته فأجاب، وإن الداروم وغيره يخرب، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد من يافا إلى صور فيكون لهم بأعمالها، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة.

ـ وسار الرسول في ٢ رجب ومعه الحاجي (يوسف) بالجواب، وكان قد طلب رسولاً مذكورًا يحلفه إن استقرت القاعدة، فأخر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة، وأرسل لهم هدية حسنة في جواب هديتهم، وما كان يغلب في الهدايا[1].

---

(١) ابن شداد (ص٢٢٠).

ـ وعاد الرسول (ليل ٣ رجب) يقول: إن الملك يسألك ويخضع لك أن تترك هذه الأماكن الثلاثة عامرة، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك، وما سبب إصراره عليها والفرنج لم يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية . . فتترك أنت هذه البلاد، ويكون الصلح عامًا؛ لأنه لم ينتظم ولا يمكنه الفرنج من الرواح، ولا يمكنه مخالفتهم، وكان مضطرًا للرواح.

واستشار السلطان أُمراءه، وكان خلاصة الرأي: إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم، فمتى عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلاَّ فلا، وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسره عليه لُداً في الوطأة[2].

وعاد حاجي (يوسف) إلى صلاح الدين (في ٧ رجب) وذكر أن الملك قال: لا يمكننا أن تخرب من عسقلان حجرًا واحدًا، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك، وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها، وعند ذلك تأهب صلاح الدين للخروج جهة العدو وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء.

وعرف صلاح الدين أن الفرنج خرجوا إلى بيروت، فرحل بالعسكر إلى الرملة وأشرف على يافا وجمع الأمراء يستشيرهم في النزول على يافا، وحاصرهم ورتَّب الناس للقتال وأطلق على السور المجانيق والنقابين، وكان الملك الإنكليزي توجه إلى بيروت، ورغم كثرة النقوب ودوام العمل في الليل والنهار، وقلة العدد وظهر رسول من يافا يطلب إنظارهم يومًا آخر، فرفض ثم عاد يكرر الطلب، فأبى السلطان؛ «وتفاتر الناس على القتال بسبب تواصل الرسل، وركنوا إلى الدعة على جاري العادة»، فأمر السلطان بحشو النقاب بالأخشاب والنار،

(١) المصدر السابق (ص٢٢٠).   (٢) ابن شداد (ص٢٢١).

ودافع الفرنجة عن المدينة ببسالة استدعت ابن شداد للقول: «لله من درهم من رجال ما أشدهم وأعظم بأسهم، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لهم بابا، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب»[1] . . كان ذلك في أواخر تموز ١١٩٢م.

وفصل الليل وضاق صدر السلطان، وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم، وبات تلك الليلة على أن يقيم خمسة مجانيق أخرى يضرب بها المدينة لتدميرها؛ وتم ذلك في اليوم الثاني، فما كانت ساعتان حتى سقطت، لكن الناس رأوا هولاً عظيمًا من صبر القوم وثباتهم، وجاء الرسل يطلبون الأمان للبلد، ولما رفض السلطان انحازوا إلى القلعة ووصل الخبر بأن الأنكتار حين علموا بالهجوم على يافا تركوا الهجوم علي بيروت وعادوا نحوها، ولم يمض يوم وبعض يوم حتى سمع الناس بوقهم.

يقول ابن شداد: فعرفنا أن النجدة وصلت من البر والبحر، فأمره السلطان مع آخرين بإبلاغ الجند في داخل المدينة لينسحبوا، ولكن النهب أبطأ ببعضهم على الرغم من هرب بعض حامية القلعة بالمراكب ليأسهم من النجدة، فقد بقي فيها أكثر الحامية حتى وصلت مراكب الفرنج في نيف وخمسين مركبًا، وأول مركب نزل جنده كان مركب الملك الأحمر، فحملوا على المسلمين في الميناء وبدأ الفرار، وخرج إلى الملك حامية القلعة فازداد سوادة، ولاحق الهاربين إلى يازدر (أول آب ١١٩٢م) ولم يتملك (ريتشارد) نفسه من القول لأحد أمراء صلاح الدين: «هذا السلطان عظيم، وما في هذه الأرض للإسلام أكبر وأعظم منه، كيف رحل بمجرد وصولي؟ والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومين».

---

(١) «سيرة صلاح الدين» لابن شداد (ص٢٢٣).

ولم تكن القوة التي جاء بها (ريتشارد) كبيرة، فهي الفان منهم خمسمئة من الفرسان، وعاد صلاح الدين فهاجم البلد مرة أخرى (٥ آب)، ولكنه لم يحب الاستجابة ولا التأييد من رجاله، وهكذا سار موقفه وانسحب بخيبة أمل إلى يازور ثم النطرون.

- ولم يمض وقت يذكر حتى طلب (ريتشارد) بعض الأمراء المسلمين، وكان قد صادق بعض المماليك، ودخل معهم دخولاً عظيمًا بحيث كانوا يجتمعون في أوقات متعددة، وصادق جماعة من الأُمراء فاجتمعوا إليه وبين الجد والهزل قال: تسلمون على السلطان وتقولون له: بالله أجب عن سؤالي في الصلح، فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم. (كان هذا في ١٩ رجب) وكان الجواب بعد مشورة الأمراء: كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان حديث في يافا وعسقلان والآن خربت يافا فيكون لك من قيسارية إلى صور.

- فرد الجواب مع رسول فرنجي إنه يقول (الملك): قاعدة الفرنج أنَّه أعطى واحد لواحد بلدًا صار تابعًا له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائمًا، وإذا احتجت إليَّ وصلت إليَّ في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي.

فكان جواب السلطان صلاح الدين: حيث دخلت هذا المدخل، فأنا أجيبك إلى أن نجعل هذين البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما وراءها، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رحل السلطان صلاح الدين مع الثقل، وأمر بخراب يازور وبيت، وأتى الرملة فخيم.

- وأتى الرسول مع الحاجب أبي بكر وكانت رسالته الشكر من الملك على

أعطائه يافا وتجـديد السؤال في عسـقلان، ويقول: إنـه إن وقع الصلح سار إلى بلاده وإلا فإنه يشتي هاهنا. فقال السلطان: «أما النـزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما الشـتاء في هذه البلاد فلابد منه؛ لأنك استـوليت على البلاد، ومتى غبت أُخذت بالضرورة، وإذا سهل عليك أن تشتي وتبعد وأنت شاب عن بلادك وهي على مسيرة شهرين، فأنا هنا في بلادي وبين أهلي وأولادي أُشتي وأُصيف ويأتي إليَّ مـا أُريده، وأنا شيخ كـرهت لذَّات الدنيا، وأعـتقـد أني بالجهـاد من أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء».

وانصـرف الهول ليلقي الملك العـادل في حين بلغ السلطان الخـبرعن نجـدة جاءت من عكا إلى يافا، فخرج إلى لقائها وفـضل أن يواجهها بالهجوم قبل أن تلاحقـه وهو منسحب، ومع أن الحملة كانت قلـيلة العدد، إلا أن جند المسلمين رغم دوران صلاح الدين على الأطلاب لم يتحرك، فوجـد في مَوْجدة عظيمة، وقال له أحد الأُمـراء الصغار: قل لمماليكك الذين أخذوا الغنيـمة على باب يافا وضربوهم أن يحملوا، فغضب وأعرض عـن القتال وإنسحب إلي يازور، ولحقه العسكر، ثم رحل إلى القدس حيث قدمت إليه العساكر من الشرق ومن مصر.

ودعـا الأمـراء للمـشورة وقـال: «إن الأنكتـار قـد مـرض مرضًـا شـديدًا والفرنسيسـية راجعون من البحر دون شك، ونفقـا قلَّت، وأرى السير إلى يافا، فإن وجدنا فيها مطمعًا بلغناه، وإلا ذهبنا إلى عسقلان..»[1].

هذا ورسل الأنكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج له، وأوقع الله له في مرضـه شهـوة الكمـثرى والخـوخ، وكان السلطان يمده بذلك، ويقـصد كـشف الأخبار بتواتر الرسـل، وعرف منهم أن الفرنسيين مغادرون حـتمًا ولاغرض لهم

---

(١) ابن شداد في «سيرة صلاح الدين».

في عسقلان، وإنما غايتهم بعمارة سور البلد والقلعة في صور. وطلب ملك الإنجليز الحاجب (أبا بكر) وحدَّثه، فعاد مع رسول من الملك يقول: إنَّه قال: قل لأخي - يعني الملك العادل - يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في الصلح ويستوهب منه عسقلان، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي مع الفرنجية، وإن لم ينزل عنها فيأخذ لي منه عوضًا عن خسارتي على عمارة سورها، وأسرَّ السلطان إلى رجل ثقة عنده إنه إذا نزلوا عن عسقلان صالحهم، فقد ضجر العسكر من ملازمته البيكمار، والنفقات قد نفذت (١٧ شعبان).

- وخرج خمسة من الفرنج إلى السلطان صلاح الدين يطلبون الحديث مع قائده، فاستأذن، فكان حديثهم أن الملك نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها، فأعاد السلطان يطلب أن ينفذ إليه الملك رسولاً ثقة يذكر ذلك، لأنه جمع عساكره، ولا يمكن أن يحدِّثه هذا الحديث إلا رجل ثقة، فإنه لا يرجع دون ذلك.

ثم كتب رئيس الوفد إلي الملك العادل يخبره بما جرى، وسار فأخذ التوقف على ما قيل، فأحضر السلطان الديوان، وذكر يافا وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، والناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقة، وكتب الجواب إلى الرسول الذي جاءه لذلك، وقال: هذه حدود بلادكم التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتكم يدي، وينفذ الملك من عند من يحلف ويكون ذلك في بكرة غد، وإلا فيعلم أن هذه تدفع ومماطلة، ويكون الأمر قد انفصل بيننا.

- قرأ ملك الإنجليز الورقة فأنكر أنه تنازل عن العوض، فقال له الجماعة: بل تنازلت. فقال: إن كنت قلت ذلك رضيت بهذا، وقولوا للسلطان (صلاح الدين): «رجعت إلى مروءتك فإن زدت شيئًا فمن فضلك وإنعامك».

ـ واجتمع أمراء صلاح الدين به وتقرر أن يُزاد على أرض الفرنج اللد والرملة. وسيَّر السلطان الجواب بأنها لهم مناصفة ولا يكون لهم حديث في الجليات، وأن تكون عسقلان خرابًا، واشترط دخول بلاد الإسماعيلية في الصلح، واشترطوا دخول صاحب أنطاكية على قاعدة آخر صلح صالحهم خشية أن يكون هذا الحديث من مناوراته المعروفة.

ـ ولما وصل الرسل إلى الملك ريتشارد استحضرهم وهو مريض، وقال: لا طاقة لي بالوقوف على النسخة وأنا قد صالحت وهذه يدي! واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، فحلف الكندهري وياليان بن بارزان، ورضى الاسبتارية والداوية وسائر مقدمي الفرنج.

وقد عرضنا مراحل طويلة من المفاوضات كما جاءت في مذكرات ابن شداد مؤرخ صلاح وصديقه الملازم له، وقد يكون في هذه الصفحات التي احتاجت إلى صبر في قراءتها وتمحيصها ردًا على قولة أن صلاح الدين استسلم للفرنج لكي يمنع الخليفة الناصر من إنقاذ فلسطين، ومما يدل على صدق هذا التصور أن هذه المفاوضات استمرت مع وجود القتال والحرب لمدة سنة وثلاثة أشهر، ونجد أن الفرنج في هذه المفاوضات بادروا قرابة ما يزيد على أربعين مرة وفي المقابل فإن ريتشارد قلب الأسد جدَّد وعرض الصلح مدفوعًا بعدة عوامل منها:

١ ـ تدهور صحته وإصابته بالمرض، حتى أنه عجز عن قيادة قواته، والتخطيط السليم لذلك.

٢ ـ وردت أخبار مزعجة من إنجلترا تفيد بأن أخاه حنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلب عودته فورًا.

٣ ـ انقطاع النجدات العسكرية من أوربا.

٤ ـ اليأس من استرداد بيت المقدس.

٥ ـ شعور الصليبيين بالإرهاق، وعدم ثقة ابن اخته هنري والطوائف الدينية العسكرية في سياسته.

• أما صلاح الدين فقد قبل الصلح هو الآخر لأسباب، منها:

١ ـ النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.

٢ ـ سآمة العسكر ومخالفتهم الأوامر.

٣ ـ خشيته من حدوث خلافات بين أسرته بعد وفاته وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة[1].

شروط الصلح (صلح الرملة)



بعد المفاوضات الأخيرة التي تحدثنا عنها، والتي كانت عسقلان وغزة والداروم مصدر خلاف رئيسي بينهم، وفي ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م حمل رسل صلاح الدين المعاهدة، فوقعها (ريتشارد قلب الأسد)، وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب ريتشارد على المعاهدة[2]، والتي جاءت نصوصها كما يلي:

أولاً ـ تكون عسقلان بأيدي المسلمين، على أن يجري تخريبها.

ثانيًا ـ يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفة.

ثالثًا ـ يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحرية.

رابعًا ـ للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.

خامسًا ـ مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

(١) ابن شداد (ص٣٤٨، ص٣٤٩).

(٢) المصدر السابق (ص٣٤٩).

ـ واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تعَدُّ جزءًا من المناطق الإسلامية التي تشملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط (ريتشارد قلب الأسد) دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس[1].

وقد حاول صلاح الدين بعد أن تخلى عنه أتباعه، وشعر بالإحباط من سوء الأوضاع حوله أن يجعل من هذا الصلح لصالح المسلمين بعد وفاته عندما اعتمد الأسس الآتية إطارًا للصلح:

١ ـ أن هذا الصلح ليس إلا هدنة محددة المدة بثلاث سنوات، وسنجد أنه قد توفي بعد الصلح بستة أشهر.

٢ ـ ساوم الفرنج على الأرض شبرًا شبرًا، ليحصرهم في أضيق تبعة ممكنة؛ رغم كراهيته لوجودهم أصلاً.

٣ ـ ترك الفرنج في المنخفضات الساحلية، ولا يكون لهم حق في الجبليات؛ لأنه أراد أن تبقى السيطرة الإسلامية كاملة على أماكن تواجد الفرنج.

٤ ـ قبل الصلح لمصلحة المسلمين الذين أرهقهم القتال والحرب.

٥ ـ حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين، وحلمه في تطهير هذه الأرض من الفرنج.

٦ ـ لم يطلب الصلح مرة واحدة من الفرنج، وكانت المبادرة دومًا من قبلهم، وقد بدأوا بأقصى ما يمكن أن يطلبوا، ثم نزلوا درجة درجة.

٧ ـ حاول (ريتشارد) بمكر وخبث أن تكون له يد في القدس؛ بأن لا يزورها

(١) «العماد الأصفهاني» (ص٦٠٣، ص٦٠٥).

الحـجـاج إلا بإذنه، فقـطـع صـلاح الدين تلك اليـد بالرفض، وقـال: لا أستحل منع أحد.

٨ ـ اهتم بالأرض قبل البشر، فلما يتنازل عن ملكية إلا لمدد محددة.

وفاة صلاح الدين



عاد (ريتشارد) بعد هذا الصلح إلى بـلاده عن طريق ألمانيا، وأُسر هناك عامًا كاملاً، ثم أطلق سراحـه بعد أن جمع له رجال الكنيسة فدية كبـيرة، أما صلاح الدين فلم يطمـئن إلى نوايا الفرنج، فانصـرف إلى الثغور يقـوي حصونهـا بعد تقوية حصون القدس.

ثم دخل دمشق بعـد غياب أربع سنين، فكان لعودتـه فرحة استـمرت عدة أيام، لكن صحته تدهورت بعدد من الأمـراض أشدها في رأسه، فتوفي في ١٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٤مارس أذار١١٩٣م.

وقد ترك مـوته فراغًا كبـيرًا في القيـادة والشجاعـة والخُلق والمبادئ، لم يستطع أحد من بعـده سد هذا الفراغ، لقد ترجل الفـارس بعد أن ظل قرابة ثلاثين عامًـا على ظهر فـرسه يجـاهد ويحارب أعـداء المسلمين. تحيـة لقائد المسلمين صلاح الدين.

الفهرس

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضوع — صفحة